نقد لحكم ابن هشام على أبي حيان
فی ضوء آرائه البلاغية

محمد نبی احمدی* علی سلیمی**

الملخص

نحا ابن هشام الأنصاري في كتابه مغني اللّبيب منحى لا مثيل له في ما كتب قبله، كدراسته ونقده لآراء النحاة من جميع المذاهب النحويّة، ولم يقف عند المسائل النحوية فحسب، بل تناول كثيراً من المسائل البلاغيّة أيضاً. فقد تعرّض لكثير من النحويين والبلاغيين والمفسرين يؤيّدهم أو يخالفهم في آرائهم، ولكنّه يخالف آراء أبي حيان النحويّة والبلاغية مخالفة شديدة وغير متعارفة، فيحكم عليه حكماً قاسياً، يتّهمه بأنّه لا يعرف علم البيان، فيقول في شأنه: "وَمَن لا يعرفُ هَذا العلمَ كأبِي حيّان".

يبدو أنّ ما جاء في تفسير أبي حيان "البحر المحيط" من آرائه البلاغيّة الهامّة مثل: "الاستعارة"، "المجاز"، "المبالغة"، و "الأغراض البلاغية للاستفهام" يدلّ دلالة واضحة، خلافاً لحكم ابن هشام عليه، على أنّه يعرف هذا العلم حق المعرفة. هذه مقالة هي نقد لقول ابن هشام فی ضوء دراسة آراء أبي حيّان البلاغية

كلمات مفتاحيّة: ابن هشام، أبوحيّان، النحو، البلاغة، النقد

المقدّمة

لا يزال الباحثون يهتمّون بموضوعات النحو والبلاغة اهتماماً بالغاً وقد اجتهد الكتّاب والمؤلّفون من العرب وغيرهم في تأليف الكتب في هذا المجال وتدريسها في الجامعات. كما كان القدماء يبذلون جهداً عظيماً في سبيل الدراسة والتحقيق فيُعنون عناية بالغةً بالنحو والبلاغة والتفسير، وكانت آراء ابن هشام في كتابه "مغني اللّبيب" حجر اساس لدراسات كثيرة في هذا الباب، لأنّه كما قيل «نهج في كتابه هذا سبيلاً لم يُسبَق إليه وهو السبيل الذي أتاح له ألاّ يدع فرعاً من الفروع إلاّ عرض له بإبداع مع عدم تكرار فأوفى في ذلك

* استاذ مساعد في اللغة العربيّة بجامعة الرازي، كرمانشاه.

** استاذ مشارک في اللغة العربية بجامعة الرازی، کرمانشاه.

على الغاية...»[1] فهذا الكتاب يحتوي على كثير من الفوائد مثل الاحتجاج بالآيات من القرآن الكريم والشواهد الشعرية؛ وبما أنّه جاء بآراء لجمع غفير من النحاة والبلاغيين يحلّلها، لذا فبإمكاننا أن نسمّيه كتاباً في نقد النحو ونقد البلاغة. ولكن، ولما يقول المثل: "فلكلّ جواد كبوة، ولكلّ عالم هفوة"، لا يخلو هذا الكتاب، مع احتوائه على هذه الفوائد العظيمة في المسائل العلمية، لا يخلو أحياناً من العيب والنقص، كما نلاحظ ذلك في حكمه القاسي على أبي حيان في تخطئة آرائه البلاغية.

مسألة التحقيق

يتحدّث ابن هشام في كتابه "مغني اللبيب" عن كثير من النحويين والبلاغيين ويحكم عليهم، يخالفهم أو يؤيّدهم في آراءهم العلمية، لكنّه يخالف آراء أبي حيان البلاغية مخالفة شديدة وغير متعارفة، فيحكم عليه حكماً قاسياً ويتّهمه بأنّه لا يعرف علم البيان، حيث يقول في شأنه: "وَمَن لا يعرفُ هَذا العلمَ كأبِي حيّان".

والسؤال المطروح هنا: هل توجد في آثار أبي حيان آراء بلاغية تدلّ على أنّه عالم بعلوم البلاغة ودقائقها خلافاً لرأي ابن هشام وحكمه القاسي عليه؟

هذه المقالة محاولة موجزة للإجابة عن هذا السؤال في ضوء دراسة لآراء أبي حيان البلاغية.

دراسات سابقة

قيل إنّ آراء ابن هشام وكتابه "مغني اللّبيب" هما ذوا أهمية عظمية في النحو والبلاغة. و لهذا الكتاب، كما هو مشهور، شروح كثيرة، منها: القصر المبني على حواشي المغني للأبياري؛ تنزيه السّلف عن تمويه الخلف لابن الصائغ؛ تحفة الغريب بشرح مغني اللّبيب للدماميني. وكتب العلماء عليه حواش جليلة، منها: حاشية الدّسوقي؛ حاشية السيوطي؛ حاشية الشمني وحاشية الأمير.

والملاحظ أنّ الشروح لكتاب "مغني اللّبيب" كثيرة جداً قام بها الدارسون قديماً وحديثاً، ولكن لايوجد في موضوع نقد لحكم ابن هشام على أبي حيّان، سوى دراسات قليلة، حيث طبع أخيراً مقال نقدي في هذا الموضوع باللغة الفارسية بعنوان:

---

١ - محمّد الأسعد، ١٤١٣ق، ص٢٨٠.

"جايگاه نحويان در كتاب مغني اللبيب": (مكانة النحويين في كتاب مغني اللبيب)، (ميرلوحي، واحمدى، ١٣٨٨ــ مجلة الجمعية الايرانية للغة العربية، ع. ١١، جامعة "تربية مدرس" إيران)، كما طبعت قبل ذلك مقالة بعنوان: "اعتراضات ابن هشام على أبي حيان" (حسن موسى الشعر، مجلة جامعة دمشق، ع ٢٢، السنة ٢٠٠٩) وهي دراسة لآرائهما في الصرف والنحو.

ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هــ ق) [٢]:

هو جمال الدين أبو محمّد عبد اللّه بن يوسف بن أحمد بن عبداللّه بن هشام الأنصاري المصري، أعظم نحاة المدرسة المصريّة لعصر المماليک، ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨هــ.

سمع على أبي حيّان ديوان زهير بن أبي سلمى ولم يلازمه ولا قرأ عليه غيره بل أصبح فيما بعد شديد الانحراف عنه. أخذ ابن هشام مذاهب النحاة وعرفها معرفة عميقة منذ حياته الأولى؛ فذاعت شهرته في العربية، فأقبل عليه الطلاب يأخذون من علمه ومباحثه النحوية الدقيقة، واستنباطاته الرائعة المبثوثة في ثنايا مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والجيد. ومنهجه في النحو هو منهج المدرسة البغدادية. فهو يوازن بين آراء البصريين والكوفيين ومن تلاهما من النحاة في أقطار العالم العربي، مختارًا لنفسه ما يتمشّى مع مقاييسه، مظهرًا قدرة فائقة في التوجيه والتعليل والتخريج، وكثيرًا مايشتق لنفسه رأيًا جديدًا لم يُسبق إليه، وخصوصًا في توجيهاته الإعرابية، على نحو مايتضح لقارئ كتابه المغني.

وهو في أغلب اختياراته يقف مع البصريين. وكان يجل سيبويه إجلالاً كبيراً كما كان يجل جمهور البصريين. وفي كل جانب من كتاباته نراه متحمسًا لهم مدافعًا عن آرائهم، وليس معنى ذلك أنه كان متعصبًا لسيبويه وجمهور البصريين، وإنما كان يوافقهم في العديد من آرائهم النحوية، ولكن دون أن يوصد الأبواب أمام بعض آراء الكوفيين والبغداديين حين يراها جديرة بالاتباع.

وعلى نحو ما كان يختار ابن هشام لنفسه من المدرستين البصرية والكوفية،

٢ – تلخيص بتصرف من مقالة لعنايت فاتحى نژاد (دائرة المعارف السلامية الكبرى، ٥: ١٨٨) و شروح مغني اللبيب.

كان يختار لنفسه أيضًا من المدرسة البغدادية والـمدرسة الأندلسية، ولعل في ذلك كله ما يصور ــ من بعض الوجوه ــ نشاط ابن هشام الأنصاري النحوي، ومدى استيعابه لآراء النحاة السابقين. وقد خلّف في العربية مصنفات كثيرة من أهمها كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. وقد اختط له منهجًا لم يسبق إليه؛ إذ لم يقسمه على أبواب النحو المعروفة بل قسمه قسمين كبيرين:

القسم الأول أفرده للحروف والأدوات، وضح وظائفها وطرق استخدامها مع عرض كل الآراء المتصلة بها. والقسم الثاني تحدث فيه عن أحكام وخصائص الأبواب المتنوعة وأحكام الجار والمجرور وخصائص الأبواب النحوية وصور العبارات الغريبة. ومن مصنفاته أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وهو مطبوع مراراً، وله شذور الذهب في معرفة كلام العرب؛ قطر الندى وبل الصدى.

أبوحيّان الغرناطي (ت۷۴۵هـ ق):

أثير الدّين محمّد بن يوسف (۶۵۴هـ ــ۷۴۵هـ) المعروف بأبيحيّان ولد في غرناطة، نشأ وتعلّم هناك وهو بربريّ الأصل،[٣] وله آثار كثيرة[٤]، أشهرها "البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم". كانت شهرته الذائعة في مقدرته في القراءات واللّغة قد سبقته وعلا ذكره بين الأنام ومدحه كثير من الأدباء نحو: محيي الدّين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الرسائل في مصر، صدر الدّين بن الوكيل، نجم الدّين الإسكندري، القاضي ناصر الدّين الشافع وخليل بن أيبك الصفدي. كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وكان عبقريّاً بينما كان أصدقاؤه شديدي الحسد له وكان يتلذّذ كثيراً بقراءة الكتب وكشف الغموض، وكان يأنس

٣ – حسيني دشتي، ١٣٨٥هـ ش. ص٣١٧

٤ – أهمّها: _ الأسفار – التجريد لأحكام سيبويه _ التذييل و التكميل في شرح التسهيل _ ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب _ التنخيل _ إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب _ كتاب النافع في قراءات نافع _ التذكرة ٩_ التدريب _ غاية الإحسان _ كتاب الأثير في قراءة ابن الأثير– الروض الباسم في قراءة عاصم _ غاية المطلوب في قراءه يعقوب_ تقريب النائي في قراءة الكسائي _ زهو الملك في نحو الترك _الإدراك في لسان الأتراك _ منطق الخرس في لسان الفرس _ نور الغبش في لسان الحبش.

بالقرآن الكريم(٥).

الجملة المعترضة أو الاعتراضيّة

حينما يتناول ابن هشام الآراء المختلفة حول الجملة المعترضة(٦)، يأتي بقوله تعالى: ﴿...قالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وَ إلٰهَ آبائِكَ إبْراهيمَ وَ إسْماعيلَ وَ إسْحاقَ إلٰهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٧) ويقول: «للبيانيين في الاعتراض اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النحويين، والزمخشري يستعمل بعضها...»(٨) (نفس الكتاب والصفحة) وبعد ذلك يخطّئ أباحيّان كما هو عادته دائماً في كتابه ــ مغني اللّبيب ــ ويقول: «ويردُّ عليه [على الزمخشري] مثل ذلك من لا يعرف هذا العلم كأبي حيّان توهّماً منه أنّه لا اعتراض إلاّ ما يقوله النحوي وهو الاعتراض بين شيئين متطالبين.» (نفس الكتاب والصفحة)

إنّ كثيراً من علماء علم النحو والمفسّرين الّذين كان في كتبهم إشارات بلاغيّة هامّة جاؤوا بالآية وذكروا الوجوه الإعرابيّة فيها ولكن ما أشاروا إلى الاعتراض فيها، خلافاً لابن هشام، من مثل: الشيباني، ١٤١٣ق، ج١/٢١٤، العكبري، د.ت، ج١/٤٠، دعاس، ١٤٢٥ق، ج١/٥٧، الأندلسي، ١٤٢٢ق، ج١/٢١٤، البغوي، ١٤٢٠ق، ج١/١٧١ و صافي، ١٤١٨ق، ج١/٢٧٣.

ويبدو أنّ الاختلاف بين أبيحيّان والزمخشري في الجملة ينبعث عن تعريفين مختلفين لها في الكتب البلاغيّة، على سبيل المثال في بعض منها نقرأ: «الاعتراض

---

٥ – يظهر أبوحيّان تلك اللذّة في أبيات و يقول:

أعَاذِلُ! ذَرني وَ انفِرَادِي عَنِ الوَرَى ... فَلَستُ أرَى فِيهِم صَدِيقاً مُصَافِيا
نَــدَامَــايَ كُتبٌ أستَفِيدُ عُــلُومَهَا ... أحِبَايَ تُغني عَن لِقَائِيَ الأعَادِيَا
وَ آنسُهَــا القُرآنُ فَهوَ الَّــذِي بِــهِ ... نَجَــاتِي إذَا فَكَرتُ أوكُنتُ تَالِيا

٦ – و هو الموضوع الّذي بسببه اتّهم ابن هشام أباحيّان بأنّه غير عالم بالعلوم البلاغية، فقال في شأنه: "و من لا يعرف هذا العلم كأبي حيّان"

٧ ـــ البقرة٢: ١٣٣

٨– يقول الزمخشري عن القسم الأخير من الآية ﴿وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: حال من فاعل (نعبد) أو من مفعوله، لرجوع الهاء إليه في (له) و يجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، و أن تكون جملة اعتراضية مؤكّدة؛ أي و من حالنا أنّا له مسلمون مخلصو التوحيد أو مذعنون. (زمخشري، ١٤٠٧ق، ١: ١٩٤)

في اللّغة: الدّخول بين الشيئين حتى يكون الداخل المعترض فاصلاً بينهما، ويسمّى "عارضاً" أي: حائلاً ومانعاً بينهما، ومنه أخذ الاعتراض في البلاغة والنحو.الاعتراض اصطلاحاً: أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متّصلين في معناهما بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة بلاغيّة سوى دفع الإيهام. فإذا كان لدفع الإيهام فهو من طريقة (الاحتراس = التكميل) ويؤتى بالاعتراض لدواعي بلاغية أخرى.

قد تبيّن أنّ الاختلاف ينبعث من نظرتهما إلى الاعتراض، "هل من الواجب أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متّصلين في معناهما بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة بلاغيّة[٩] أو لا يشترط كونه واقعاً في أثناء كلام أو بين كلامين متّصلين معنى، بل يجوز أن يقع في آخر كلام لا يليه كلام أو يليه كلام غير متّصل به معنى[١٠].

إنّ أباحيّان يشير إلى الجملة المعترضة في مئة آية مباركة تقريباً؛[١١] وفي بعض منه يشير إلى كونها معترضة مؤكّدة[١٢]، وهو الوجه الّذي بسببه دعا ابن هشام إلى اتهامه بأنّه لا يعرف علم البيان. ليست هذه المقالة بصدد اثبات أنّ أباحيّان كان بلاغيّاً، بل تريد الإشارة الى أنّ له آراء قيمة في النحو و البلاغة فلا يستحق ما فعل به ابن هشام في كتابه مغني اللّبيب.

آراء أبي حيان البلاغية

إنّ أباحيّان كان يعرف علم البيان رغم أنّه لم يكن بلاغيّا، ويكفينا أن نفتح كتابه "البحر المحيط" حتّى نفهم ذلك، مع أنّ كتابه هو في تفسير القرآن الكريم وليس

٩– هذا هو الّذي يعتقده أبوحيّان، حيث يعوّل عليه في موارد عديدة من تفسيره، لردّ الجملة المعترضة الّتي لا تأتي في أثناء الكلام ويكون لها محلّ من الإعراب؛ نحو: (أندلسي، ١٤٢٠ق، ١: ٦٤٣ و٢: ١٣٦ و٣٣٤ و٣: ٤٣٤ و...)

١٠– هذا ما يعتقده الزمخشري، و الجمل الّتي يعيّنها اعتراضاً تثبته؛ نحو: (زمخشري، ١٤٠٧ق، ١: ١٩٤ و١: ١٦٦ و١: ٤٤٠ و١: ٥٦٩ و ...)

١١– نحو: (أندلسي، ١٤٢٠ق، ١: ٧٧ و١٣٩ و١٧٤ و٣١١ و٤١٤ و٤١٩ و٤٤٩ و٤٥٨؛ ٢: ٤١٠ و٤٧٧ و٥٠٥ و٥٦٥؛ ٣: ٣٧ و٦١ و١١٨ و١٦٩ و٢١٤ و٣٣٧ و٣٣٨ و٣٤٩ و٣٥٧ و٣٨٠ و٤١١ و٤٤٥ و٥٠٧ و٦١٩ و٦٦٠ و٧٠٧؛ ٤: ٧ و٢٩ و٨٧ و١٨١ و٢٠٣ و٢١٩ و٣٩٤ و٤٥٤ و٥٢٣ و٥٦٢ و...)

١٢– نحو؛ الآية السادسة من سورة البقرة: (أندلسي، ١٤٢٠ق، ١: ٧٧)

موضوعه البلاغة. والآن نذكر بعض آيات القرآن الكريم الّتي يشير أبوحيّان إلى المسائل البلاغيّة فيها:

١ـ "المجاز" كلُّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضْع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأوّل[١٣]. وهو من أجمل الوسائل البيانيّة الّتي يحصل للنّفس بها أريحيّة وفرح وشُغِفت العرب باستعماله وزيّنوا به خطبهم وأشعارهم؛ فأين هذه الخطب والأشعار من القرآن الكريم الّذي يكون في الذروة الرفيعة من المجاز.

وكان أبوحيّان يعرف هذه الصنعة البلاغية، حيث أشار إليها في آي من القرآن الكريم؛ منها قوله عن آية: ﴿فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٤] حيث يقول: «... إسناد المجيء إلى البأس مجاز عن وصوله إليهم والمراد أوائل البأس وعلاماته»[١٥] وبعد ذلك يستمرّ في الشرح عن (ولكن) في: ﴿وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث يقول: ﴿وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي صلبت وصبرت على ملاقاة العذاب لما أراد اللّه من كفرهم، ووقوع (لكنْ) هنا حسن لأنّ المعنى انتفاء التذلّل عند مجيء البأس ووجود القسوة الدالّة على العتوّ والتعزّز فوقعت (لكن) بين ضدّين وهما اللين والقسوة، وكذا إن كانت القسوة عبارة عن الكفر فعبّر بالسبب عن المسبّب[١٦] والضراعة عبارة عن الإيمان فعبّر بالسبب عن المسبّب كانت أيضا واقعة بين ضدّين تقول: قسا قلبه فكفر وآمن فتضرّع»[١٧].

ومن معرفته هذه الصنعة قوله في: ﴿وَما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فيهِمْ وَما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١٨] حيث يقول: «الظرفية في (فيهم) مجاز والمعنى: وأنت مقيم بينهم غير راجل عنهم»[١٩].

١٣- (الجرجاني، ١٤٢٣هـ، ص٢٨٧)، راجع أيضاً إلى: (الخطيب القزويني، د.ت، ١٥٢)

١٤ ـ الأنعام٦: ٤٣

١٥ - أندلسي، ١٤٢٠ق، ٤: ٥١٤

١٦- و هذا أيضاً مجاز مرسل علاقته السببيّة.

١٧ ـ نفس المرجع و الصفحة

١٨ ـ الأنفال٨: ٣٣

١٩ - أندلسي، ١٤٢٠ق، ٥: ٣١٢

٢_ قد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصليّة لمعان أخرى تستفاد من سياق الكلام[٢٠]. وقد فهم أبوحيّان هذا الموضوع جيّدا وجاء بمصداق منه في آية: ﴿وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً﴾[٢١] لغرض التعجّب والإنكار، حيث يقول: «الإستفهام معناه التعجّب والإنكار كأنّه تعجّب من فساد عقولهم، حيث خوفوه خشبا وحجارة لا تضرّ ولا تنفع، وهم لا يخافون عقبى شركهم باللّه وهو الّذي بيده النفع والضرّ والأمر كلّه ﴿وَلا تَخافُونَ﴾ معطوف على ﴿أَخافُ﴾ فهو داخل في التعجّب والإنكار واختلف متعلّق الخوف، فبالنسبة إلى إبراهيم، علّق الخوف بالأصنام؛ وبالنسبة إليهم، علّقه بإشراكهم باللّه تعالى[٢٢]؛ تركاً للمقابلة ولئلاّ يكون اللّه عديل أصنامهم لو كان التركيب ولا تخافون اللّه تعالى؛ وأتى بلفظ ما الموضوعة لما لا يعقل لأنّ الأصنام لا تعقل إذ هي حجارة وخشب وكواكب».

كما جاء بمصداق منه في آية: ﴿أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٢٣] لغرض النفي حيث يقول: «هذا استفهام معناه النفي أي لا أبتغي حكما غير اللّه»[٢٤]. وكما جاء بمصداق آخر من خروج الاستفهام عن معناه الاصليّ في آية: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢٥] حيث يقول: «(ما) استفهاميّة تدلّ على التوبيخ»[٢٦].

٣_ إذا أتى المتكلّم بمتعدّدٍ، وبعده جاء بمتعدّد آخر يتعلّق كلّ فرد من أفراده بفرد

---

٢٠ ـ الجارم و الأمين، ١٤٢٤ق، ص٣٥٠.

٢١ ـ الأنعام٦: ٨١

٢٢– لم يقل سبحانه و تعالى: "كيف أخاف ما أشركتم و لا تخافون اللّه" تحاشيا و فرارا عن مساواة الأصنام باللّه العليّ القدير و هذا ما سمّي في علم البلاغة بـ التحاشي و الاحتراز عن مساواة اللّاحق بالسابق، راجع أيضاً: فاضلي، ١٣٦٥ش، ص١٤٢، ديباجي، ١٣٧٦ش، ص٧٠ والهاشمي، ١٣٦٨ش، ص١١٤.

٢٣ ـ الأنعام٦: ١١٤

٢٤ – أندلسي، ١٤٢٠ق، ٤: ٦٢٧

٢٥ ـ الأعراف٧: ١٢

٢٦– و قد ذكر مواردا كثيرة أخرى لخروج الاستفهام عن معناه الأصليّ و بإمكانك أن تراجع على سبيل المثال الآيات: الأعراف٧: ١٩٥، التوبة٩: ٧، التوبة٩: ١٣، التوبة٩: ٣٨، التوبة٩: ٦٣ ويوسف١٢: ١٠٩ على الترتيب في أندلسي، ١٤٢٠ق، ٥: ٢٥١ و٥: ٣٧٦ و٥: ٣٨٢ و٥: ٤١٩ و٥: ٤٥١ و٦: ٣٣٤.

من أفراد السابق بالتفصيل ودون تعيين سُمِّي صنيعه هذا "لفّاً ونشراً"... وإذا جاء لفُّ المتعدّد مجملاً، فالنشر بعده مجرّد بيانٍ تفصيليّ للمجمل؛ نحو: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً﴾[٢٧] جاء اللَّفُّ المجمل في عبارة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطاباً للمؤمنين حالة الحرب، وبعده جاء النشر المفصّل في عبارة ﴿فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾[٢٨] وقد أحسن أبوحيّان في تعيين هذا الموضوع في آية: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ﴾[٢٩] حيث يقول: «... (أو) هنا للتنويع أي جاء مرّة ليلا كقوم لوط ومرّة وقت القيلولة كقوم شعيب وهذا فيه نشرلما لفّ في قوله (فَجاءَها) وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنّهما وقتان للسكون والدّعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أقطع»[٣٠].

٤_ أحد أغراض تقديم المسند إليه أو المسند أو المفعول أو... سلوك السبيل الرّقي نحو: (هذا الكلام صحيح، فصيح وبليغ) فإذا قلت: «هذا الكلام فصيح وبليغ» لا يحتاج إلى ذكر صحيح بعدها؛ وإذا قلت: «هذا الكلام بليغ» لا يحتاج إلى ذكر (الصحيح) و(الفصيح) بعدها؛ أو مراعاة الترتيب الوجودي، نحو: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[٣١] وقد أصاب أبوحيّان في تعيين هذا الموضوع في آية: ﴿وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[٣٢] حيث يقول: «أي ولتميل إليه؛ الضمير [في (إليه)] يعود على ما عاد عليه في (فعلوه)[٣٣](وليرضوه): وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام. والـ (لام) لام كي وهي معطوفة على قوله (غرورا) لما كان معناه للغرور فهي متعلّقة بـ (يوحي)؛ ونصب (غرورا) لاجتماع شروط النصب فيه، وعدى يوحي إلى هذا باللام لفوت شرط صريح المصدريّة واختلاف الفاعل لأنّ فاعل يوحي هو بعضهم وفاعل تصغى هو أَفْئِدَةُ، وترتيب هذه

---

٢٧ ــ البقرة٢: ٢٣٩

٢٨ ــ السكاكي، مفتاح العلوم، ق بديع: ذكر المتعدّدات مع ذكر ما يتعلّق بكلّ واحد منها

٢٩ ــ الأعراف٧: ٤

٣٠ – أندلسي، ١٤٢٠ق، ٥: ١١

٣١ ــ البقرة٢: ٢٥٥

٣٢ ــ الأنعام٦: ١١٣

٣٣– في الآية قبلها: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (الأنعام٦: ١١٢)

المفاعيل في غاية الفصاحة لأنّه أوّلا يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الفعل فكأنّ كلّ واحد مسبّب عمّا قبله»(٣٤).

٥_ يُؤتى بالمسند إليه اسم إشارة إذا تعيّن طريقاً لإحضار المشار إليه، أمّا إذا لم يتعيّن طريقاً لذلك، فيكون لأغراض أخرى؛ منها: تعظيم درجته بالقرب كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٣٥) وقد أحسن أبوحيّان في تمييز هذا الغرض في آية: ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾(٣٦) حيث يقول: «لمّا تقدّم قولهم:﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٣٧) وكان من قولهم: إنّه افتراه قال تعالى: ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى﴾ أي: ما صحّ، ولا استقام أن يكون هذا القرآن المعجز مفترى. والإشارة بـ (هذا) فيها تفخيم_المشار إليه وتعظيمه»(٣٨). وكثيرا ما يشار إلى المسند إليه القريب بإشارة البعيد تعظيما لدرجته بالبعد كقوله تعالى: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣٩) وكذلك قد أصاب أبوحيّان في تعيين هذه الصنعة في آية: ﴿قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾(٤٠) حيث يقول: «... يحتمل أن تكون أشارت إليه وهو للبعد قريب بلفظ البعيد رفعا لمنزلته في الحسن، واستبعادا لمحله فيه، وأنه لغرابته بعيد أن يوجد منه. واسم الإشارة تضمن الأوصاف السابقة فيه كأنه قيل: الذي قطعتن أيديكن بسببه وأكبرتنّه وقلتُنَّ فيه ما قلتُنَّ من نفي البشرية عنه وإثبات الملَكية له، هو الذي لمتُنَّني فيه أي: في محبته وشغفي به»(٤١).

٦_ باب التغليب باب واسع يجري في كلّ فن؛ قال تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا﴾ أدخل شعيب

٣٤ - أندلسي، ١٤٢٠ق، ج٤/٦٢٦

٣٥ ــ الإسراء١٧/٩

٣٦ ــ يونس١٠/٣٧

٣٧ ــ يونس١٠/١٥

٣٨ - فى ضوء دراسة لآراء أبي حيّان البلاغية

٣٩ ــ البقرة٢/٢

٤٠ ــ يوسف١٢/٣٢

٤١ -أندلسي، ١٤٢٠ق، ج٦/٢٧٢

في ﴿لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا﴾ بحكم التغليب وإلاّ فما كان شعيب في ملّتهم كافراً مثلهم فـإنّ الأنبياء معصومون أن يقع منهم صغيرة فيها نوع نفرة فما بـال الكفـر[٤٢]. ويؤيّـد أبوحيّان هذا الموضوع بعينه حيث يقول: «أَوْ لَتَعُودُنَّ إذ صار فعلا مسندا إلى شـعيب وأتباعه ولا يدلّ على أن شعيباً كان في ملّتهم وعلى المعنى الثاني يشكل لأنّ شعيبا لم يكن في ملتهم قط لكن أتباعه كانوا فيها، وأجيب عن هذا بوجوه. أحدها:... أن يكون من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد لما عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج سحبوا عليه حكمهم في العود وإن كان شعيب بريئاً ممّـا كـان عليـه أتباعـه قبـل الإيمان»[٤٣]. وقد أحسن في تطبيق هذه الصنعة في آية: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَـنْ هـذا وَاسْتَغْفِري لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئينَ﴾[٤٤] حيث يقول: «في ندائه باسمه [يوسف] تقريب له وتلطيف،... ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله: لذنبك، ثم أكّد ذلك بقولـه: ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئينَ﴾ ولم يقل من الخاطئات، لأنّ الخاطئين أعمّ، لأنّه ينطلق على الذكور والإناث بالتغليب»[٤٥].

٧_ وقد أحسن أبوحيّان في تعيين عدّة من الصنائع البلاغية في آية واحدة مع أنّه لاينسب هذا التعيين إلى نفسه، حيث نقرأ في تفسيره لآية: ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظيمُ﴾[٤٦] يقول: «[فيها] حسن الافتتاح لأنّها افتتحت بأجلّ أسماء اللّه تعالى، وتكرار اسمه في ثمانية عشر موضعا، وتكرير الصفات، والقطع للجمل بعضها عن بعض، ولم يصلها بحرف العطف. والطباق في قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ فإنّ النوم موت وغفلة؛ والحيّ القيّوم يناقضه؛ وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ [طباق أيضا]. والتشبيه: في قراءة من قرأ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي كـوسع، فإن كان الكرسـي جرما فتـشبيه محسوس بمـحسوس، أو معنى فتشـبيه معـقول

---

٤٢ ـــ السكاكي، اول فصل بعد الفنّ الثالث

٤٣ – أندلسي،١٤٢٠ق، ج٥/١١٢

٤٤ ـــ يوسف١٢/٢٩

٤٥ – أندلسي، ١٤٢٠ق، ج٦/٢٦٢

٤٦ ـــ البقرة٢/٢٥٥

بمحسوس»[٤٧]. ونقرأ في تفسيره لآية: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فقد استَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لاَ انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٨] أنّه يشير إلى عدّة أخرى من الصنائع البلاغية، حيث يقول: «[فيها] معدول الخطاب في ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ إذا كان المعنى لا تكرهوا على الدين أحدا. والطباق: أيضا في قوله ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وفي قوله (آمنوا) و(كفروا) وفي قوله ﴿مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾. والتكرار: في الإخراج لتباين تعليقهما... ثم ذكر أنّ من كفر بالطاغوت وآمن باللّه فهو مستمسك بالعروة الوثقى، عروة الإيمان، ووصفها بالوثقى لكونها لا تنقطع ولا تنفصم، واستعار للإيمان عروة[٤٩] إجراء للمعقول مجرى المحسوس»[٥٠]. يعيّن ابو حيان خمسة أنواع من الصنائع البلاغيّة في الآية الأولى وأربعة في الثانية.

٨_ يُؤتى بالمضاف معرّفا بالإضافة إلى شيء من المعارف لأغراض كثيرة؛ منها التعظيم للمضاف إليه نحو: (السلطان صديقي). وقد عرف أبوحيّان هذا الموضوع في آية: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٥١]، حيث يقول: «أضاف الربّ إلى كاف الخطاب تشريفا للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم باختصاص الإضافة، وإعراضا عنهم، إذ لم يضف إليهم»[٥٢].

٩_ المبالغة هي أن يدّعي المتكلّم لوصف بلوغه في الشدّة أو الضعف حدّا مستبعداً أو مستحيلاً؛ وأنواعه "التبليغ" و"الإغراق" و"الغلوّ". وقد أحسن أبوحيّان في تمييز هذه الصنعة البديعيّة في آية: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾[٥٣]، حيث يقول: «والّذي يظهر أنّ زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكر قريش، وعظمه والجبال لا تزول، وهذا من باب الغلوّ والإيغال

٤٧ ــ في ضوء دراسة لآراء أبي حيّان البلاغية

٤٨ ــ البقرة٢: ٢٥٦

٤٩ ــ استعارة تصريحيّة.

٥٠ ــ أندلسي، ١٤٢٠ق، ٢: ٦٢٠

٥١ ــ النحل١٦: ١٠٢

٥٢ ــ أندلسي، ١٤٢٠ق، ٦: ٥٩٤

٥٣ ــ إبراهيم١٤: ٤٦

والمبالغة في ذمّ مكرهم»[٥٤].

١٠_كيف يمكن ألاّيعرف علم البيان من يأتي بكلام جميل ورصين عن وقوع المسؤول عنه بعد همزة الاستفهام في آية: ﴿قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[٥٥] ومقتضاها البلاغي؟! حيث يقول: «تقديم المفعول هنا بعد الهمزة يدلّ على الإنكار عليهم دعاء الأصنام إذ لا ينكر الدعاء إنّما ينكر أنّ الأصنام تدعى كما تقول: "أزيداً تضرب" لا تنكر الضرب ولكن تنكر أن يكون محلّه زيداً... وهذه الآية عند علماء البيان من باب استدراج المخاطب وهو أن يلين الخطاب ويمزجه بنوع من التلطّف والتعطّف حتّى يوقع المخاطب في أمر يعترف به فتقوم الحجّة عليه، واللّه تعالى خاطب هؤلاء الكفّار بلين من القول وذكر لهم أمراً لا ينازعون فيه وهو أنّهم كانوا إذا مسّهم الضرّ دعوا اللّه لا غيره وجواب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ محذوف تقديره إن كنتم صادقين في دعواكم أن غير اللّه إله فهل تدعونه لكشف ما يحلّ بكم من العذاب؟»[٥٦]

والآن نشير إلى ملاحظات بلاغيّة أخرى من قبل أبي‌حيّان ؛ دون أيّ شرح رعايةً لإيجاز:

إنّه يعتقد أنّ الآيات السابعة والثمانين إلى الثانية والتسعين[٥٧] من سورة النساء تتضمّن أنواعاً من الصنايع البلاغيّة، حيث يشير إلى: التتميم في: ﴿وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ والاستفهام بمعنى الإنكار في: ﴿فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ﴾ وفي: ﴿أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ والطباق في: ﴿أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ والتجنيس المماثل في: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا﴾، وفي: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ وفي: ﴿أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا﴾، وفي: ﴿أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا﴾ وفي: ﴿خَطَأً وخَطَأً﴾ والاستعارة في: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ وفي: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، وفي: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ وفي: ﴿سَبِيلاً﴾ و﴿كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾. والاعتراض في: ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ والتكرار في مواضع».

---

٥٤ ــ أندلسي، ١٤٢٠ق، ٦: ٤٥٥

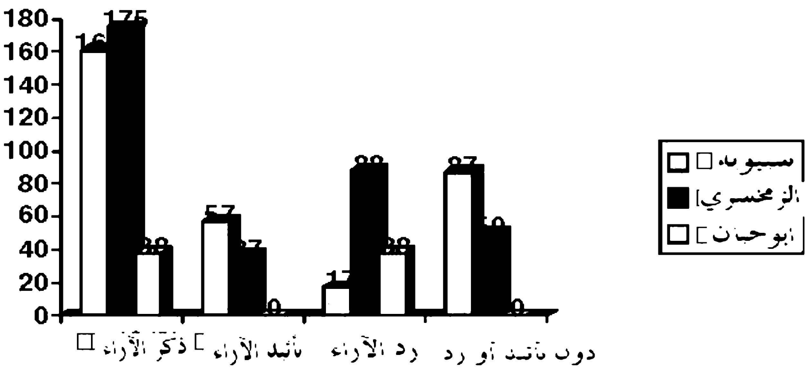
٥٥ ــ الأنعام٦: ٤٠

٥٦ ــ أندلسي، ١٤٢٠ق، ٤: ٥١١

٥٧ــ لا نأتي بالآيات المباركة بأجمعها للاختصار فعليكم أن تراجعوا إلى القرآن الكريم.

موقف ابن هشام من أبي حيان وموقفه من الآخرين

إنّ المقارنة بين موقف ابن هشام من أبي حيان وموقفه من الآخرين تدلّ دلالة واضحة على أنّه كان يقف دائماً موقفاً سلبياً تجاه أبي حيان، خلافاً لرأيه في الآخرين. فالقسم الأوّل من الجدول التالي يشير إلى كميّة ذكر اسم سيبويه، الزمخشري وأبي-حيّان في مغني اللبيب دون ابداء رأي من جانب ابن هشام في صحة آرائهم أو سقمها؛ والقسم الثاني من الجدول يبيّن كميّة تأييد آراء كلّ من هؤلاء الثلاثة من جانب ابن هشام وموقفه السلبي إزاء أبيحيّان؛ والقسم الثالث من الجدول يشير إلى كميّة ردّ آراء هؤلاء من جانب ابن هشام؛ وفي القسم الأخير نرى الآراء الّتي طرحت وما اتّخذ ابن هشام إزاءها موضعا:



كما يشاهد من الجدول أنّ ابن هشام يخالف آراء أبيحيّان وشخصيّته مخالفة شـــديدة، فكلّما يذكر اسمه يقصد مخالفة آرائه وتخطئته. فلا يوجد في كتاب مغنـــي اللّبيـــب، رأي واحد لأبي حيان مؤيد من جانب ابن هشام أو على الأقل دون مخالفة مؤكدة منه عليه.

النتيجة

إنّ ابن هشام الأنصاري يجلّ بعض النحويين مثل سيبويه إجلالاً بليغاً، ويكون مقتصداً ومحافظاً لبعضهم الآخر في الاستحسان والردّ على آرائهم من مثل الزمخشري. ولكن ، ومن العجب، مع أنّه تعلّم لدى أبيحيّان وقرأ عليه لأنّه كان تلميذاً له، إلا أنّه ينظر إليه بنظّارة سوداء، يخطّئه دائماً ويتّهمه بأنّه لا يعرف علم البيان، وما أيّده حتى لمرّة واحدة. ولاشك في أنّ أباحيّان، ومع أنّه ليس في عداد البلاغيين، وإلا أنّ آراءه المختلفة في البلاغة؛ كما جاء قليل منها في هذه المقالة، تدلّ دلالة واضحة على أنّه كان يعرف علوم البلاغة حق المعرفة، فأجاد كما لاحظنا في تطبيقها على كثير من آيات القرآن الكريم في تفسيره "البحر المحيط". وعلى هذا فإنّ حكم ابن هشام عليه في عدم معرفته هذا العلم لا يخلو من القسوة والجور عليه.

قائمة المصادر:

١_ القرآن الكريم

٢_ ابن الأثير، ضياء الدّين، (د.ت) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القاهرة، دارالنهضة مصر للطبع والنشر.

٣_ ابن عطيّة الأندلسي، عبد الحقّ بن غالب، (١٤٢٢ق) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، دارالكتب العلميّة، ط١.

٤_ ابن هشام الأنصاري، (١٣٧١هـ ش) مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، قم، مطبعة مكتبة سيّد الشهداء، ط؟.

٥_ ______، (١٤١٩هـ ق) المسائل السفرية، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، ط؟.

٦_ أبوحيّان الأندلسي، أثير الدّين، (١٤١٧هـ ق) ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، تحقيق وتعليق دكتر مصطفى أحمد النماس، قاهرة، المكتبة الأزهريّة للتراث، ط؟.

٧_ ______، أثير الدّين، (١٤٢٠هـ ق) البحر المحيط في التفسير، بيروت، دار الفكر، ط؟.

٨_ البغوي، حسين بن مسعود (١٤٢٠ق)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١.

٩_ الجارم، علي وأمين، مصطفى (١٤٢٤هـ ق) البلاغة الواضحة، دمشق، دار النعمان للعلوم، ط١.

١٠_ الجرجاني، عبد القاهر، (١٤٢٣هـ ق) أسرار البلاغة في علم البيان، بيروت، دار الفكر، ط.١

١١_حسينى دشتى، سيّد مصطفى، (١٣٨٥هـ ش) معارف ومعاريف، دائرة المعارف جامع اسلامى، تهران، مطبعة صنعة شرق، ط١.

١٢_ الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين، (دون تا)، الإيضاح في علوم البلاغة، مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت.

١٣_ درويش، محيي الدّين، (١٤١٥هـ ق) إعراب القرآن وبيانه، سوريه، دارالإرشاد، ط.٤

١٤_ دعاس، أحمد عبيد، (١٤٢٥ق) إعراب القرآن الكريم، دمشق، دارالمنير ودارالفارابي، ط١.

١٥_ ديباجى، سيّد ابراهيم، (١٣٧٦ش) بداية البلاغة، تهران، سازمان سمت انتشارات مهر قم، ج.١

١٦_ الزمخشري، محمود، (١٤٠٧ق)، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣.

١٧_ الشوكاني، (١٣٤٨هـ ق)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، قاهرة، طبع سعادت، ط؟.

١٨_ الشيباني، محمّد بن حسن، (١٤١٣ق)، نهج البيان عن كشف معاني القرآن، تحقيق حسين دركاهي، دائرة المعارف الإسلامية، تهران، ط١.

١٩_ الصافي، محمود بن عبد الرحيم، (١٤١٨ق)، الجدول في إعراب القرآن، دمشق، بيروت، دارالرّشيد مؤسسة الإيمان، ط٤.

٢٠_ الصّفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك، (١٣٨٩هـ ق) الوافي بالوفيات، بيروت، دارالنشر، ط؟.

٢١_ العكبري، عبداللّه بن حسين، (دون تا)، التبيان في إعراب القرآن، عمّان، ريّاض، بيت الأفكار الدّوليّة، ط١.

٢٢- فاتحي نژاد، عنايت اله، (١٣٨٥) دائرة المعارف بزرگ اسلامي، ج٥.

٢٣_فاضلی، محمّد، (١٣٦٥ش)، دراسة و نقد في مسائل بلاغيّة هامّة، مشهد، چاپ خانه دانشگاه فردوسی مشهد، ج١.

٢٤_ الكتبي، محمّد بن شاكر، (١٩٧٣م) فوات الوفيات، تحقيق دكتر إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، ط؟.

٢٥_ محمّد الأسعد، عبدالكريم، (١٤١٣هـ ق)، الوسيط في تاريخ النحو العربي، رياض، دار الشفوف، ط.١

٢٦_ الميداني، عبد الرحمان حسن حبنّكة، (١٤١٦هـ ق)، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، دمشق دارالقلم، بيروت دار الشافيّة، ط١.

٢٧- ميرلوحي، سيد علي، واحمدی، محمد نبي، (١٣٨٨)، مكانة النحويين في كتاب مغني اللبيب، مجلة "الجمعية الايرانية للغة العربية وآدابها" ع١١.

٢٨_هاشمی، احمد، (١٣٦٨ش)، جواهر البلاغة، قم، مؤسّسه مطبوعات دينی، ج٣.

الظواهر الصوتية عند سيبويه

د. إبراهيم محمّد البب*

الملخّص

يتناول هذا البحث عدداً من الظّواهر الصّوتيّة الّتي وقف عليها سيبويه في الكتاب، وهي ظواهر تتأرجح بين الصّوت والسّياق، إلاّ أنّ تصنيفها صوتيّاً أقرب من تصنيفها سياقيّاً. وتضم الظّواهر التّالية:

ظاهرة الوقف: وقد بيّنّا فيه أسسه، وقوانينه، وقواعده، وأنواعه عند سيبويه. سواءٌ أكان ذلك بزيادة حرف أم بغير زيادة؛ ومع أحرف العلّة أم مع غيرها من الأحرف الصّامتة.

ظاهرة الإمالة: وقد تمّ تصنيفها بناءً على معطيات سيبويه إلى: مطّردة وشاذّة. ثمّ بيّنّا مواضعها في الكلام وصلتها بحروف العلّة من جهة، وبحرف الرّاء في العربيّة من جهة أخرى. وقد خصصناه بالحديث لأنّه تمتنع معه الإمالة في مواضع، وتطّرد معه في مواضع أخرى، وذلك وفقاً لقوانين صوتيّة محدّدة في الكتاب.

ظاهرتا الإعلال والإبدال: وهما من الظّواهر الصّوتيّة المهمّة في تراثنا اللغويّ نحويّاً كان أم غير نحويّ. وقد وقفنا فيهما على أنواع الإعلال المختصّ بأحرف العلّة (الألف , والواو، والياء). ثمّ وضّحنا الفرق بينه وبين الإبدال الّذي تعدّدت حروفه، واختلفت أشكاله عند سيبويه.

ظاهرتا المماثلة والمخالفة: وهما ظاهرتان صوتيّتان لهما أسسهما وقوانينهما الخاصّة. ولكنّ سيبويه لم يفرد لأيٍّ منهما عنواناً خاصّاً، وإنّما درسهما تحت عنوان الإبدال. فتناول المماثلة الكلّيّة والجزئيّة كلاًّ بنوعيه: التّقدّميّ والرجعيّ. كما تناول المخالفة، والفرق بينها وبين المماثلة، فرأى أنّ ما تماثل من الحروف هو أكثر بكثير ممّا تخالف منها في الكلمة الواحدة.

وأخيراً بيّنّا في الخاتمة مجموعة من النّتائج الّتي توصّل إليها البحث.

كلمات مفتاحيّة: الأصوات، الظّواهر الصّوتيّة، سيبويه .

المقدّمة:

يعدُّ كتاب سيبويه المصدر الأوّل للباحثين اللغويين والمرجع الفصل في قضايا

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة ، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية.

العربيّة بشكل عام. وهو أيضاً مكتبةٌ لغويّة شاملة. ضمَّ إلى جانب النّحو والصّرف كثيراً من المسائل المتعلّقة بالشّعر، والأمثال، واللهجات، والأصوات وغيرها. وقد تناول مؤلّفُهُ جُلَّ قضاياه تناولاً وصفيّاً دقيقاً، إذ كان يذكر القضيّة ثمّ يبيّن كيف تُعاملُ رسماً ولفظاً، من خلال الإكثار من الأمثلة الّتي تساعد على فهم ما يريده. ولم يكن الّذين جاؤوا بعده مختلفين عنه كثيراً في تناولهم للنّحو والصّرف. لأنّ جلّهم بقي يدور في فلكه شارحاً عبارته كما هي حيناً، ومضيفاً إليها ما يُعين على إيضاحها حيناً آخر. ولكنّ مدار الخلاف بينه وبينهم يكمن في قضايا اللغة، ولاسيّما الظّواهر الصّوتيّة منها. فقد تناولها تناولاً بعيداً عن التّبويب أو المنهج في جلّ أماكنه .فجاءت مبثوثة متناثرة تحت عناوينها حينا، وتحت عناوين مختلفة حيناً آخر. ولا غرابة في ذلك، لأنّ الكتاب كما هو معروف يفتقر إلى منهجٍ تصنيفيٍّ يعين القارئ على الوصول إلى ما يريده. وسيقف البحث عند تلك الظّواهر المتناثرة، محاولاً رصدها وتبويبها وتقعيدها تقعيداً منسجما مع دارسيها المعاصرين. مجملاً هذا الوقوف عند الظّواهر التّالية: الوقف، والإمالة، والإعلال، والإبدال، والمخالفة، والمماثلة. تلك الظّواهر الّتي لم تحظَ كثيراً باهتمام الباحثين.

منهج البحث:

من يقرأ كتاب سيبويه يدرك من الصّفحات الأولى أنّ لبساً ما يعتريه، ولا سيّما الظّواهر الصّوتية فيه. ولا يعود هذا اللبس إلى حجم المادّة ووفرتها، وإنّما إلى التّصنيف والمنهج والتّبويب والتّرتيب. فمنهج الكتاب يبقى لُغزاً عصيّاً على الإدراك، ومصطلحاته عسيرة المنال مفتوحة الدّلالة. فأحياناً يصرّح بالظّاهرة الصّوتيّة، وأحياناً يتركها على إطلاقها. لكنّ ظواهره متنوعة اللهجات، متعدّدة التّمثيل. وبناء على المادّة المدروسة فسوف يكون المنهج الوصفيّ هو المتوخّى. محاولين في بحثنا تصنيف المادّة، وتبويبها، وإدراجها ضمن قواعد ميسّرة تمكّن من العودة إليها والإفادة منها. ونظراً لطبيعة المادة في الكتاب فإنّ الإحالات ستكون أحياناً إجماليّة، لأنّ سيبويه كان يستطرد كثيراً في كلامه. إذ كان يتحدّث عنها في مكانٍ ما، وتحت عنوانٍ محدّد؛ ثمّ

يعود إلى الحديث عنها في مكان آخر لا صلة لعنوانه بها. وقد يتحدّث عن حرفٍ ما في أبواب مختلفة، ومواضع متباينة.

أولاً – ظاهرة الوقف :

يقع المقطع الأخير من المصرع، أو من البيت الشعري، أو من الجملة النثرية، أو من جزء منها موقعاً خاصاً يدعى "الوقف". وهو مما يشترك فيه الاسم والفعل والحرف[١]. وقد درس سيبويه هذه الظاهرة دراسة مطوّلة ومتشعبة، وجعلها ضمن دراساته الصوتية والصرفيّة والنّحوية خالية من التبويب والترتيب، فجاءت في أجزاء الكتاب في الأبواب التي عقدها لهذه الظاهرة، وفي أبواب أخرى، ليس المقصود منها شيئاً من الوقف. ويمكن أن نميز نوعين من الوقف عنده:

أ ــ الوقف بزيادة صوت :

١ــ زيادة الهاء: تزاد الهاء التي يسميها سيبويه "هاء السكت" في آخر الكلمة عند الوقف، ويُراد من هذه الزيادة إثبات حركة الحرف المتحرك في آخر الكلمة.

ويكون ذلك في الفعل المعتل الآخر، نحو: ارمِهْ، ولم يغزُهْ، واخشَهْ، ولم يقضِهْ، وفي اللفيف المفروق، نحو: إن تَعِ أعِهْ، ولا تَعِهْ؛ وذلك لذهاب حرفين منه. وقد تبدل حركة عين الفعل فتقلب كسرة، نحو: ادعِهْ من دعا يدعو؛ وذلك لتوهم بعض العرب أن حركة العين ساكنة في موضع الجزم، وهي لغة رديئة وغلط[٢].

وتزاد الهاء أيضاً بعد نون المثنى والجمع والتوكيد، نحو: هما ضاربانِهْ، وهم قاتلونَهْ، وضربتُنَّهْ، وذهبتُنَّهْ؛ كي لا يلتقي ساكنان عند الوقف. وتزاد بعد الميم في قولهم: ثُمَّهْ، وهَلُمَّهْ. كما تزاد فيما انتهى بحرف قبله ساكن، نحو: كيْفَهْ، وليْتَهْ، ولعلَّهْ، وانطلقْتُهْ في: انطلقت، وإنَّه في: إنَّ[٣].

وتزاد الهاء لبيان حركة الحرف الأخير وإن تحرك ما قبله، نحو: هذا غلاميَهْ، وجاء

١ــ انظر شرح المفصّل لابن يعيش، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة، ٩: ٦٧ .

٢ــ انظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السّلام هارون، عالم الكتب بيروت، ٤: ١٥٩، ١٦٠ وهذه الهاءات للوقف وليست ضمائر.

٣ــ نفسه ٤: ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

من بعديَهْ، وإنَّهُ ضربتَنِيَهْ، وهِيَهْ في هي، وهوَهْ في هوَ، وخذه بِحِكْمِكَهْ .

وتزاد الهاء لتدل على حرف محذوف، نحو علامَهْ، وفيمَهْ، ولِمَهْ، وبِمَهْ، وحتّامَهْ؛ في: علامَ وفيمَ ولِمَ وبِمَ وحتامَ الاستفهامية(٤).

وتزاد الهاء بعد الألف الخفيّة لبيانها، نحو هؤلاه، وهناه. وبعد ألف الندبة ويائها وواوها؛ لأن ذلك موضع تصويت وتبيين كما يقول سيبويه، نحو: يا غلاماهْ، وواغلامَهُوهْ(٥).

وتزاد في الوقف على المنادى المرخم لتدل على المحذوف، كالترخيم في: يا سَلَمَهْ، ويا طلحَهْ(٦). والترخيم في خمسة عشر، إذ نبيّن الهاء في الوقف فنقول يا خمسَهْ (٧).

وقد تكون هذه الهاء بدلاً من التاء التي تلحق الاسم للتأنيث؛ فإن وصل هذا الاسم كانت علامة التأنيث فيه التاء، وإن وُقِفَ عليه لحقته الهاء، نحو: هذه تمرَهْ وطلحَهْ. أما إذا لم تكن التاء للتأنيث فإنه لا يوقف بالهاء، كالتاء الملحقة في أخت وبنت(٨).

٢ــ **الوقف بزيادة غير الهاء :** ويكون بزيادة الألف في حالة النصب في الوقف على التنوين، كي لا يلتبس التنوين بالنون، نحو: رأيت زيدا (٩)، وكزيادتها في نحو قول العرب: حيَّهلا في حيَّهل، فإذا وصلوا قالوا: حيّهل بعُمَرَ(١٠). ويكون أيضاً بمد الحركة وإشباعها كقولهم: أنا، إذ الأصل كما يرى سيبويه هو "أنَ"(١١).

ومن العرب من يلحق السين بضمير الكاف المتصل الذي يدل على المؤنث، فيقول: أعطيتُكِسْ، وأكرمُكِسْ، في الوقف على أعطيتكِ وأُكرمُك، وبعضهم يُلحق الشين، فيقول: أعطيتكشْ، وأكرمكشْ في أعطيتك وأكرمك. وهناك من يُلحق بهذه الكاف ألفاً

٤ــ نفسه ٤: ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

٥ــ الكتاب ٤: ١٦٥ – ١٦٦ .

٦ــ انظر: الكتاب ٢: ٢٤٢ .

٧ــ نفسه ٢: ٢٦٨.

٨ــ الكتاب ٤:١٦٦.

٩ ــ الكتاب ٤:١٦٦.

١٠ــ نفسه، ٤:١٦٣ــ١٦٤.

١١ ــ نفسه .

في المذكر، وياء في المؤنث؛ وذلك إذا وقعت بعد هذه الكاف هاء الإضمار، فيقول: أُعْطِيكاهُ، وأُعطيكاها في الوقف على أُعْطِيكَهُ وأُعْطِيكها، وأُعْطِيكيها، وأُعْطِيكيه في الوقف على أُعطيكِها وأُعطيكِهُ. ويروي سيبويه عن الخليل أن هناك من يقول: ضَرَبْتِيهِ في ضربْتِهِ، وهو قليل(١٢).

ب ــ الوقف بغير زيادة :

١ــ الوقف على آخر الكلمة المتحركة في الوصل(١٣): ويكون ذلك بأربعة أوجه:

أــ الإشمام: "... وهو تهيئة العضو للنطق بالضم من غير تصويت، وذلك بأن تَضُمَّ شفتيك بعد الإسكان، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج منه النفس، فيراهما المخاطب مضمومتين ..."(١٤)، فيعلم أن المراد بضمهما هو الحركة. وعلامته نقطة فوق الحرف، نحو: هذا خالدْ، وهذا فرجْ، وهو يجعلْ، ولا يكون الإشمام إلا في المرفوع بالضمّ، أما النصب والجر فلا إشمام فيهما.

ب ــ الرّوم: وهو صوت ضعيف نروم به الحركة، ونختلسها اختلاساً، ولا نُتِمُّها. وعلامته خطّ بين يدي الحرف(١٥)، ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هذا عُمَرْ~، ورأيت الحارثْ~، ومررت بخالدْ.

ت ــ التّسكين أو عدم الإشمام: وهو الذي يسمّيه سيبويه ما أُجري مجرى الساكن والمجزوم، وهو الأصل في الوقف والأغلب والأكثر استخداماً. والمراد به سلب حركة الحرف، وعلامته خاء فوق الحرف الذي نقف عليه(١٦). ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هو يجعل ْ، ورأيت الحارثْ ، ومررت بخالدْ.

ث ــ التضعيف: ويُراد بِهِ تضعيف الحرف الموقوف عليه؛ بزيادته حرفاً مثله، فيصير كالإدغام. وهذا التضعيف من زيادات الوقف؛ لأنه يُحرّك عند وصل

---

١٢ ــ انظر: الكتاب ٤:١٩٩ــ٢٠٠.

١٣ ــ انظر: الكتاب ٤:١٦٨ــ١٧٢. والمقصود بذلك الوقف على الحرف الذي يحمل حركة إعرابية .

١٤ ــ شرح المفصل، ٩:٦٧.

١٥ ــ نفسه، ٩:٦٧ــ٦٨.

١٦ ــ نفسه .

الكلام[١٧]. وعلامته الشين فوق الحرف المضعف، ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هذا فرجْ ، ورأيت أحمدْ ، ومررت بخالدْ ، ولا يقع التضعيف فيما كان قبله حرفٌ ساكن، نحو: عَمْرو، وزيْدٍ.
وقد جعل سيبويه الخاء لما أُجري مُجرى الساكن أو المجزوم؛ لأنها أول كلمة خفيف، فدلّ بها على السكون لأنه تخفيف، وجعل حرف الشين للتضعيف؛ لأنه أول كلمة شديد، فدل به عليه لأنه مشدد، وجعل النقطة للإشمام، والخط للروم؛ لأنّ الإشمام أضعف من الروم والنقطة أنقص من الخط[١٨]. وأظنّ أنّ هذه الحروف الّتي جُعِلَت ضوابط فوق الحرف دليل على كميّة الهواء المحبوس في الرّئتين.

٢ــ **الوقف على الهمزة:** إذا كان الحرف مهموزاً مسبوقاً بساكن وُقِفَ عليه بالإشمام أو بالروم أو بالسكون والجزم، نحو: هو الخبْ ءْ والخب ءْ والخب ءْ. ويوقف عليه أيضاً بإلقاء حركة الهمزة على الساكن قبلها، نحو: هو الوثُؤْ، ومِنَ الوثِئْ، ورأيت الوثَأْ، وهو البُطُؤْ، ومِنَ البُطِئْ، ورأيت البُطَأْ[١٩]. وبعض العرب يحذف الهمزة في الوقف ولا يحققها؛ بل يجعلها واواً أو ياءً أو ألفاً، نحو: هذا هو الكَلَو، ورأيت الكلاَ، ومن الكَلَي[٢٠]. والوقف على الهمزة ممّا يحمل حركة إعرابيّة.

٣ــ **الوقف بنقل الحركة:** ويكون فيما حمل حركة إعرابية وفي غيره: فإذا كان قبل آخر حرف في الكلمة حرفٌ ساكن نقلنا حركة الحرف الأخير إليه وسكّنّاه، كي لا يلتقي ساكنان، ويكون ذلك في الرّفع والجرّ فقط، نحو: هذا بَكُرْ، ومِن بَكِرْ، ولا يكون في المنصوب، إذ لم يقولوا: رأيت البَكَرْ[٢١]. وقد يكون هذا النقل بإتباع الحركة، كقولهم: هذا عِدِلْ وفِسِلْ في "عِدْلٌ وفِسْلٌ"، أتبعوا حركة الحرف قبل الأخير (دْ، سْ) حركة الحرف الأول(عِ، فـِ)؛ لأنّه ليس في كلامهم فِعُل. وكذلك قالوا مِنَ البُطُؤ لأنه

١٧ ــ نفسه .
١٨ــ انظر: شرح المفصل ٩: ٦٧، ٦٨ ...
١٩ــ انظر: الكتاب ٤:١٧٧ .
٢٠ــ نفسه ٤: ١٧٩
٢١ــ الكتاب ٤: ١٧٣

ليس في الأسماء وزن فُعِل، وقياس ذلك كله: هذا عِدُلْ، وفِسُلْ، ومِنَ البُطِئ[٢٢].

ومما يوقف عليه بنقل الحركة باب سمّاه سيبويه "باب الساكن، الذي تحركه في الوقف، إذا كان بعده هاء المذكر، الذي هو علامة الإضمار، ليكون أبين لها كما أردت ذلك في الهمزة "[٢٣]، نحو: ضَرَبَتُهْ، واضربُهْ، وقَدُهْ، ومِنُهْ في ضَرَبَتْهُ، واضرِبْهُ، وقَدْهُ، ومِنْهُ. حيث حُرِّك الساكن بإلقاء حركة الهاء عليه. ويقول بعض بني عدي في ضَرَبْتُهُ وأخذَتْهُ: قد ضَرَبَتِهْ، وأَخَذَتِهْ، بتسكين الهاء وتحريك ما قبلها كي لا يلتقي ساكنان.

٤ــ الوقف على حروف المد واللين إن كانت حروف إعراب أو لم تكن :

إن الواو والياء والألف حروف غير مهموسة، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، فلا يصحّ أن نضمَّها بالشفة أو اللسان أو الحلق بل نجعل الصوت يهوي معها حتى ينقطع آخره في مخرج الهمزة .

ولكنّ هذه الحروف ليست على استقرارها واطّرادها بهذا الشكل لدى جميع العرب، فقد يوقف عليها بإبدال حرف منها مكان آخر كقولهم في أفعى: هذه أفعَيْ، وفي حبلى: هذه حُبلَيْ، وهي لغة قليلة الاستعمال تكلّمت بها قبيلتا فزارة وقيس، والصواب فيها كما يرى سيبويه أن تترك الألف في الوقف ولا تبدلها ياءً، وبعض العرب يقول أفْعَو بإبدالها واواً لأنها أبين من الياء[٢٤].

وهناك من يجعل الجيم مكان الياء في الوقف؛ لأن الياء حرف خَفيّ، والجيم حرف أبين منه، نحو: هذا تميمجّ في تميميّ، وعلجّ في عليّ [٢٥]، وسَعْدِجّ في سَعْدِيّ[٢٦].

وتحذف من آخر الأسماء ــ عند الوقف ــ الياء المحذوفة في الوصل، نحو: هذا قاضْ وغازْ في قاضٍ وغازٍ. وتحذف الـياء أيضاً في الفواصل والقوافي[٢٧]، كقوله

٢٢ــ نفسه ٤: ١٧٣، ١٧٧.

٢٣ــ نفسه ٤: ١٧٩. وانظر أيضاً ص١٨٠، ١٨١.

٢٤ــ انظر: الكتاب، ٤:١٨١، ١٨٢.

٢٥ــ نفسه ٤: ١٨٢ .

٢٦ــ نفسه، ٢:٤٢٢.

٢٧ــ انظر: الكتاب : ٤:١٨٥

تعالى:«وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ»[٢٨]، و«مَا كُنَّا نَبْغِ»[٢٩]، و«يَوْمَ التَّنَادِ»[٣٠]. والمقصود بالفواصل رؤوس الآيات، ومقاطع الكلام .

وتحذف الياء أيضاً إذا لم تكن محذوفة في الوصل ولا يلحق بها التنوين، نحو: هذا غلامْ في غلامي، وقد أسقان في أسقاني عند الوقف[٣١]. وترك الحذف في كل هذا أكثر قياساً واطراداً .

ولا تحذف هذه الياء إذا كانت في اسم منقوص منصوب أو في فعل نحو رأيت قاضياً، ولا أقضي، وهو يغزو، ويرمي، ولكنهم قالوا لا أدْرِ بالحذف عند الوقف؛ لأنّه كثر في كلامهم[٣٢].

ويمتنع حذف هذه الياء إذا كان قبلها ساكن، نحو: هذا قاضيَّ، وهذان غلامايَ، ورأيت غُلامَيَّ، وإذا لم تكن في الوقف نحو: هذا غلامِيَ فاعلم. ولا تحذف الألف التي تذهب في الوصل نحو: رُضَا، ونُهَا[٣٣].

٥ـ الوقف على بعض الحروف الخاصة [٣٤]:

وهي حروف القلقلة، والحروف المهموسة، والحروف المشربة كما يسميها سيبويه. ويكون الوقف عليها إما بالضغط، وإما بالنفخة. أما الضغط فيكون مع حروف القلقلة (ق، ط، ب، ج، د) فالوقوف معها لا يكون إلا بالصُّويت لشدة ضغط الحرف، نحو: الحِذْقْ. وأما النفخة فتكون مع الحروف المهموسة كلِّها، ومع الحروف (ز، ظ، ذ، ض) المشربة. فإذا وقفنا عندها خرجت معها نفخة، ولم تُضْغَط كالحروف السابقة، وينسل آخر الصوت من بين الثنايا فيجد منفذاً له نحو: هذا نَشُزْ، وهذا خَفُضْ.

وهناك حروف لا يسمع معها التصويت، ولا تجد منفذاً لها من بين الثنايا، وهي

٢٨ــ الفجر ٤

٢٩ــ الكهف ٦٤

٣٠ــ غافر ٣٢

٣١ نفسه ٤: ١٨٦.

٣٢ــ نفسه ٤: ١٨٤ .

٣٣ــ انظر: الكتاب : ٤: ١٨٧ .

٣٤ــ انظر: الكتاب ٤:١٧٤ وما بعدها .

(ل، ن، م، ع، غ، ء). ويقول فيها سيبويه: "ومنها حروف مُشربة لا تسمع بعدها في الوقف شيئاً مما ذكرنا؛ لأنها لم تُضْغَط ضغط القاف، ولا تجد منفذاً كما وُجِدَ في الحروف الأربعة ..."(٣٥).

٦ــ الوقف بإبدال حرف مكان آخر :

ويُفهم هذا النوع من الوقف؛ من الباب الذي سمّاه سيبويه: "هذا باب الكاف التي هي علامة المضمر"(٣٦) فالكاف التي هي ضمير متصل مكسورة في المؤنث ومفتوحة في المذكر، نحو: رأيتكِ ورأيتكَ.

ولكن بعض تميم وأسد يجعل مكان الكاف في المؤنث شيئاً للبيان والوقف؛ لأن هذه الكاف تسكن عند الوقف، فأرادوا بيانها كي لا يلتبس المذكر بالمؤنث، وفصلوا بينهما بالشين كما فصلوا بالنون، عند قولهم: ذهبوا، وذهبْنَ، وجعلوا مكان الكاف المهموسة حرفاً مهموساً مثلها هو الشين؛ لأنه أقرب ما يشبهها، فقالوا: إنَّشِ ذاهبةٌ، ومالش ذاهبةً، في إنك ذاهبة، ومالك ذاهبة .

٧ــ الوقف على نون التوكيد:(٣٧)

النون الخفيفة: إذا كان ما قبلها مفتوحاً نجعل مكانها ألفاً، نحو: اضربَا في اضربَنْ (الأمر من المفرد) أما إذا كان ما قبلها مكسوراً أو مضموماً فلا نجعل مكانها ياءً ولا واواً في الوقف، نحو: اخشَيْ، واخشَوْا، ونحن نقصد النون الخفيفة. ولكن يونس يذهب إلى زيادة الياء والواو بدلاً منها فيقول: اخشَيِيْ، واخشَوُوا. وإذا وقعت في فعل مضارع مرفوع تحذف وتحلّ محلّها نون الرفع الّتي يوقف عليها بالسّكون، نحو: تضربينْ، وهل تضربونْ، وهل تضربانْ، ولا تقول: هل تضربونا (في الوقف) .

النون الثقيلة: لا تتغير في الوقف، وتبقى الألف التي قبلها في فعل الاثنين، نحو: لا تفعلانِّ ذلك.

٣٥ــ نفسه ٤:١٧٥ والمقصود بالحروف الأربعة هي الحروف المشربة .

٣٦ــ انظر: الكتاب، ٤:١٩٩.

٣٧ــ انظر: نفسه .٣:٥٢١ــ٥٢٧.

٨ــ الوقف على قوافي الشعر:

ومما يتّصل بظاهرة الوقف ما درسه سيبويه تحت عنوان " هذا باب وجوه القوافي في الإنشاد"[٣٨]، وهو يريد بذلك نوعاً من أنواع الوقف سمّاه بالتّرنُّم. ويمكن دراسة الوقف هنا من النّاحيتين التّاليتين:

الأولى: الإنشاد مع الترنُّم: ويراد به مَدّ الصوت، وإشباع الحركة وإلحاق الألف والياء والواو بما يُنوّن وما لا ينوّن. وتُلحق هذه المدّة بحروف الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم، فمما ذكره سيبويه من المنوّن الذي مدّوا صوته، قول امرئ القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلي بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وقول يزيد بن الطثريَّة :

فَبِتْنا تَحيدُ الوَحْشُ عنَّا كأننا قتيلان لم يَعلمْ لنا الناسُ مَصرعا

وقول الأعشى :

هريرةَ ودِّعْها وإنْ لامَ لائِمو غداةَ غدٍ أم أنت للبين واجمُ

فقد مُدّ الصوت في "منزلٍ" إلى "منزلي"، وفي "مصرعاً" إلى "مصرعا"، وفي "لائمٌ" إلى "لائمو"؛ للترنم في الإنشاد.

ومما هو غير منون، ومُدّ صوتُه؛ قول جرير :

أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابا وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابا

وقوله أيضاً :

متى كانَ الخِيامُ بذي طلوحٍ سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامو

وقوله كذلك :

أَيْهاتَ منزلُنا بنَعفِ سُوَيْقَةٍ كانت مباركةً مِن الأيامي

فالأصل فيها: "العتابَ "، و"الخيامُ" و"الأيامِ".

الثانية: الإنشاد مع عدم الترنم: والعرب على خلاف فيه :

فالحجازيون يتركون هذه القوافي – منونة وغير منونة – كما هي في الترنم، وقسم من بني تميم يبدلون مكان المَدَّة نوناً، كقول رؤبة :

٣٨ــ انظر الكتاب ٤:٢٠٤ــ٢١٦.

يا أبتا علّك أو عَساكَنْ

وقول العجاج :

يا صاحِ ما هاجَ الدُّموعَ الذّرّفَنْ

وقوله :

مِن طللٍ كالأَلحَمي أَنْهجَنْ

ومن العرب فريق ثالث، أجروا القوافي مُجرى الكلام النثري، فلم يترنموا، وتركوا المدَّة، ووقفوا على السكون في قول جرير: "أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابْ"، "بالسكون"، وقول الأخطل:

دَعِ المُغَمّرَ لا تسألْ بمصرعِهِ   واسألْ بمَصقَلَةَ البَكْرِيِّ ما فَعَلْ

بحذف الألف من "فَعَلا" لأنه لم يرد الترنم ولا مدّ الصوت .

كما وقفوا على حذف لام القافية: إذا كانت ياءً أو واواً، وحرف الروي قبلهما. كقول زهير :

وأراكَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعـــ   ـــضُ القومِ يخلُقُ ثم لا يَفْرْ

وهو يريد: لا يفري .

وكذلك يغزو، فلو كانت قافية لجاز فيها الحذف عند الوقف، ولقيل: يَغْزْ. أما إذا كانت اللام ألفاً فلا تحذف نحو: يخشَى، ويرضَى .

وتحذف واو الجماعة إذا لم يُرَدِ الترنم، كقول تميم بن مُقبل :

لا يُبعِدُ اللهُ أصحاباً تركْتُهُمُ   لم أدْرِ بعْدَ غداةِ البَيْنِ ما صَنَعْ

يريد: صنعوا. وقوله :

طافت بأَعْلاقِهِ خَوْدٌ يمانيةٌ   تدعُو العرانينَ من بكْرٍ وما جَمَعْ

يريد: جمعوا. وتحذف الياء أيضاً في غير الترنُّم، كقول عنترة العبسي :

يا دار عبلة بالجواء تكلَّمْ   وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي

يريد: تكلّمي .

وإذا كانت القافية ساكنة، واحتاجوا لتحريكها في الوصل؛ حركوها بالكسر، كقول امرئ القيس :

أغَرَّكِ مِنّي أنَّ حبَّكِ قاتلي   وأنَّكِ مهما تأمُرِي القلبَ يفعَلِ

وقول طرفة :

متى تأتِنا نَصبَحكَ كأساً رَوِيَّةً وإن كُنْتَ عنها غانياً فاغْنَ وازْدَدِ

وتمدّ الحركة بإشباعها إذا لم يكن وقف. كقول بعض العرب قالا في: قالَ، إذا لم يُرِد أن يقطع كلامه، ويقولو في: يقول، ومِنَ العامِي في: مِنَ العامِ .

وقد يوقف على القافية بإثقال الكلمة وتضعيفها، نحو: سبسبَّا وكلكلاّ في: السبسب والكلكل، وقال رؤبة: ضَخْمٌ يُحِبُّ الخُلُقَ الأضْخَمَّا [٣٩] في : "الأضخم"

وقال منظور بن مَرْثِد الفقعسيّ الأسديّ: ببازلٍ وَجناءَ أو عَيهَلِّ [٤٠] في: "عَيْهَلِ".

ثانياً ــ ظاهرة الإمالة :

الإمالة مصدر للفعل أمال يُميل، والميل الانحراف عن القصد. وهي في اللغة "...عُدولٌ بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخّمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفّتها، والتفخيم هو الأصل، والإمالة طارئة ..."[٤١].

وقد درس سيبويه هذه الظاهرة، وجعلها عماداً لدراساته الصوتية والصرفية، ولكن دراسته لها كانت تفصيلاً في اختلاف اللهجات في الألف الممالة، لا تعقيداً أو تبويباً لها. فهو يرى أن العرب مختلفون في الإمالة، فمنهم من أمال، وهم تميم وأسد وقيس وعامة أهل نجد، ومنهم من لم يُمِلْ إلا في مواضع قليلة، وهم أهل الحجاز، ومنهم من يميل في موضع، ولا يميل في آخر. ويمكن تصنيف موقفه من الإمالة على النحو التالي :

١ــ الإمالة المطردة : ويمكن أن ندعوها قياسية، وتحدث عنها سيبويه في بابين اثنين: الأول "باب ما تمال فيه الألفات"[٤٢]، والثاني "باب من إمالة الألف، يميلها فيه ناس من العرب كثير"[٤٣]. ففي الباب الأول يتحدث عن الإمالة حديثاً مطولاً ومتشعباً، يغلب

٣٩ــ انظر: الكتاب ٢٩:١.

٤٠ــ انظر: الكتاب ١٧٠:٤.

٤١ــ شرح المفصل ٥٤:٩. وسوف نرمز لصوت الإمالة بكسرة تحت الحرف الواقع قبل الحرف المُمال.

٤٢ــ الكتاب، ١١٧:٤ .

٤٣ــ نفسه ٤: ١٢٣.

عليه الاستطراد وعدم التبويب، ويمكن إجمال قواعده في هذا الباب عن الإمالة على النحو التالي :

ــ تمال الألف إذا كان بعدها حرف حُرّكَ بالكسرة، نحو: عِابِد، وعِالِم، ومسِاجِد .

ــ وتمال الألف إذا كان الحرف الأول من الكلمة مكسوراً، وفُصِل بينه وبين الألف بحرف واحد فقط، نحو :عِمِاد.

ــ وتمال الألف إذا كان بين أول حرف من الكلمة وبين الألف حرفان، الأول منهما ساكن، نحو: سِرْبِال، وشِمْلالِ، وكَيِّال، وشَيبِان، وعَيلاِن، وغَيلاِن، وعَجْلاِنك .

ــ وتمال فيما انتهى بياء أو واو وكان مفتوح العين، نحو: مَعْدِيّ، ومسنيّ، والعُصيّ، ودعِا (٤٤).

ــ وتمال فيما لحقته ألف زائدة للتأنيث أو غيره، نحو: حُبلِى، ومعزِى، والضُّحِى .

ــ وتمال فيما كانت عينه ياءً أو واواً لدى بعض أهل الحجاز؛ إذ قرأ بعضهم: صِار، وخِاف .

ــ وتمال في وزن فاعل، نحو: كِاتب، وسِاجد، ومِاشٍ، ودِاع، وقد شُبّه به لدى بعض العرب: مررت ببِابه، وأخذت من مِاله.

ويتحدث في الباب الثاني عن الإمالة لدى الكثير من العرب، فقد تقع في الضميرين (ها، نا) المتصلين بالمضارع، نحو: يريد أن يضربهِا، ويريد أن ينزعهِا، أو المتصلين بغير الفعل من أسماءٍ وحروف، نحو: من مضربِهِا، وبهِا، وبنِا. وهذه الإمالة مقصورة على ما اتصل بالمنصوب أو المجرور، أما الضمير المتصل بالمرفوع فلا إمالة فيه، نحو: مضربُها ويكيلُها .

وقد تقع الإمالة في الكلمة الواحدة إذا كان فيها ياء وبعدها حرف واحد ثم الألف، نحو: يدِا، أو كان فيها حرف مكسور، فَصلَ بينه وبين الألف حرف آخر، نحو: عِدِا، وذِهِا، من "ذه". وهذه الإمالة كما سبق أن أشرنا ليست مطردة عند العرب، فبعضهم يميل وبعضهم يترك الإمالة. وقد عبر سيبويه عن ذلك بقوله: "واعلم أنَّهُ ليس كُلّ من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممّن يُميل، ولكنه قد يخالِف كُلُّ واحدٍ من الفريقين

٤٤ــ الأصل في الياء المشددة ألف وياء؛ أي: مَعدايٌّ، ومسنايٌّ، وعُصايٌّ. أُميلت الألف فقلبت ياءً وأدغمت في الياء الثانية انظر الكتاب ٤:١١٨ــ١١٩.

صاحبه، فينصبُ بعضٌ ما يُميلُ صاحبُه ، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبُه..."[٤٥] والمقصود بالاطراد الذي ذكرناه في العنوان هو الاطراد أو القياس عند من يميل فقط.

٢ــ **الإمالة الشاذة:** وعقد لها سيبويه باباً سمّاه "باب ما أُميل على غير قياس وإنما هو شاذ"[٤٦]، وذلك نحو: الحجّاج إذا كان اسماً للرجل، حيث أمالته العرب لأنّ الإمالة كثيرة لديهم، وكذلك: النّاس وهذا بِاب ومِال ....

٣ــ **امتناع الإمالة** [٤٧]:

١ــ **هناك أحرف سبعة تمتنع الإمالة معها** هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والقاف، والخاء. وسبب منع الإمالة معها أنها حروف مستعليةٌ تميلُ إلى الحنك الأعلى، وكل من يميل الألف معها لا يؤخذ بعربيته على حد تعبير سيبويه. ويمكن إجمال قاعدة هذه الأحرف فيما يلي:

أــ **مجيئُها بعد الألف:** إذا أتى حرف منها بعد الألف امتنعت الإمالة، نحو: عاصم، وعاضد، وعاطس، وعاظل، وواغل، وناقد، وناخل .وإذا أتى حرف منها بعد الألف مفصولاً عنه بحرف امتنعت إمالته أيضاً، نحو: نافخ، ونابغ، ونافق، وشاحط، وناهض، وناشط؛ أو إذا كان مفصولاً عنه بحرفين نحو: مناشيط، ومنافيخ، ومعاليق، ومقاريض، ومواعيظ، ومباليغ ...

ب ــ **مجيئُها قبل الألف:** إذا أتى حرف من هذه الأحرف قبل الألف مباشرة؛ امتنعت الإمالة، نحو: قاعِد، وغائب، وخامِد، وصاعد وطائف، وضامن، وظالم .

أما إذا كان بين أحد هذه الأحرف وبين الألف حرفٌ واحد فلا تمتنع الإمالة، على أن يكون الحرف (من هذه الأحرف) مكسوراً، نحو: الضّعِاف، والصّعِاب، والطِّناب، والقِباب، والخِباث، والغِلاِب .

وكذلك إذا كان أحدها ساكناً مفصولاً عن الألف بحرف لا تمتنع الإمالة، نحو:

٤٥ــ الكتاب، ١٢٥:٤ .

٤٦ــ نفسه ٤: ١٢٧.

٤٧ــ انظر: نفسه ٤: ١٢٨، وما بعدها .

مِطْعِان، ومقْلاتِ، ومِصباح (٤٨).

٢ــ **ومما لا تُمال ألفه مع غير هذه الأحرف** ألف فاعِل ومُفاعل من المضعّف؛ لأن الحرف الذي قبل الألف مفتوح، نحو: جَادٌّ، وقادٌّ، ومُجادٌّ (٤٩).

٣ــ **لا تُمال الألف التي مع الحروف**، نحو: حتّى، وعلى، وإلى، وأمّا ...، ولكنهم أمالوا "يا" في النداء فقالوا: يا زيد. وكذلك أمالوا أنّى، وبا، وتا. وهذا جائز إذا أُمِنَ اللّبس كما يفهم من عبارة سيبويه (٥٠).

٤ــ **حرف الراء والإمالة:** للراء عند سيبويه أحكام تحدث عنها في بابين، الأول: "بابُ الراء" (٥١)، والثاني: "باب ما يُمال من الحروف التي ليس بعدها ألف إذا كانت الراء بعدها مكسورة "(٥٢). فالراء تشبه الحرف المضعّف، وهي بمنزلة الحروف التي تمتنع معها الإمالة، وأحياناً يُمال معها غيرُ الألف، ويمكن تصنيف الإمالة معها على النحو التالي(٥٣):

١ــ إذا كانت الراء قبل الألف تمتنع الإمالة، نحو: هذا راشد، وهذا فِراش. وبعض العرب يُميلها فيقول: عِفرا، وعيرا.

٢ــ إذا أتت الراء قبل الألف وفُصلت عنه بحرف امتنعت الإمالة، نحو: بِرقان .

٣ــ إذا كانت الراء بعد الألف لا تُمال الألف في حالتي: ضَمِّ الراء وفتحها (رُــرَ)، نحو: "هذا عَارٌ " و"رأيت العارَ"، أما في حالة كسر الراء (رِ) فلا تمتنع الإمالة، نحو: مِن عوارِه، وهذا قارِب، ومِن المُعارِ.

٤ــ إذا كانت الراء بعد الألف مفصولة عنه بحرف جاز فيها الإمالة، نحو: الكافِر، والمنابِر، وعدمُها عند البعض، نحو: الكافر. والذين يميلونها عند اجتماعها مع الألف، نحو: (قارب)؛ لا يميلونها إذا فُصِلَتْ عنه، نحو: (قادِر)؛ لأنها بَعُدَت، فلم تقو على الإمالة.

٤٨ــ الكتاب ٤: ١٣٠ – ١٣١.

٤٩ــ نفسه ٤: ١٣٢.

٥٠ــ الكتاب ٤: ١٣٥.

٥١ــ الكتاب، ١٣٦:٤.

٥٢ــ نفسه، ١٤٢:٤.

٥٣ــ الكتاب ٤: ١٣٦ – ١٤٤ .

٥ــ إذا أتت الراء مُضعفّه بعد ألف تُمال عند بعضهم، نحو: مررت بفِارّ، وهذه صعِارِرّ، وتترك عند آخرين .

٦ــ تمال بعض الحروف التي ليس بعدها ألف بسبب وجود الراء، وذلك إذا وقع الحرف قبل راءٍ مكسورة في كلمة واحدة، نحو: مِنَ الكِبِر، ومن الصِّغِر؛ أو في كلمتين، نحو: رأيت خَبَطِ الرِّيف. وقد تُمال فاء الكلمة إذا كانت عينُها ساكنةً ولامُها حرف راء، نحو: مِن عَمْرٍو، وهذا الكُفْر.

٧ــ تمتنع الإمالة مع الراء إذا كان بعد الراء حرفٌ من حروف الاستعلاء (خ ص ض ط ظ غ ق)، نحو: مِنَ الشَّرِق.

ثالثاً ــ ظاهرتا الإعلال والإبدال :

وهما مصطلحان مستخدمان في كتب الصرف العربي، يرجعان في أساسهما إلى ظاهرة صوتية تحكمها قوانين دقيقة، الغاية منها التجانس بين أصوات الكلمة الواحدة. وهما وإن عبّرا عن ظاهرة واحدة هي التجانس الصوتي فإن كلاًّ منهما يختلف عن الآخر اختلافاً واضحاً .

فالإعلال هو ما تتعرّض له أصوات العلة من تغيرات قد تؤدي إلى حلول بعضها مكان بعض، أو حذف بعضها أو نقل حركته إلى غيره. أما الإبدال فهو أعم من ذلك وأشمل، حيث يراد به جميع حالات التبادل بين الأصوات، سواءٌ أكانت صحيحة أم معتلة، ويعمد المتكلم فيه لحذف صوت من الكلمة والمجيء بآخر مكانه .

وقد تناول سيبويه هاتين الظاهرتين في كتابه، ولكنَّ حديثه عنهما لم يكن ليختلف عن الظاهرتين السابقتين، من حيث الترتيب والتصنيف والتبويب، كما لم يكن ليخرج عن إطار الخلط بين الدرس الصوتي والدرس الصرفي لدى القدماء جميعاً. ويمكن تلخيص حديثه عنهما بما يلي :

أــ **الإعلال:** الإعلال عند سيبويه كما هو عند الصرفيين جميعاً يكون بالحذف والنقل والقلب .

١ــ **الإعلال بالحذف**[٥٤]: كحذف الواو من المضارع والأمر والمصدر في مثل: يَعِدُ،

٥٤ــ انظر :الكتاب ٤:٥٢، ٢١٩.

عِدْ، عِدَة، زنة ....، وحذف الواو والياء من اللفيف المفروق في مثل: يشي، ويقي، وقِهِ، وشِهِ. وهناك حذف في بعض الأسماء وهو حذف سماعي كما يرى سيبويه، مثل: يد ودم وحِرٌ وسَتٌ ودَدٌ....

٢ــ **الإعلال بالتسكين والنقل**[٥٥]: ويقصد به سيبويه حذف حركة المعتل أو نقلها إلى الصحيح قبله، والغاية من ذلك تخفيف النطق والبعد عن التنافر والثقل الصوتي، ويُشترط في نقل الحركة أن يكون الصحيح الذي تنقل إليه الحركة ساكناً، نحو: يبيع، ويقول، ومهيب، ومبيع ...فأصلها: يَبْيِعُ، ويَقْوُلُ، ومَهْيِب، ومَبْيِع.

٣ــ **الإعلال بالقلب :**

أــ **قلب الواو والياء ألفاً** [٥٦]: فالياء والواو إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما فتحة أصلية اعتلتا وقلبتا ألفاً، نحو: تاه، وطاح، وغزا، ورمى....

ب ــ **قلب الواو ياءً** [٥٧]:وذلك إذا سكنت بعد كسرة، نحو: ميزان، وميعاد، أو إذا اجتمعت مع الياء، نحو :سيّدٌ وصيّبٌ، أو إذا كانت رابعة وأكثر، نحو: أغزيت وغازيت، أو إذا كانت لاماً في اسم على وزن فعلى، نحو: الدنيا، والعليا...

ت ــ **قلب الياء واواً** [٥٨]:وذلك إذا سكنت بعد ضمة، نحو: موقن وموسر، أو إذا كانت لاماً في اسم على وزن فَعلى كالشّروى والتّقوى، أو إذا كانت عيناً، نحو: الطوبى والكوسى من الطيب والكياسة .

ث ــ **قلب الواو والياء همزة** [٥٩]:وذلك إذا تطرفتا بعد ألف زائدة، نحو: قضاء وسقاء، أو إذا وقعت إحداهما عيناً لاسم الفاعل، نحو: بائع وخائف، أو إذا وقعت إحداهما بعد ألف فعائل، نحو :عجائز، وصحائف، أو إذا كان في الكلمة حرفا لين بينهما الألف، نحو: قوائل، وأوائل .

والحديث عن الإعلال يطول في الكتاب، وهو متناثر هنا وهناك، وربّما كان مفتقراً إلى المنهج في كثيرٍ من مواطنه.

٥٥ــ انظر: مواضع ذلك في الكتاب ٤:٣٣٩.

٥٦ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٣، ٣٩٠.

٥٧ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٣٥، ٣١٤، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥ ،٣٨٩، ٣٩٣.

٥٨ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٨٩، ٣٦٤، ٤٢١.

٥٩ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٤٨، ٣٦١، ٣٧٠.

ب ــ الإبدال :

درس سيبويه الإبدال في "باب حروف البدل، من غير أن تدغم حرفاً في حرف، وترفع لسانك من موضع واحد، وهي ثمانية من الحروف الأولى، وثلاثة من غيرها"[٦٠]. ولكنه عندما تحدّث عمّا سماه حروف البدل لم يقف عند هذا العدد بل تعداه إلى حروف أخرى قد يكون سببها الوقف أو الإدغام أو اللهجات أو غير ذلك، ولم يفرق في حديثه عن الإبدال بين القلب الذي يكون سببه الإعلال وبين الإبدال[٦١]. ويمكن أن نقف في هذا الباب على إبدال الحروف التّالية:

فالهمزة عنده قد تكون بدلاً من الياء في الإعلال بالقلب، نحو: قضاء، وقد تكون بدلاً من ألف حمرى في حمراء، ومن ألف حبلى في الوقف، وقد تكون بدلاً من الهاء بعد الألف في ماء، وبدلاً من الواو نحو: أدؤر، وأسؤق عند من لا يحققون الهمزة، وكذلك تبدل منها نحو: أجوه في وجوه، وإسادة في وسادة.

والألف تبدل من الواو نحو ياجل من يوجل، وتبدل من الهمزة عند تخفيفها، نحو: راس في رأس، وباس في بأس .

والهاء تبدل من الهمزة نحو: هرقت وهمرت من: أرقت وأمرت، ومن الياء في اسم الإشارة هذه...

والجيم تبدل من الياء في الوقف عند بعض بني سعد، نحو علَجّ في عليّ، وتميمجّ في تميميّ .

والياء تبدل من الهمزة في التخفيف عند من لا يحققون الهمزة، نحو: مِيَرٌ في المِئَر، وتبدل من

الواو، نحو: بهاليل جمع بهلول، ومن الحرف المدغم كقيراط، ودينار لأن الأصل فيهما قِرّاط ودِنّار.

واللام تبدل من النون بشكل قليل، نحو: أصيلالٌ في أصيلان تصغير أصلان .

والنون تبدل من الهمزة في فعْلان فَعْلَى، نحو: عطشان وسكران ...

٦٠ــ الكتاب ٤:٢٣٧.

٦١ــ قارن مثلاً ص٣٤٨ من ج٤، حين يتحدث عن قلب الواو والياء همزة، وبين ص٢٣٧ من الجزء نفسه حين يتحدث عن إبدال الهمزة .

والطاء تبدل من التاء في افتعل إذا كانت الفاء ضاداً أو صاداً أو ظاءً أو طاءً، نحو: اضطهد واصطبر ...

والدال تُبدل من التاء في افتعل إذا كانت بعد الزاي، نحو: ازدجر، ومزدجر ...

والتاء تبدل من الواو إذا كانت بعد كسرة، نحو: اتّعد، وتبدل في كلمات أخرى نحو: تُراث وتخمة واتكأت من توكّأت...

والميم تبدل من النون نحو عمبر في عنبر، ومن الواو في كلمة فم ومن يا النداء في اللهمَّ .

والواو تبدل من الياء كما في الإعلال بالقلب وكما في فتوى جمع فتيان، وتبدل من الهمزة المبدلة من الياء أو الواو، نحو: كساوان وغطاوان.

هذا ملخص وجيز لحديث سيبويه عن الإعلال والإبدال. ولا شك في أننا نحترم آراء سيبويه ونجلها، ونقدر جهوده الجبارة، ولا سيما أنه كان رائداً في هذا المجال، شقَّ الطريق الوعرة وحاول أن يسهل للأجيال من بعده سبيل تناول اللغة. ولكنّ عمله لا يخلو من خلط كثير. فموقفه من حروف العلة قد ارتبط بشكل الكتابة، حيث كان لديه ثلاثة أحرف ترسم برموزها، وهي (الألف، والواو، والياء)، وفي نظره أنَّ الواو والياء يعبران عن أربعة أصوات هي (ياء المد، وياء العلة، وواو المد، وواو العلة). ولكنّ الحقيقة التي يُقِرّها الدرس الحديث غير ذلك(٦٢).

فالواو والياء المعتلتان لا تكونان إلا حين تتراكب الحركات، فتنشأ الحركة المزدوجة التي تؤدي إلى وجود الصوت الانتقالي الواو أو الياء. أما أصوات المد نحو: (قامَ، يقوم، يقيم) فليست أصوات علة على الرغم من اتحاد رمزيْ الواو والياء، والتباسهما في الكتابة برمزي صوتي العلة، وإنّما هي حركات طويلة يمكن تجزئتها إلى حركات قصيرة. وقد لاحظ ذلك ابن جني حيث قال: "اعلم أنَّ الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثةٌ فكذلك الحركات ثلاث ...ألا ترى أنَّ الألف والياء والواو اللواتي هنَّ حروفٌ توامٌّ كوامل،

٦٢ــ راجع حول ذلك فصلاً بعنوان: السواكن والعلل من كتاب دراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ص١١٣ــ١٣٢. وانظر أيضاً "مناهج البحث في اللغة"، مطبعة النجاح الجديدة، الدّار البيضــاء، ص١٤١ ومــا بعدها.

قد تكون في بعض الأحوال أطولَ وأتمّ منهنّ في بعض..."(٦٣).

وقد جعل سيبويه الهمزة مع هذه الأحرف الثلاثة في باب واحد مع أنه كان يدرك الفرق بينها وبين الألف من الناحية النطقية؛ حين وصفها وصفاً دقيقاً بقوله: "نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً "(٦٤). ولكنه لم يستطع التخلص من ارتباط الهمزة بالألف، فهي حيناً حرف علة، وحيناً آخر شبيهة بالعلة مع أنها صوت صامت، وحيناً ثالثاً مخفّفة عند بعض القبائل، وحيناً رابعاً منقلبة عن صوت آخر ...

ولا بدّ للباحث هنا من معرفة طبيعة الهمزة من الناحية الصوتية ليُدرك مدى دقّة كلام سيبويه في ربطها بأحرف العلة. فهي صوت يخرج من الحنجرة نتيجة انغلاق الوترين الصوتيين تماماً، ثم انفتاحهما في صورة صوتية بين الجهر والهمس، وهي من الصوامت(٦٥) أمّا أصوات العلة فهي انطلاقية تخرج من الفم بعيداً عن الحنجرة والحلق واللهاة، وهي مجهورة(٦٦). أضف إلى ذلك أنّ حرفي العلة (الواو والياء) يختلفان عن الهمزة، لأنّ الهمزة صوت صامت مستقل، وهما صوتان مركبان انتقاليان؛ وبالتالي فلا علاقة صوتية بين الهمزة وبين أصوات المد والعلة. وهناك تباعد واضح ينفي وقوع الإبدال أو القلب بينهما والقول بحدوث الإبدال بين الهمزة وأصوات العلة قول خاطئ لا تؤيده الحقيقة العلمية ولا الصوتية للبعد بينهما؛ لأنّ الإبدال –بشكل عام– يحدث على أساس التقارب بين الأصوات المتبادلة، وهذا التقارب لا يقوم إلا على أساسين من أسس الدراسة الصوتية :

الأول: هو أنّ كلا الصوتين المتبادلين من الصوامت؛ التي تتميز بطبيعة مشتركة تقوم على اعتراض طريق الهواء المندفع من الرئتين إلى خارج الفم. في حين نرى أن الحركات أو أصوات العلّة تتكوّن دون هذا الاعتراض .

الثاني: أن الصوتين المتبادلين كليهما متحدان أو متقاربان في المخرج؛ الذي هو مكان اعتراض الهواء بعد خروجه من الرئتين. فإذا توفر للصوتين هذان الأساسان من

٦٣ــ سر صناعة الإعراب لابن جنّي، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩ :١ــ٢٠.

٦٤ــ الكتاب، ٣:٥٤٨.

٦٥ــ انظر: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، د. محمود السعران، دار الفكر العربي، ص١٥٧ وما بعدها.

٦٦ــ انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٩١ وما بعدها.

القرابة الصوتية احتمل أن يحلّ أحدهما مكان الآخر، وإلاّ فلا .

وبناءً على ما تقدّم نستطيع أن نقرر :

١ــ الأصل الغالب في الوقف هو السكون، ولا يوقف على متحرك (مقطع مفتوح). ومع أنّ سيبويه قرر الوقف في الكلام لكنه لم يطبقه تطبيقاً صحيحاً؛ لأنه اعتبر حروف المد والعلة صوامت لا حركات. ولئن جاز ذلك بالنسبة إلى حروف العلة التي هي أنصاف حركات (الفتحة والضمّة والكسرة)، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى حروف المد.

٢ــ إذا كان سيبويه قد نص على أنه لا يُبدأ بصامت بل بمتحرك فقد أغفل النص على أنه لا يُبدأ بحركة في الكلمة أو المقطع؛ لأنه لم يمنح الحركة وجوداً مستقلاً عن الصامت بل تصورها دائماً تابعة له، وأخرج حروف المد والعلة من جملة الحركات، وهي في طبيعتها تكبير للحركات، وتركيب لا يُستساغ في بدء المقطع إلا بشروط خاصة، ولذلك رفضت اللغة الضمة إثر واو والكسرة إثر واو أو ياء.

٣ــ من المعروف أن العربية تكره النطق بمقاطع مفتوحة متوالية، ولا تعرف ظاهرة توالي الصوامت (السكون) في المقطع كما في اللغات الأوروبية. وبالتالي فهي ترفض توالي الحركات الكثيرة؛ لأن هذه الحركات تضعف النظام المقطعي كما يرى المحدثون[٦٧]. أما سيبويه فيراها تجعل النطق ثقيلاً .

٤ــ إن التحليل الصوتي للكلمات المهموزة يقودنا إلى وظيفة الهمز في العربية، فهو وسيلة للهروب من تتابع الحركات عماده تكوين مقطع عربي سليم من جهة، وهو صورة من صور النبر من جهة أخرى، وسنرى بعد ذلك أن معظم الإبدال عند سيبويه هو من قبيل المماثلة الصوتية .

رابعاًــ ظاهرتا المماثلة والمخالفة :

أ ــ المماثلة :

هي مجموعة التعديلات التكيفية للصوت بسبب مجاورته لأصوات أخرى، فتتحوّل

٦٧ــ انظر: المنهج الصوتي للبنية العربية، د. عبد الصبور شاهين ،مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ص١٧٤.

الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة جزئياً أو كلياً[٦٨]. وأساس هذا التحول هو الاتفاق في المخرج أو الصفة أو فيهما معاً، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها ليحدث نوع من التوافق، والانسجام بعد شدّ وجذب .

والمماثلة هي الرديف المقابل لما سمّاه سيبويه الإدغام، وهو عنده ظاهرة موقعية سياقية مرتبطة بمواقع محددة، يلتقي في كل منها صوتان السابق منهما ساكن أو مُسَكَّن والتالي متحرك، ولا بُدّ لإدغامهما من تحقيق شروط أو صفات خاصة. وهذه الدراسة عنده بعيدة عن اعتبار الإدغام جزءاً من النظام الصوتي، مع أنه اهتم بهذه الظاهرة ومهّد لها بحديثه عن الأصوات المفردة .

وللمماثلة أنواع فقد تكون كلية أو جزئية وقد تكون تقدمية أو رجعية. وسوف نحاول أن نجمع تحت هذه الأنواع ما جاء في كتاب سيبويه مع ملاحظة أنّه استخدم لهذه الأنواع مسمّيات مختلفة ودرسها جميعاً تحت عنوان واحد هو الإدغام الذي قسمه إلى إدغام في المتماثلين، وفي المتقاربين، وفي حروف طرف اللسان والثنايا، وإلى مضارعة وقلب وتخفيف.

ا ـ **المماثلة الكلية التقدمية :** وهي أعلى درجات المماثلة، وفيها يتحد الصوتان المتتابعان في صوت واحد مشدد، ويؤثر الصوت الأول في الثاني ويجعله مثيلاً له إن لم يكن كذلك، فيحدث الإدغام. وقد درس سيبويه هذه المماثلة في أماكن متفرقة من كتابه، منها "باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً لا يزول عنه[٦٩]، ووضع لهذا النوع عللاً وأصولاً تعود إلى ظاهرة كراهية التقاء الأمثال؛ لأن العربي يكره توالي الحركات في كلامه ويرفضها في الكلمة الواحدة إذا زادت حركاتها على أربع حركات. ويرى أن هذا النوع يحدث في الكلمة الواحدة كما يحدث في الكلمتين المتواليتين اللتين يكون المثلان فيهما آخر الكلمة الأولى وأول الكلمة الثانية، ويمكن تقسيم هذا الباب عنده إلى الأقسام التالية [٧٠]:

١ــ إذا توالت خمسة حروف متحركة وكان الثالث والرابع مثلين سُكِّن الثالث

٦٨ــ انظر: دراسة الصوت اللغوي، ص٣٢٤.

٦٩ــ الكتاب ٤:٤٣٧.

٧٠ــ انظر هذه الأقسام في الكتاب ٤: ٤٣٧ وما بعدها

وأُدغم في الرابع، وهذا النوع أحسن حالات الإدغام كما يرى سيبويه، وتحريكه وبيانه عربيٌّ جيد وحجازيٌّ، نحو: جعلّك في "جَعَلَ لك" وفَعَلّبيد في "فَعَلَ لَبيد".

٢ـ إذا التقى المثلان وكان أولهما مسبوقاً بحرف متحرك واحد وتُلِيَ الثاني بساكن أصبح الإدغام حسناً، نحو: يَدّ داود في "يَدُ داود".

٣ـ إذا التقى المثلان المتحركان وكان قبل أولهما حرف مد كان الإدغام حسناً والبيان أحسن، نحو: إنّ المالّك في "إن المالَ لك"، وأنت تظلمينّي في "أنتِ تظلمينني". وذلك لأن حرف المد عند حدوث المماثلة (الإدغام) يكون بمنزلة المتحرك، ويرى سيبويه أن الواو والياء عند سكونهما تعاملان معاملة واو المد ويائه.

٤ـ إذا التقى المثلان المتحركان وسبق أولهما بساكن امتنع الإدغام، نحو: ابنُ نوحٍ، واسْمُ موسى.

٥ـ إذا كان أول المثلين واواً بعد ضمة أو ياءً بعد كسرة (ـ وو، ـ ي ي) امتنع الإدغام وتُرك المدُّ على حاله في الانفصال، نحو: ظلموا واقداً، واظلمي ياسراً .

٦ـ إذا كان أول المثلين واواً ساكنة أو ياء ساكنة لا يمتنع الإدغام؛ لأن الياء والواو ليستا حرفي مد هنا، نحو: اخشيّاسراً واخشوّاقداً، في "اخشَيْ ياسراً، واخشَوا واقداً ".

٧ـ ما يجري مجرى المنفصلين لا يجوز فيه الإدغام وإنما الإظهار، نحو: اقتتلوا ويقتتلون، وقد أدغم بعض العرب، فقال: اقتّلوا ويقتّلون .

ولا يقتصر هذا النوع من الماثلة على الصوتين المتماثلين بل قد يتتابع صوتان مختلفان لكنْ متقاربان في المخرج. ولكي يتمّ الإدغام أو المماثلة الكاملة لا بد من تحقيق المماثلة بين الصوتين المراد إدغامهما، وتسكين الصوت الأول إذا لم يكن ساكناً. ونرى ذلك عند سيبويه في باب إدغام المتقاربين(٧١) نحو: امدح عرفة= امدحّرفة، ومُثْتَرِد= مُثَّرِد، ومصتبر← مصطبر= مصَّبر، ومزتان← مزدان= مزّان، واضتجر← اضطجر= اضّجر، ومظتلم← مظطلم= مُظَّلم. وخبطت=خبطُّ، واذتكر← اذدكر= اذّكر.

٧١ـ الكتاب، ٤٤٥:٤.

وهناك مماثلة كلية تقدمية في حالة انفصال تتأثر فيها الحركات[٧٢]. فحركة الضّمائر في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكر (ــهُ) والجمع المذكر (ــهُم) والجمع المؤنث (ــهُنَّ) والمثنّى (ــهُما) تتأثر بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء فتقلب الضمة كسرة بعد كسرة أو ياء، وقد حافظت القبائل الحجازية على هذا الأصل في نطقها، نحو: مررت بِهُو قبلُ، ولديهُو مال تصــبح: بِهِ، ولديهِ، ومنهُم ←مِنْهِم، وفيهُ ← فيهِ. ويمكن أن نلاحظ هنا أيضاً تأثير الضمة على الواو وتولّد الواو من هذه الضمة بعد الإشباع، وتكسر الهاء لأن قبلها كسرة حيناً، نحو: بِهِى، وبدارِهِي، وياء حيناً، نحو: لديهِي مال[٧٣].

وما تزال بقايا هذه الظّاهرة في القرآن الكريم رسماً وقراءةً. من ذلك قوله تعالى: «... ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فَسَيُؤتيهِ أجراً عظيماً»[٧٤].

٢ــ المماثلة الكلية الرجعية: وهذا النوع كسابقه يعتمد على الإدغام، ولكن الصوت الثاني هو الذي يؤثر في الأول ويحوله إلى جنسه فيتحد به. ونجد هذا النوع عند سيبويه في بابين اثنين هما: "باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد"[٧٥] و"باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا"[٧٦]، ولكن هذين البابين لا يخلوان من الخلط الكثير. إذ نرى فيهما مماثلة كلية تقدمية ورجعية، ومماثلة جزئية تقدمية ورجعية، ومخالفة أيضاً. ونستطيع أن نلخص وجهة نظر سيبويه فيهما على النحو التالي:[٧٧]

أــ في باب المتقاربين:

١ــ الميم والفاء والراء والشين تؤثر في مقارباتها التي قبلها فتُماثلها وتُدغم فيها،

٧٢ــ انظر حول ذلك: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٢٥.

٧٣ــ نظر باباً في كتاب سيبويه بعنوان: باب ثبات الياء والواو في الهاء الّتي هي علامة الإضمار، وحــذفها، ٤:١٨٩ – ١٩٨.

٧٤ــ الفتح ١٠

٧٥ــ الكتاب ٤: ٤٤٥ .

٧٦ــ نفسه ٤: ٤٦٠ .

٧٧ــ انظر لما سيأتي من تمثيل: الكتاب ٤: ٤٤٥ ... ٤٧٦ .

نحو: اصْحَمَّطراً" في: "اصحب مطراً"، واذهفّي في ذلك؛ في: "اذهب في ذلك"، ومَرَّأيت في: "مَنْ رأيت"، وأخرشّيئاً في: "أخرجْ شيئاً" .

٢ــ مجموعة حروف تؤثر في مقارباتها تأثيراً رجعياً هي :

ــ الهاء والحاء (هــ + ح = حّ) نحو: اجبَهْ حَملاً = اجبحَّملاً .

ــ العين والحاء (ع + ح = حّ)، نحو: اقطعْ حملاً = اقطحَّملاً .

ــ الغين والخاء (غ + خ= خّ)، نحو: ادمَغْ خلفاً = ادمخَّلفاً. و(خ + غ = غّ)، نحو: اسلخ غنمك = اسلغَّنمك.

ــ القاف والكاف (ق + ك = كّ)، نحو: الحق كلدة = الحكّلدة. و(ك + ق = قّ)، نحو: انهك قطيناً = انهقَّطيناً.

ــ النون قبل اللام والميم والواو والياء (ن + ل = لّ، ن+ م = مّ، ن+ و = وّ، ن+ ي= يّ)، نحو: منْ لك = ملَّك، من معك = ممَّعك، من وجد = مَوَّجد، من يكون = ميَّكون .

ــ لام التعريف تتأثر تأثيراً رجعياً بالتاء والثاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاءوالظاء واللام والنون، وتختفي معهن وتسمى لاماً شمسية، ولا تتأثر مع البواقي بل تظهر وتسمى قمرية. وقد أيّدت الدراسات الصوتية ما جاء به سيبويه، ولا اعتراض على كلامه إلا فيما يتعلق بصوت اللام في بداية كلمة يُراد تعريفها ككلمة (لوم) فسيبويه ينطقه باللام الشمسية التي تختفي اختفاءً تاماً، ولكنّ اللام هنا تظهر بكل خصائصها كما تظهر لام التعريف في كلمتي الباب والحكاية وغيرهما. وبالتالي فهي قمرية لا شمسية. وربما يعود سبب هذا الخلط عند سيبويه إلى أنّ الإدغام عنده مجرد نطق مضعف للأصوات الّتي يتناولها لا أكثر ولا أقل[٧٨].

ب ــ في باب حروف طرف اللسان والثنايا :

١ــ الطاء والتاء والذال والثاء والظاء تتأثر بالضاد اللاحقة لها وتتماثل فتصبح من جنسها ثم تدغم فيها، نحو: اضبطْ ضرمة = اضبضّرمة، انعت ضرمة = انعضَّرمة،

٧٨ــ انظر: المنهج الصوتي للبنية العربية، ص٢١٢.

خُذْ ضرمة = خضَّرَمة، ابعث ضرمة = ابعضَّرمة، احفظ ضرمة = احفضَّرَمة[٧٩].

٢ــ الشين تؤثر تأثيراً رجعياً في الطاء والتاء والدال والضاد والظاء والذال والثاء لتي قبلها وتجعلها مدغمة فيها بعد التماثل، نحو: اضبط شاكراً = اضبشَّاكراً، انعت شاكراً = انعشَّاكراً، انقد شاعراً= انقشَّاعراً، عارض شاعراً = عارشَّاعراً، احفظ شاعراً = احفشَّاعراً، خذ شاكراً = خُشَّاكراً، ابعث شاكراً = ابعشَّاكراً.

٣ــ الطاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الدال والتاء والظاء التي قبلها وتجعلها مماثلة لها مدغمة فيها، نحو: انقد طالباً = انقطَّالباً، انعت طالباً = انعطَّالباً، احفظ طالباً = احفطَّالباً.

٤ــ الدال تؤثر تأثيراً رجعياً في التاء والذال والطاء التي قبلها، وتجعلها مماثلة لها ومدغمة فيها، نحو: انعت داود= انعدَّاود، خذ داود = خُدَّاود، اضبط داود = اضبدَّاود.

٥ــ التاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الدال والثاء والطاء التي قبلها، فتتماثل معها وتُدغم فيها، نحو: انقد تلك = انقتِّلك، ابعث تلك = ابعتِّلك، انقط توأماً = انقتَّوأماً.

٦ــ الصاد تؤثر تأثيراً رجعياً في السين والتاء والذال والزاي التي قبلها فتتماثل معها وتدغم فيها، نحو: احبسْ صابراً=احبصَّابراً، انعت صابراً =انعصَّابراً، خذ صابراً = خُصَّابراً، أوجز صابراً = أوجصَّابراً .

٧ــ الزاي تؤثر تأثيراً رجعياً في الصاد والسين والطاء والظاء والذال التي قبلها، فتتماثل معها وتدغم فيها، نحو: افحص زردة = افحزَّردة، احبِسْ زردة = احبزَّردة، اضبط زردة = اضبزَّردة، احفظ زردة = احفزَّردة، منذ زمان = مزَّمان.

٨ــ السين تؤثر تأثيراً رجعياً في الصاد والزاي والتاء والدال والثاء والذال والظاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: افحص سالماً = افحسَّالماً، رُزْ سلمة = رُسَّلمة، ذهبت سلمى = ذهبسَّلمى، قدْ سمعت = قَسَّمعت، ابْعث سلمة = ابعسَّلمة، مُذ ساعة = مُسَّاعة، احفظ سلمة = احفسَّلمة.

٩ــ الظاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الذال والثاء والطاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو:خذْ ظالماً = خُظَّالماً، ابعث ظالماً = ابعظَّالماً، احبطْ ظالماً= احبظَّالماً.

٧٩ــ انظر الكتاب ٤: ٤٦٥ .

١٠ـ الذال تؤثر تأثيراً رجعياً في الظاء والثاء والدال التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: احفظْ ذلك = احفذّلك، ابعث ذلك = ابعذّلك، أبعِدْ ذلك = أبعِذّلك.

١١ـ الثاء تؤثر تاثيراً رجعياً في الظاء والذال والتاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: احفظْ ثابتاً =احفثّابتاً، خُذْ ثابتاً = خُثّابتاً، انعت ثابتاً = انعثّابتاً.

٣ ـ المماثلة الجزئية التقدمية (٨٠) :

وهذا النوع من المماثلة يتناول الصفة لا المخرج، وفيه يتطابق الصوت مع الآخر تطابقاً نطقياً لا مخرجياً. ونلاحظ هذا النوع عند سيبويه في باب البدل عندما تحدث عن إبدال الطاء من التاء في صيغة افتعل، إذا كانت الفاء ضاداً أو صاداً أو ظاءً أو طاءً نحو: اضطهد، واصطبر، واطّرد (وهنا المماثلة كلية وليست جزئية) واظظلم من اظتلم التي تتحول إلى مماثلة كلية تقدمية وتصبح (اظّلم). وكذلك نلاحظ هذا النوع في صيغة فعلت، نحو: حِصْطُ وفحصطُ، من: حِصْتُ عنه، وفحصت برجلي، ومثل إبدال الطاء من التاء إبدالُ الدال من التاء أيضاً في هذه الصيغة إذا كانت بعد الزاي، نحو: ازدجر، ومزدجر، وازدان، من: ازتجر، ومزتجر، وازتان. وفي كل هذه الأمثلة مماثلة جزئية أثر فيها الصوت الأول في الثاني ليتناسبا ويتجانسا في النطق.

٤ـ المماثلة الجزئية الرجعية:

وهي التي يؤثر فيها الصوت الثاني في الأول، وقد تحدّث سيبويه عن هذا النوع في بابين من كتابه، الأول "باب الحرف الذي يُضارع به حرف من موضعه، والحرف الذي يُضارع بذلك الحرف وليس من موضعه"[٨١]، والثاني: "باب ما تقلب فيه السين صاداً في بعض اللغات"[٨٢]. ومن الواضح أنَّ المصطلحات الحديثة تختلف عن مصطلحات سيبويه الذي دعا هذا النوع مضارعة. فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال يحدث فيها تماثل بتأثير الدال ويلحقها الجهر، نحو: مزْدَر في "مصْدر"، والتزْدير

٨٠ـ انظر أمثلتها في الكتاب ٤: ٤٦٧ – ٤٧٧.

٨١ـ الكتاب، ٤:٤٧٧ .

٨٢ـ الكتاب، ٤: ٤٧٩.

في "التّصدير" .. وقد شُبِّه بهذه الصاد الساكنة قبل الدال صادات متحركة لا تلحقها الدال نحو: مزادر في "مصادر"، وزراط في "صراط".

والسين إذا كانت قبل الدال تتأثر بها ويتغير صوتها للتماثل النطقي الرجعي، نحو: يزدُلُ ثوبه في "يسدل ثوبه". وقد تقلب هذه السين صاداً في بعض اللغات، وذلك إذا جاء بعدها القاف أو الغين أو الخاء، نحو: صُقْتُ في "سُقْتُ"، وصالغ في "سالغ"، وصلخ في "سلخ"، وقد تقلب صاداً لقُرب المخرجين والإطباق كصاطع في "ساطع".

والشين والجيم يتبادلان هذا التاثير عن طريق المماثلة إذا كانت الدال بعدهما، نحو: أجدق في "أشدق"، وأشدر في "أجدر"، واشتمعوا في "اجتمعوا".

ومثل ذلك صوت الباء الذي يؤثر في النون قبله فتصبح ميماً نحو: امبعث في "انبعث"، وعمبر في "عنبر"، وشمباء في "شنباء". وقد تحدث سيبويه عن ذلك في باب البدل وفي أبواب أخرى تتّصل بالإدغام (٨٣).

بـــالمخالفة:

"هي تعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور، ولكنه تعديل عكسي يؤدّي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين(٨٤). وهي عكس المماثلة، ولكنها تحدث بصورة أقل منها. وقد تحدث سيبويه عن هذه المخالفة في باب يتصل بالإبدال عنده، سماه "باب ما شذّ فأُبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف، وليس بمطرد(٨٥)، وذلك نحو: تسرّيت من تسرّرت، وتظنّيتُ من تظنّنت، وتقصّيت من القصة...

وقد تكون هذه المخالفة عند سيبويه في التخفيف غير المطرد، وتحدّث عن ذلك في "باب ما كان شاذاً مما خفّفوا على ألسنتهم وليس بمطّرد(٨٦)، نحو: سِتٌّ من سِدْسٌ، ووَدٌّ عند تميم ووَتِدٌ عند الحجازيين، وأحست من: أحْسَسْتُ، ومَسْتُ من: مَسَسْتُ، وظَلْتُ من: ظَلِلْتُ، واستخد من: اتَّخذ، وطّجع من: اضطجع، ويستيع من: يستطيع، وبلعنبر من: بني العنبر، وبلحارث من: بني الحارث، وعلماء من: على الماء.

٨٣ـــ انظر: الكتاب، ٤:٢٤٠، ٤٥٣.

٨٤ـــ دراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٩، وانظر أيضاً البحث اللغوي عند العرب د أحمد مختار عمر ص١٣٤.

٨٥ـــ الكتاب ٤:٤٢٤، وانظر أيضاً التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب ص٤٠.

٨٦ـــ الكتاب ٤:٤٨١.

الخاتمة ونتائج البحث :

يتبين ممّا سبق أنّ سيبويه كان أحياناً يصرّح بالظّاهرة اللغويّة، وأحياناً أخرى يتركها على إطلاقها، وهذا كثير جدّاً في كتابه[٨٧]. كما كان يُكْثِرُ من الحديث عن اللهجات في أثناء تناوله الظّاهرة، مصرّحاً أحياناً بأنّ هذه الظّاهرة موجودة عند بعض العرب دون غيرهم[٨٨]. وهذا ما جعل ظواهره تحمل مادّةً ثريّةً جدّاً لدراسة اللهجات العربيّة. وأظنّ أنّ غايته من ذلك هي حرصُهُ الشّديد على تقديم اللغة في أدقِّ وصفٍ وأكمل وجه. وممّا يلاحظ عليه أنّه لم يضع مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الأصوات، كما لم يميز بناء الكلمات عن بناء الجملة؛ لأنّ كل ذلك يدخل عنده في مجال واحد هو النحو. ولكنّ هذا لا يقلل من جهود سيبويه في دراسته الصوتية التي تأثر بها علماء اللغة على مدى قرون. فقد ظلَّ القدماء يدورون في فلكه، ويرددون عباراته ومصطلحاته، وتأثر بكتابه كُلّ من جاء بعده من النحاة واللغويين؛ لا في آرائه النحوية فحسب، بل في آرائه الصوتية كذلك، كالمبرد وابن جني والزمخشري، وشارح كتابه ابن يعيش، وغيرهم .

أما المحدثون فقد خالفوا سيبويه في بعض مواقفه، ولكن خلافهم يبقى خلافاً جزئياً، مجاله الواسع هو المصطلحات لا المادة، ومردّه البعد الزمني بينهم وبين سيبويه، وتقدم العلم والاستعانة بآلات إنتاج الأصوات والمخابر اللغوية وغير ذلك. فبقي الخلط أحياناً بين بعض هذه الأصوات .

ويبدو هذا جلياً واضحاً في أثناء حديثه عن الهمزة عندما جعلها مع أصوات المد والعلة في حقل واحد .

والحقيقة التي يستطيع الباحث أن يخُطّها هي أن سيبويه تناول الأصوات اللغوية من مبدأ صحيح، وهو دراستها دراسة وصفية تقوم على الملاحظة الذاتية والبعد عن الافتراض والتأويل .

٨٧ــ انظر مثلاً: الكتاب ٤: ١٦٣، ١٦٨، ١٧٣ ...

٨٨ــ انظر مثلاً: الكتاب ٤: ١٢٥، ١٤٠، ٤٣٧ ...

المصادر والمراجع

١ــ ابن جنّيّ، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطّبعة الأولى، ١٩٥٤ م.

٢ــ ابن يعيش، شرح المفصّل، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة.

٣ــ حسّان، تمّام، مناهج البحث في اللغة، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٧٩ م.

٤ــ السعران، محمود، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

٥ــ سيبويه، الكتاب، تحقيق السّيّد عبد السّلام محمّد هارون، عالم، الكتب، بيروت.

٦ــ عبد التّوّاب، رمضان، التّطوّر اللغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرّفاعي بالرّياض.

٧ــ عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٨ــ عبد الصّبور شاهين، المنهج الصّوتيّ للبنية العربيّة (رؤية جديدة في الصّرف العربيّ)، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٠ م.

٩ــ عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى.

١٠ــ عمر، أحمد مختار، دراسة الصّوت اللغويّ، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٧٦ م.

أنواع البديع في العصر المملوكي
(عددها وتقسيم بعض أنواعها)

د.علي حيدر*

الملخص

ربما كان من أصعب الأمور على دارس علم البلاغة في العصر المملوكي، أن يستطيع حصر أنواع «البديع» الذي كان سمة مميزة للذوق الأدبي في هذا العصر.

ويبدو أن أصحاب البديع اختلفوا في عددها وفي أنواعها وفي تسمياتها، ولم يتفقوا على أهميتها ودورها في العملية الإبداعية. لذلك يقوم هذا البحث بمحاولة فهم أسباب هذا الاضطراب من خلال مقارنة بين أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع، كذلك يعرض لأهم الأنواع البيانية والبديعية التي تعرضت للتقسيم والتفريع مما جعل الإلمام بها أمراً في غاية الصعوبة.

كلمات مفتاحية: بديع – أنواع – تقسيم – مملوك – اضطراب.

مقدمة:

بدأ القرن السابع الهجري بظهور كتابين في علم البلاغة كان لهما تأثير واضح في مؤلفات العصر المملوكي، الأول كتاب «مفتاح العلوم»[١] لأبي يعقوب السكاكي[٢] (ت٦٢٦هـ) والثاني «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»[٣] لابن الأثير الجزري[٤] (ت ٦٣٧ هـ).

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة تشرين.

١ ـ نعتمد في هذا البحث إصدار دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م.

٢ ـ ترجمته في مقدمة كتاب «مفتاح العلوم».

٣ ـ نعتمد في هذا البحث إصدار مطبعة نهضة مصر التي حققها وقدم لها أحمد الحوفي وبدوي طبانة – الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩ م.

٤ ـ ترجمته في وفيات الأعيان، ٥: ٣٨٩ – ٣٩٧، وفي مقدمة كتابه «المثل السائر»

اشتهر الكتاب الأول «ولاسيما القسم الثالث منه» بأنه أول كتاب قام بتبويب علم البلاغة وتنسيق أنواعه، إذ جعل البلاغة علمين : علم المعاني وعلم البيان، ثم ألحق البديع بهما ،لأنه علم لا يؤثر في فصاحة الكلام وبلاغته، بل هو يزيده حسناً .

بينما عرض ابن الأثير في كتابه، الذي جاء في مقدمة ومقالتين، لفنون الكتابة وأركانها، ثم تناول اللفظ المفرد(٥)، واللفظ في السياق(٦)، ذاكراً من خلال ذلك أنواعاً بديعية تختص باللفظ المفرد، وأنواعاً أخرى تتناول تركيب الكلام وفصاحته وبلاغته، من غير أن يشير إلى أنها تختص بعلم المعاني، أو علم البيان.

أهمية البحث وأهدافه :

تكمن أهمية هذا البحث في الوصول إلى بعض أسباب تعقيد علم البلاغة في العصر المملوكي.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التكاملي.

عدد أنواع البديع :

حوالي منتصف هذا القرن «السابع الهجري» ظهر كتاب «بديع القرآن»(٧) لابن أبي الإصبع المصري(٨) (ت ٦٥٤ هـ). يوضح هذا الكتاب تطور ظهور كثير من الأنواع البديعية، لأن المؤلف يشير في مقدمته إلى أنه جمع كتابه اعتماداً على ستة وثمانين كتاباً نص عليها بالاسم، وأنه جمع في كتابه«تحرير التحبير»(٩) مئة وستة وعشرين نوعاً بديعياً، ثم أفرد منها ما يختص بالقرآن الكريم في كتابه هذا، فكان لديه

---

٥ ـــ المثل السائر، ١: ٢١٠- ٤١٤ .

٦ ـــ المصدر السابق، الجزءان الثاني والثالث.

٧ ـــ قدم له وحققه حفني شرف، مكتبة نهضة مصر – الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧ م .

٨ ـــ ترجمته: فوات الوفيات، ٣٧٢/١، وشذرات الذهب، ٥: ٤٣٩. ومقدمة كتابه «بديع القرآن»، ٦٧-٩٦ .

٩ ـــ لم نجده مطبوعاً وقد أشار إليه محقق كتاب البديع وذكر أنه مخطوط رقم ٤٦٥ بلاغة دون الإشارة إلى مكانه .

مئة وثمانية أنواع بديعية، أخذ منها سبعة عشر نوعاً عن ابن المعتز[١٠]، وأخذ ثلاثة عشر نوعاً عن قدامة بن جعفر[١١] وأخذ تسعة وأربعين نوعاً عمن جاؤوا بعد قدامة[١٢]. أما باقي الأنواع، وهي اثنان وثلاثون نوعاً، فقد ادعى أنها من اختراعه ولم يسبقه إليها أحد. لكن الحقيقة أن معظم هذه الأنواع موجودة عند أسلافه بأسماء مختلفة، أو مشابهة في دلالتها وغرضها البديعي، لكن هذا لا ينفي أهمية هذا الكتاب، فقد صار مصدراً يعتمده أهل البديع، حتى إن السيوطي[١٣] (ت ٩١١ هـ) أخذ عنه هذه الأنواع، واعتمدها في كتاب «لإتقان في علون القرآن»[١٤].

في منتصف القرن الثامن الهجري، نجد أن أنواع البديع قد بلغت في بديعية صفي الدين الحلي مئة وخمسة وأربعين نوعاً[١٥]. وهذه البديعية كانت إحدى أربع بديعيات قارن بينها ابن حجة الحموي[١٦](ت ٨٣٧هـ) في القرن التاسع، فكان من هذه المقارنة كتابه المشهور «خزانة الأدب وغاية الأرب»[١٧].

هذا التفاوت الكبير بين عدد أنواع البديع التي جاءت عند السكاكي وابن الأثير، تلك التي جاءت عند ابن أبي الأصبع، وتكررت عند الحلي وابن حجة الحموي من بعده، يظهر بوضوح ميل الذوق الأدبي والنقدي في العصر المملوكي إلى اختراع الأنواع البديعية، وإلى الإسراف في تقسيم هذه الأنواع وتفريعها، حتى أصبحت الإحاطة بها وفهمها أمراً صعب المنال، ويمكن رد ذلك إلى سببين أساسين هما:

١- اختراع الأنواع البديعية وإدخال أنواع ليست من البديع:

جعل السكاكي علم البلاغة في علمين اثنين هما علم المعاني وعلم البيان، وألحق

١٠ ــ بديع القرآن، ١٧- ٦٤، تبدأ بالاستعارة وتنتهي بــ «حسن الابتداءات».

١١ ــ المصدر السابق، ٦٥- ٨٧، تبدأ بــ «صحة الأقسام» وتنتهي بــ «الإيغال».

١٢ ــ المصدر السابق، ٩٣- ٢٣١. أولها «الاحتراس» وآخرها «التوءم».

١٣ ــ ترجمته: بخط يده في مقدمة كتابه «الإتقان»، ١: ٣-٥ و٦-٧.

١٤ ــ نعتمد طبعة منشورات الرضي – زاهدي بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء.

١٥ ــ ديوان الحلي، ٦٧٦ – ٧٥٠ هــ. فيها سبعة أنواع من الجناس ثم في كل بيت نوع بديعي محدد.

١٦ ــ ترجمته، شذرات الذهب، ٢١٩/٧، وفي «الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني»، عمر موسى باشا، ١: ٤٩٤ – ٥٠٨.

١٧ ــ نعتمد طبعة دار القاموس الحديث للطباعة والنشر – بيروت – صدرت في مجلد واحد بأوراق من القطع الكبير.

بهما فنون البديع بوصفها فنوناً تحسن الكلام لكن لا تؤثر في فصاحته وبلاغته. هذا التقسيم اتبعه جماعة ولاسيما القزويني (ت ٧٣٩هـ)، وشرّاح التلخيص[١٨]، مما يفسر قلة أنواع البديع عندهم.

لكن بعض الأدباء والنقاد في العصر المملوكي ومنهم ابن أبي الإصبع وابن حجة الحموي لم يتبعوا هذا التقسيم واستخدموا مصطلح «البديع» استخداماً مطابقاً لعلم البلاغة.

هذا يفسر كثرة الأنواع البديعية التي ذكروها، لذلك نجدهم قد أدرجوا التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في أنواع البديع، وهي من أركان علم البيان، كذلك أدرجوا الحذف، والمبالغة والالتفات وغيرها ،وهي أنواع تدخل في علم المعاني أي في الإيجاز والإطناب.

أي أن هؤلاء لم يعترفوا بتقسيم السكاكي، وظلوا على استخدام مصطلح البديع الذي كان سائداً قبل السكاكي، والذي كان يعني الإبداع الفني، وليس بمفهوم العصر المملوكي الذي جعل البديع أنواعاً تحصى في النص من غير أن ينظر إلى تأثيرها الفني فيه.

كذلك أدخل هؤلاء في البديع ما ليس منه، مثل «السهولة» و«الرقة»، و«الانسجام»[١٩].

وهي أحكام نقدية لا تطلق عادة على فقرة نثرية أو بيت شعري، بل تطلق على نصوص كاملة أو إنتاج كامل لأحد الأدباء. كذلك جعلوا من الأبيات الشعرية التي تحمل شيئاً من الحكمة وتسير بين الناس نوعاً بديعياً سماه ابن حجة «إرسال المثل»، وجاء باسم «التمثيل» عند ابن أبي الإصبع[٢٠]. وجعل ابن حجة «الأحاجي والألغاز» نوعاً بديعياً، وكان ابن الأثير قد سبقه إلى ذلك[٢١]، ولكن هذا النوع هو ظاهرة فنية تتعمد الغموض مما يجعلها لا تحسِّن الكلام، وهي مخالفة أصلاً لمفهوم الفصاحة والبلاغة.

---

١٨ ــ «تلخيص المفتاح» للقزويني ومن أشهر شراحه القزويني نفسه، وسعد الدين التفتازاني وبهاء الدين السبكي.

١٩ ــ خزانة الأدب، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٠ ــ المصدر السابق، ص ٣٤٠، وبديع القرآن، ص ٨٤ – ٨٨ .

٢١ ــ المثل السائر ، ٣ : ص٨٤ – ٩٥ .

ولكثرة أنواع البديع وجد أهله حالات يتنازعـــها أكثر من نوع بديعي، فسمى ابن أبي الإصبع هذه الحالة «الإبداع»[٢٢]، ونسب لنفسه فضل اكتشافها، بينما أطلق عليها ابن حجة اسم «المشوش»[٢٣].

لذلك نجد عندهما حالات يعلقان فيها على فقرة أو بيت، فيستخرجان من أنواع البديع ما يزيد على عدد ألفاظه .

٢ـ التقسيم والتفريع في النوع الواحد:

وسنتناول أشهر الأنواع التي خضعت لذلك، بادئين بـــ «التورية»[٢٤]، أو «الإيهام» أو «التوجيه» وهي من مابعد قدامة بن جعفر، فقد وردت في «العمدة» لابن رشيق وفي بديع ابن منقذ، وقال عنها الزمخشري: إنها «باب في البيان ليس هناك ألطف منه ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله».

وإذا كان الجميع يتفقون على تعريفها بأنها لفظ مشترك يقصد الأديب منه المعنى البعيد، بينما يكون المعنى القريب الذي يتبادر إلى ذهن المتلقي غير مقصود، فإنهم اختلفوا في شواهدها.

فابن الأثير الجزري ذكرها في كتابه «المثل السائر» فيما سماه «المغالطات المعنوية»[٢٥] ورأى أنها أحلى ما استعمل في الكلام و ألطفه لما فيه من التورية، ويرى أنها نوعان:

المغالطة المثلية: وهي التي تقع في اللفظ المشترك وشاهده قول المتنبي:

برَغم شَبيبٍ فارقَ السيفُ كفّهُ	وكانا على العلاتِ يَلتقيانِ
كأنّ رقَابَ الناسِ قالَت لسيفهِ:	رفيقُكَ قَيسيٌّ وأنت يماني

٢٢ ـــ بديع القرآن ،ص ٣٤٠ – ٣٤٣ ، و كرره «الإتقان في علوم القرآن» ، ٣:ص ٣٣٠ – ٣٣١

٢٣ ـــ خزانة الأدب ،ص ٧١ .

٢٤ ـــ وردت في العمدة ، و بديع ابن منقذ ، و في «المثل السائر» ، ٣ : ٧٦ – ٨٣ ، و «مفتاح العلوم» ، ٤٢٧ ، و «التلخيص» ، ٣٥٩ – ٣٦٠ ، و«بديع القرآن» ، ١٠٢ – ١٠٣، و «الإتقان في علوم القرآن» ، ٣ : ٢٨٥ – ٢٨٧.

٢٥ ـــ المثل السائر ، ٣:ص ٧٦ – ٨٢ .

فقد وقعت التورية في لفظ «يماني» الذي يشير إلى الرجل المنسوب إلى اليمن، وإلى السيف المصنوع في اليمن. وقد أورد ابن حجة الحموي هذين البيتين شاهداً على التورية، ورأى أنهما أول شاهد وقع عليه أصحاب البديع في التورية[٢٦].

أما المغالطة الضدية: فهي تقع في لفظ من الأضداد، أي يحمل معنين متضادين. ومن الشواهد التي يسوقها ابن الأثير قول أحدهم :

وَخَلَطتُمُ بعضَ القُرآنِ بِبَعضِهِ فَجَعَلتُمُ الشعراءَ في الأنعامِ

ومن الواضح أن الشاهد لا يشير إلى تضاد في لفظ «الشعراء» أو لفظ «الأنعام» فهما يدخلان في المشترك اللفظي، الشعراء جمع شاعر، وسورة الشعراء، وكذلك الأنعام التي تربى لفائدة الإنسان، وسورة الأنعام.

والشاهد الثاني الذي يسوقه ابن الأثير قول أحدهم ، وهو وارد في لسان العرب في مادة «نفق»:

وَمَا أَشياءُ تَشريها بمالٍ فَإِن نَفَقَت فأَكسَدُ ما تكونُ

ويذكر أن «نفق» بمعنى راج، ونفقت الدابة ماتت. وهذا الشاهد أيضاً لا يحمل معنى التضاد، فنفوق الدابة ورواجها يعني ذهابها ونفادها، والسلعة حين تروج تنفق في الأسواق. وأعتقد أن هذا الشاهد يدخل في باب الأحاجي و الألغاز وليس في باب التورية.

أما الشواهد الأخرى فقد تداولها أصحاب البديع وكرروها، ومن أشهرها الشاهد الذي نقله السيوطي عن الزمخشري، وهو قوله تعالى: «الرَّحمَنُ على العَرشِ استَوَى» وقد كرره السكاكي، ونقله القزويني عنه وذكره ابن أبي الإصبع و السيوطي في نهاية العصر المملوكي[٢٧]. وهو الشاهد على التورية «المجردة» أي ليس فيها ما يشير إلى المعنى القريب أو البعيد. أما التورية «المرشحة» التي فيها لفظ يلائم المعنى القريب فهو قوله تعالى: «وَ السماءَ بَنيناها بِأيَدٍ» في الشاهد الأول وقعت التورية في «استوى» الذي له معنى قريب وهو الاستقرار بينما المعنى البعيد هو «الاستيلاء». والشاهد

٢٦ ــ خزانة الأدب ، ص٢٣٩ ومابعدها .

٢٧ ــ بديع القرآن ،ص ١٠٢ – ١٠٣ . الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ٢١٧ – ٢٨٥ . و التلخيص في علوم البلاغة ،ص ٣٥٩ – ٣٦٠ . و الآية طه ٥ .

الثاني وقوع التورية في«اليد» التي تعني الجارحة وهو المعنى القريب، ورشحه هذا المعنى قوله «بنيناها»، بينما المعنى البعيد هو «القدرة».

ومن الملاحظ أن هذين الشاهدين يندرجان في باب المجاز المرسل ،لأنهما لا يحملان معنى الاشتراك اللفظي، فاستوى يتضمن معنى الاستقرار لكنه لا يتضمن بالضرورة معنى الاستيلاء. أما اليد فليس من معناها القدرة بل هي من لوازمها.

ولا يندرج هذان الشاهدان في باب التورية إلا إذا أخذنا بتعريفها الذي جاء به السيوطي في آخر العصر المملوكي، إذ عرّفها بأنها لفظ له معنيان، إما بالاشتراك وإما بالتواطؤ أو بالحقيقة أو المجاز[٢٨]، وهذا التعريف يوسع مفهوم التورية ويدخل فيها ما ليس منها، لأن التواطؤ هو عرف لغوي، وقد يكون فقهياً، و الحقيقة و المجاز هما أوسع بكثير من مفهوم التورية .

كانت التورية في عصر ابن حجة تياراً أدبياً، ونوعاً بديعياً يتنافس فيه المتنافسون، وشغلت التورية ما يقرب من ربع كتاب ابن حجة «خزانة الأدب»[٢٩].

وقد أسرف هذا الأديب الناقد في الاستشهاد بشواهد عن التورية من إنتاج معاصريه، ولم يكتف بذكر التورية المرشحة التي تتضمن ما يشير إلى المعنى القريب غير المقصود، بل زاد أيضاً التورية المبينة وهي التي تتضمن إشارة إلى المعنى البعيد. ثم زاد في تقسيماتها بحسب ورود اللفظ الذي يشير إلى أحد المعنين هل هو قبل التورية أو بعدها. وهكذا أصبحت التورية فناً بديعياً فيه كثير من التفصيل والتفريع فزادت غموضاً واتساعاً.

ولم تسلم الأنواع الأخرى ولاسيما المشهورة منها من اختلاف أهل البديع فيها. فمن ذلك الاستعارة التي كانت من أكثر الأنواع بحثاً وتصنيفاً واختلافاً في التقسيم، بدءاً من «البيان والتبيين» للجاحظ، و«قواعد الشعر » لثعلب وانتهاء بـــ «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.

يرى ابن الأثير أن حدّ الاستعارة هو طي المستعار له وذكر المستعار مع وجود مشاركة بين طرفي الاستعارة «المستعار له والمستعار منه»، ووجود قرينة تشير إلى

---

٢٨ ـــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ٢٨٥ . و الآية : الذاريات ٤٧ .

٢٩ ـــ خزانة الأدب ،ص ٢٣٩ – ٣٦٥ ، وهذه الصفحات تعادل ربع الكتاب .

وقوع المجاز. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: «أَلَم تَرَأَنّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون» فاستعار الأودية للفنون، ويبدو أن ابن الأثير لا يعترف إلا بالاستعارة التصريحية. أما الاستعارة المكنية وغيرها من أنواع المجاز فيعدها من باب التوسع في الكلام، لذلك فإن قول امرئ القيس:

فَقلتُ له لمّا تَمَطّى بِصُلبهِ وأَردَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلكَلِ

ليس من الاستعارة لأن الليل مذكور سابقاً.

وكذلك قوله (ص):«هَذا جَبَلُ نُحبُّهُ ويُحبّنا» هو من التوسع في الكلام لأنه لا مناسبة بين الجبل والمحبة[٣٠].

أما معاصره السكاكي فقد جعل الاستعارة تصريحية و مكنية، ثم قسّم التصريحية إلى تحقيقية لأن المشبه المحذوف متحقق حساً وعقلاً، و تخيلية لأن المشبه المحذوف محض خيال ومن شواهدها «المنية وأظفارها ، ونطقت الحال» وهو هنا يخلط بين التصريحية والمكنية. ثم جعل للتصريحية قسماً ثالثاً، كما يقتضيه المنطق وهو النوع الذي يحتمل التحقيق والتخييل.

ثم يذكر الاستعارة المكنية ويكرر شاهديه اللذين ذكرهما في نوع التصريحية التخييلية[٣١]. ثم قسمها إلى أصلية وتبعية وفق جمود لفظها أو اشتقاقه[٣٢]. ثم ذكر تقسيماً آخر وفق مايرافق الاستعارة من ألفاظ تشير إلى أحد الطرفين، فهي مرشحة إذا كان هناك لفظ يشير إلى المشبه به، ومجردة إذا كان فيها لفظ يشير إلى المشبه.

ووفق المنطق هناك نوع ثالث خالٍ من الإشارة إلى أحد الطرفين، ويقصد الاستعارة المطلقة دون أن ينص على ذلك بالاسم.

ويختم السكاكي الحديث عن الاستعارة بالحديث عن أنواعها وفق المحسوس

---

٣٠ ــ المثل السائر،٢: ص ٧٠ – ١١٥، وهوالنوع الأول في المقالة الثانية (في الصناعة المعنوية) يميز الاستعارة من التشبيه المضمر الأداة ، يبين الفرق بين الاستعارة و التشبيه وفي ص٨٣ يتناول حد الاستعارة ، ثم يناقش أقوال الآخرين فيها ولاسيما أقوال ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة » ، وهو يجعل الاستعارة درجات جيدة ، ووسط ، ورديئة . الشعراء: الآية ٢٢٥ . أما الحديث فلم نقع عليه في الصحيحين (مع ملاحظة ٣١) .

٣١ ــ مفتاح العلوم ،ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

٣٢ ــ المصدر السابق ،ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

والمعقول، ويعد منها خمسة أنواع[٣٣]، وقد خصص القزويني، بدوره، صفحات لدراسة الاستعارة، وذكر ما جاء عند السكـاكي ولم يوافقه في بعض مـا جاء به من تقسيمات للاستعارة[٣٤]. ونجد ما يشبه هذه التقسيمات عند ابن حجة الحموي[٣٥]، وعند السيوطي الذي تحدث عن أركان الاستعارة وعن الفرق بينها وبين التشبيه البليغ. وقال إن أقسامها كثيرة، فمن حيث أركانها الثلاثة (المستعار له والمستعار منه والجامع بينهما) قسمها إلى أقسام وفق المحسوس و العقلي. ثم أضاف: إنها وفق لفظها، فهي أصلية إذا كان اللفظ الذي وقعت فيه جامداً، وتبعية إذا كان مشتقاً، وهي مكنية إذا حذف المشبه به، وتصريحية إذا حذف المشبه.

في تقـسيم آخر هي وفاقية إذا كان وقوع الاسـتعارة ممكناً، وعنادية إذا كان وجودها مسـتحيلاً. ثم هي مرشحة إذا اقترنت بما يشير إلى المسـتعار منه، ومجردة إذا اقترنت بما يلائم المسـتعار له، ومطلقة إذا خلت من الإشارة إلى أحد الطرفين[٣٦]. ويختم الحديث عن الاسـتعارة بذكر الاسـتعارة التمثيلية باعتبار وجه الـشبه المنتزع من متعدد.

وكان للتـشبيه أيضاً نصيبه من التقـسيم و التفريع. وهو من أقدم الأنواع البديعية تناولاً فهو موجود في«الكتاب» لسيبويه، ولم يغفله كتاب في البلاغة بعد ذلك [٣٧].

ذكره ابن الأثير، ورأى أن التشبيه والتمثيل شيء واحد. ثم قسم التشبيه المضمر الأداة إلى أقسام خمسة حسب وقوعه في الجملة وجعل المثل المضروب آخرها التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية.

ثم قسم التشبيه إلى أربعة أقسام: تشبيه معنى بمعنى، وتشبيه صورة بصورة، تشبيه معنى بصورة، وأخيراً تشبيه صورة بمعنى. ثم ذكر أن كل قسم من هذه الأقسام يقسم بدوره إلـى أربعة أقسام وهي: تشبـيه مفرد بمفرد، ومـركب بمركب،

٣٣ ــ المصدر السابق ،ص ٣٨١ – ٣٨٧ ، ٣٨٨ – ٣٩٨ .

٣٤ ــ التلخيص في علوم البلاغة ، ص٣٢٤ – ٣٣٥ .

٣٥ ــ خزانة الأدب ، ص٢٣٩ – ٣٦٥ ، وهذه الصفحات تعادل ربع الكتاب .

٣٦ ــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ١٤٨ – ١٥٨ .

٣٧ ــ بديع القرآن ، ص٥٨ – ٦٣ .

ومفرد بمركب، ومركب بمفرد. وأشار في الختام إلى أن هناك درجات للتشبيه من حيث بلاغته[٣٨].

أما معاصره السكاكي فقد كان أكثر حرصاً على تقسيم التشبيه تقسيماً منطقياً، فقد قسمه من حيث طرفاه إلى طرفين حسيين أو طرفين عقليين أو عقلي وحسي، أو حسي وعقلي.

وقسمه أيضاً من حيث وجه الشبه إلى واحد و متعدد، والواحد إلى حسي وعقلي، والمتعدد إلى متعدد في حكم الواحد وهو حسي أو عقلي أو مختلط. ثم أغرق في التقسيم فقسمه وفق الغرض منه وهي أقسام كثيرة متعددة .

ثم ذكر أحوال التشبيه من حيث قربه أو بعده. وأخيراً ذكر مراتب التشبيه وفق أركانه الأربعة (مشبه ومشبه به وكلمة التشبيه، ووجه الشبه) ورأى أن التشبيه التام الأركان[٣٩] لا قوة فيه، وأن التشبيه البليغ الذي تسقط فيه الأداة ووجه الشبه هو أقواها.

وقد كرر القزويني في «التلخيص» ما ذكره السكاكي على نحو مختصر، وذكر تقسيمه من حيث طرفاه وفق الحسي والعقلي، ثم ذكر تقسيمه من حيث وجود أركانه ولاسيما وجود الأداة ووجه الشبه، وتلا ذلك تعدد أحد طرفي التشبيه، وختم الحديث عن التشبيه بالقول: إن أعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة هو التشبيه الذي يحذف فيه الأداة ووجه الشبه ويقصد التشبيه البليغ. ثم يذكر حذف أحد طرفي التشبيه أي الاستعارة، ويرى أنه لا قوة لغيرهما[٤٠].

وتكرر الحديث عن ذلك عند ابن حجة الحموي في «خزانة الأدب». وقد تناوله السيوطي أيضاً في «الإتقان في علوم القرآن» وذكر تقسيمات مشابهة لما ذكره سابقوه وقسمه باعتبار طرفيه إلى حسي وعقلي، وباعتبار وجه الشبه إلى مفرد ومركب. وما ينتج من ذلك من تقسيمات. وقد قسمه أيضاً باعتبار ما تقع عليه الحاسة ومالا تقع عليه. أما بالنظر إلى أركانه فجعله مؤكداً بحذف الأداة، ومرسلاً بحذف وجه الشبه،

---

٣٨ ــ المثل السائر ، ٢ : ص ١١٦ – ١٧٠.

٣٩ ــ مفتاح العلوم ، ص ٣٢٩ – ٣٤٩.

٤٠ ــ التلخيص في علوم البلاغة ، ص ٢٣٨– ٢٩١

وبليغاً بحذف الأداة ووجه الشبه، ومقلوباً عند عكس التشبيه أي بتشبيه الأقوى بالأضعف(٤١).

ولعل «الجناس» أو «التجنيس» من أهم الأنواع البديعية التي تشهد على كَلَفِ أصحاب البديع بالتقسيم والتفريع والغموض أيضاً ولاسيما في العصر المملوكي.

هو نوع بديعي قديم ألف فيه الأصمعي، وذكره ابن المعتز، ولم يخلُ ذكره من كتب البلاغة وإعجاز القرآن(٤٢) وعلى الرغم من أن هذا النوع البديعي يختص بالناحية الصوتية و الموسيقية للنص، ولا علاقة له بالناحية المعنوية، فإنه كان من أكثر الأنواع تعقيداً نظراً لكثرة تفريعاته واختلاف تسمياته يذكر ابن الأثير أن أهل البلاغة اختلفوا في التجنيس، في تسمياته وفي ترتيبه. ويرى أن التجنيس الحقيقي هو اللفظ المشترك لأن شرطه اتفاق اللفظ واختلاف المعنى. ويذكر أن بعضهم يجهل ذلك فأدخل في التجنيس ما ليس منه، ثم يذكر أنواعاً تشبه التجنيس(٤٣).

أما السكاكي فرأى أن الجناس هو تشابه الكلمتين في اللفظ ولم يشترط اختلاف المعنى، مما يوحي بأنه يمكن أن يدخل فيه التكرار اللفظي ورد العجز على الصدر. وأخذ السكاكي في ذكر أنواع الجناس الذي اختلف فيه اللفظان بحرف واحد، وعرض شواهد لموقع هذين الحرفين في أول اللفظين أو في وسطهما أو في آخرهما وغير ذلك، ثم ذكر ما يُلحق بالجناس(٤٤)، وقد أخذ عنه القزويني تعريف الجناس لكنه كان مختلفاً عنه في التقسيم والتفريع والتسميات، وأهم ما فعله القزويني أنه جعل الجناس التام ثلاثة أنواع هي: التام، والتام المماثل، والتام المستوفى.

ثم صنف بقية أنواع الجناس، وأخذ الملحق بالجناس عند السكاكي. لكن الاختلاف في التسميات جعل الأمر غامضاً على الرغم من أن نوع الجناس واحد(٤٥).

وفي «بديع القرآن»(٤٦) يرى ابن أبي الإصبع أن الجناس أصلان. جناس مزاوجة،

---

٤١ ــ خزانة الأدب، ص ١٨٣ – ١٨٩، الإتقان في علوم القرآن، ٣: ص١٤٢ – ١٤٨.

٤٢ ــ بديع القرآن ،ص ٢٧

٤٣ ــ المثل السائر، ١: ص٣٤٢ – ٣٦٠.

٤٤ ــ مفتاح العلوم، ص٤٢٩.

٤٥ ــ التلخيص في علوم البلاغة، ص ٣٨٨ – ٣٩٢.

٤٦ ــ بديع القرآن، ص٢٧ – ٣٠.

وجناس مناسبة، يتفرعان إلى عشرة فروع، منها ما هو لفظي ومنها ما هو معنوي.

وعنده تخلط أسماء الجناس ودلالاتها فمن ذلك ما يسميه جناس المزاوجة وهو من المعنوي، ويمثل لذلك بقوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»[٤٧] ويرى أن لفظ «سيئة»الثانية سميت سيئة للمزاوجة. كما يذكر جناس المناسبة وهو من اللفظي ومن أمثلته «فَأَقِمِ وَجهَك للدّين القَيِّمِ»[٤٨] وهذا الشاهد جعله السكاكي من الملحق بالجناس نظراً لاختلاف أصل الاشتقاق فيه. أما بقية الأنواع ففيها أسماء متماثلة لما ذكره الآخرون لكن بدلالات مختلفة.

وعلى الرغم من أن السيوطي قد أخذ كثيراً عن ابن أبي الإصبع فإنه في نوع «الجناس»[٤٩] يخالفه في التسميات و التعريف، فقد اشترط أن يكون الجناس تماثلاً في اللفظ واختلافاً في المعنى، ولا يجوز أن يكون أحد اللفظين حقيقة و الثاني مجازاً، فلابد أن يكون الجناس، إذاً، لفظاً مشتركاً. وهويكرر كثيراً من أنواع الجناس ويختمها بنوع يسميه تجنيس الإطلاق وهو أن يجتمع اللفظان في المشابهة ومن أمثلته: «وَجَنَى الجَنّتَينِ»[٥٠]«ولِيُرِيَهُ كَيفَ يُواري»[٥١]. وهذا النوع كما هو واضح ،هو الملحق بالجناس عند السكاكي و القزويني. وقد ذكر ابن حجة الحموي في «خزانة الأدب»أنواعاً مشابهة لما ذكره هؤلاء في موضوع الجناس، واختلفت عنده بعض التسميات لبعض أنواع الجناس، لكن ابن حجة الحموي انفرد في إدخال الجناس الذي هو تماثل صوتي يخدم موسيقا النص في غير مجاله، عندما أضاف أنواعاً من الجناس تتعلق بمعنى النص وليس بموسيقاه من ذلك ما أطلق عليه اسم «الجناس المعنوي»[٥٢] الذي يعرّفه بأنه إضمار ركني التجنيس، و المجيء بما يرادف المضمر للدلالة عليه.

وشاهده على هذا النوع قول ابن عبدون، وقد اصطبح بخمر ترك بعضها إلى الليل فصارت خلاً:

---

٤٧ ــ الشورى ، ٤٠.

٤٨ ــ الروم ، ٤٣.

٤٩ ــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣: ص ٣١٠ – ٣١٤.

٥٠ ــ الرحمن ، ٥٤.

٥١ ــ المائدة ، ٣١.

٥٢ ــ خزانة الأدب ،ص ٤١ – ٤٢.

أَلا في سبيلِ اللَّهوِ كَأسُ مُـــدامـــةٍ   أَتَتنا بطَعمٍ عَهدُهُ غَــيرُ ثـــابتِ

حكَت بِنتَ بِسَطامِ بنِ قَيسٍ صَبيحَةً   وَأمسَت كجسمِ الشّنفَرى بَعدَ ثابتِ

وكان اسم بنت بسطام الصهباء، والشنفرى قال:

فَاسقِنيها أَيَا سَوادَ بنَ عَمرو   إنّ جِسمي مِن بَعدِ خَالي لَخَلُّ

ويرى ابن حجة الحموي أن هناك جناسين مضمرين الأول بين الصهباء بمعنى الخمر، والصهباء بنت بسطام، والثاني وقع في «خل» بين الخلّ بمعنى المادة الحامضة، و الخل بمعنى الرقيق المهزول.

وقد ذكر الصفدي البيت الأول في معرض حديثه عن أبيات المعاني. وليس عن الجناس. لكنه يضيف أن بنت بسطام هي الصهباء. وذكر أيضاً بيت الشنفرى المذكور آنفاً[٥٣]، ولا يخفى أن هذا النوع من الجناس يتجاوز الألغاز والأحاجي في غموضها، ولاشك في أنه من صنع أدباء قد تفرغوا لمثل هذه الأمور التي تدخل النص الأدبي في غموض يصعب إيضاحه.

ولم يكتف ابن حجة بذلك، بل ذكر نوعاً آخر من الجناس وهو ما يسميه «جناس الإشارة»[٥٤] ويعرفه بأنه محاولة الناظم أن يجانس بين لفظين، فلا يوافقه الوزن فيلجأ إلى مرادف للفظ الأول. وشاهد هذا النوع هو قول امرأة من عقيل أراد قومها الرحيل:

فَمَا مَكَثنا، دَامَ الجَمالُ عَلَيكُما   بِثَهلانَ إلا أَن تُشَدَّ الأَباعِرُ

أرادت أن تجانس بين الجَمال والجِمال، فأرغمها الوزن والروي على ذكرالأباعر بدل الجِمال.

ويضيف ابن حجة نوعاً ثالثاً وهو «جناس الكناية»[٥٥] ويمثل لذلك بقول أحدهم:

وَتَحتَ البَراقِعِ مَقلوبُها   تَدُبُّ على وَردِ تِلكَ الخُدود

فكنى عن العقاربِ بمقلوبها التي هي البراقع .

٥٣ ــ الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، ٢: ص ٣٧٢ .

٥٤ ــ خزانة الأدب ، ص٤١ – ٤٢.

٥٥ ــ المصدر السابق ،ص ٤١ – ٤٢.

الخاتمة والاستنتاجات:

وهكذا نجد أن كلف أصحاب البديع بالتفريع والتقسيم وإطلاق الأسماء وابتكار الأنواع البديعية قد أخرج علم البلاغة، ولاسيما علم البديع، عن مساره، وأضحى ميداناً معقدا ًغامضاً. ولو اكتفى هؤلاء بجعل الجناس تماثلاً صوتياً، أو لو اكتفوا بنوع الجناس التام في اللفظ المشترك وكل ما خالف ذلك سمي جناساً ناقصاً، ولو اكتفوا بدراسة التورية من حيث المغالطة المعنوية أو الإيهام، ولو اقتصر أمر الاستعارة على ما جاء به الجرجاني من حيث تأثيرها في النص، وكذلك بالنسبة للتشبيه، لوفر ذلك على الباحثين كثيراً من العناء والجهد.

المصادر و المراجع :

١ــ ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، مصر، ١٣٧٧ هــ ــ ١٩٥٧ م.

٢ــ ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الطبعة الأولى، مطبعة نهضة مصر، مصر، ١٣٧٩ هــ ــ ١٩٥٩ م.

٣ــ ابن حجة الحموي، تقي الدين، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث للطباعة و النشر، بيروت، من غير رقم طبعة ولا تاريخ .

٤ــ ابن خلكان، شمس الدين، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ .

٥ــ ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، بلا تاريخ.

٦ــ الحلي، صفي الدين، الديوان، دار صادر، بيروت.

٧ــ السكاكي، يوسف، مفتاح العلوم، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هــ ــ ١٩٨٧ م .

٨ــ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، منشورات الرضى، زاهدي، من غير تاريخ ولا طبعة.

٩ــ الصفدي، صلاح الدين، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥ هــ ــ ١٩٧٥ م.

"المنهج السيميائي: آلية مقاربة الخطاب الشعري الحديث وإشكالياته"

د. محمد خاقاني* ود. رضا عامر**

الملّــخص:

عرف المنهج السيميائي في العقود الأخيرة من القرن العشرين تحولات عدة في التعاطي مع الخطاب الشعري الحديث على وجه الخصوص، هذا ما أثار العديد من الإشكالات في كيفية مقاربة النص الأدبي مقاربة واعية على مستوى الأدوات الإجرائية، أوعلى مستوى التأويل واستنطاق النص بشكل لا يفسد دلالة المعاني الحقيقية للبنى العميقة، ومن هنا يعدّ نقد "الخطاب الشعري الحديث والمعاصر" من القضايا النقدية المهمّة التي تناولها نقادنا المحدثون، في ظل المنهج السيميائي الممارس في تحليل علامات هذه النصوص دون المساس بهويتها العربية بلا إفراط أو تفريط.

والتحليل المقترح، لا يتوقف عند الإحالات إلى المعارف والعلوم المختلفة، وكذا لا ينتهي عند دلالة معينة، بل يفتح النص على سيل من المعارف المتنوّعة، لأنه بالغ التنوّع والتعدد، ويحيل إلى معارف وإيديولوجيات مختلفة، ولهذا فإن التحليل السيميائي يستوعب كل هذا ويضعه ضمن استراتيجياته. لقد أصبحت المقاربات النصّانية منهج بحث نقدي، ونظرية علمية تطرح العديد من التصورات والرؤى المنهجية والإجرائية في تناول النص العربي الحديث على مستوى التنظير أو الممارسة التطبيقية، والتي لا يمكن الاستغناء عنها، خاصة أثناء التحليل.

وعليه تكشف هذه المداخلة عن أهمية المنهج "السيميائي" في مقاربة النص العربي الحديث، وأهم المشاكل التي يشكو منها الخطاب الشعري الحديث خاصة من خلط بين النقاد في تناول الظاهرة الأدبية، وطرق وأساليب التحليل التي تبقى محتشمة على مستوى الأدوات الإجرائية، أو على مستوى التأويل الصحيح في استنطاق النص.

الكلمات المفتاحية: السيميائية، النقد الأدبي، الأدب العربي الحديث

* أستاذ مشارک في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان

** أستاذ مشارک في قسم اللّغة العربية وآدابها، المركز الجامعي– ميلة، الجزائر

مدخـــــل

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مناقشة موضوع إشكالية البحث عن المنهج المناسب فـي الممارسة النقدية السليمة التي تعالج النص الأدبي بحذر شديد. ولمّا كـان عـدد كبيـر مـن الدراسات النقدية والمشاريع العلمية تدّعي المنهجية في التعامل مع الإشكالية مجال الدراسـة، دون وعي أصحابها بدور النصوص في تطوّر أفكار المنهج ، حيـث تتبنـى معظـم هـذه الدراسات نسقًا شكليًّا معينًا تظن معه بممارساتها أنها بلغت حدّ المنهجية ؛ فإن النتيجـة هـي وجود حالة من الضبابية الفكرية ــ إذا جاز التعبيرــ يتم فيها تسطيح الأفكـار والانحـراف بالإشكاليات ــ بقصد أو بدون قصد ــ إلى عالم من سوء الفهم الذي يؤدي إلى صعوبة فهـم الموضوع.

ولأنّ الباحثين يعتقدان أنّ التفكير بالمنهج للوصول إلى الفكر المنهجي فـي الدراسـات النقدية العربية، يتطلّب جهودًا بحثية جماعية مركبة يتم فيها الاهتمام بالفكر وزيـادة الـوعي بإشكالياته، كما يتم فيها الاهتمام بالممارسة الأكاديمية التي يفترض أنهـا تتـرجم، بشـكل أو بآخر، الفكر المنهجي السائد؛ فإن محاولتنا الراهنة تطمح إلى معالجة الإشكالية فـي إطارهـا المعرفي العام، وفي سياقها الأدبي الخاص، لمساءلة التطور المعرفي الذي طرأ على المناهج النقدية العربية من خلال تتبع المنهج السيميائي أثناء مساءلة النصوص الشعرية الحديثة مـن أجل فهم معانيها ودلالاتها، وعليه نعثرعلى العديد من السيميائيين الذين لا يمكنهم الاسـتغناء عن علم العلامات لما أظهره من نجاعة في التحليل وكفاءة عالية في التشريح للبنى العميقـة في شتى التخصصات النقدية الحديثـة،ومختلف المعـارف الإنسـانية. إذا مـا هـي السيميولوجيا؟ وما هي مشاربها التاريخية، واتجاهاتها المختلفة؟

تكشف هذه المداخلة عن أهمية المناهج النقدية النصيّة، خاصة السيميائية منهـا؛ في مساءلة الخطاب الشعري الحديث وتعداد المشاكل المنهجية والفلسفية والمعرفيـة التي تصادف المحلّل السيميائي أثناء تعامله مع الظاهرة الأدبية التي تبقـى عصـية أثناء المسح العلاماتي للبنى العميقة للنص المستنطق خاصة علـى مسـتوى آليـات التحليل أو على مستوى التأويل الصحيح في استنطاق الدلالات العميقة للبنية النصية على اعتبار أنّ النص الشعري الحديث صعب المراس لما فيه من بنيـات مفتوحـة تحتاج إلى ناقد صاحب تجربة وممارسة نقدية واعية في تفكيـك شـفرات الـنص وعلاماته الغامضة.

المحور الأول: الجذور التاريخية للمنهج السيميائي

يكاد يجمع الدّارسون على أنّ الإرهاصات الأولى لعلم السيمياء تعود إلى الحضارة الإغريقية القديمة، إذ يمكن العثور على إشارات داخل الموروث الفكريّ الذي خلّفه اليونان منذ القدم، تلك الإشارات التي يلتقي بعضها مع الكثير من الأفكار التي قالت بها السيمياء الحديثة. وأهمّ ما يمكن إيراده في هذا المجال هو تلك الجهود التي قام بها الرّواقيون الذين عُدُّوا بحقّ السّباقين في اعتبار العلامة تحتوي دالا ومدلولا، كما يذهب إلى ذلك "أنبرتو إيكو"[١]، ولعلّ هذا التقسيم الذي حُفظ عن الرواقيين كان هو الأرضية الفكرية التي انطلقت منها السيمياء الحديثة ممثّلة في فارديناند دي سوسير[٢] الذي أعاد الاعتبار لهذا التصوّر من خلال تفريقه بين مصطلحي الدّال والمدلول، كما سنرى في أثناء الحديث عن إسهامه في التّأسيس لعلم السيمياء الحديث، فنلمس –حينها– مدى المشابهة الواقعة بين جهود سوسير، وما قال به الرّواقيون القدماء، مع اختلاف بينهم في الشيوع والتّأثير في من جاء بعدهم.

أمّا المرحلة الثانية في تاريخ السيميائيات القديمة كما يقرّره عزّ الدين المناصرة، فهي تلك المحاولة التي قام بها القديس أوغسطين[٣] حول تشكيل نظرية تأويلية يتمّ تطبيقها على النصوص المقدسة، ثم يختفي مصطلح السيميائية مدة طويلة ولا يظهر إلا في دراسة الفيلسوف الإنجليزي جون لوك[٤](١٦٣٢-١٧٠٤) باسم «Sémiotiké، وبدلالة جدّ متشابهة لتلك التي قدمتها الفلسفة اليونانية الأفلاطونية»[٥].

أمّا المرحلة الثالثة التي يتوقّف عندها عزّ الدين مناصرة بعد هذا فهي مرحلة العصور الوسطى التي لا نعثر فيها على الشيء الكثير، ثمّ تجيء بعدها المرحلة الرابعة والتي بدأت تتشكّل فيها نظريّة العلامات والإشارات خلال القرن التاسع عشر؛ فنأتي على ذكر جهود الفيلسوف الألماني جون لوك" [٦] الذي استخدم مصطلح سيميوطيقا "Semiotics"، وهو ـــ عنده ـــ علم يهتمّ بطبيعة الدّلائل التي يستعملها

1- Anberto Iko
2 -Ferdinand De Saussure
3- Agusteen
4 -John Loke
٥ ـــ توسان،١٩٩٤، ص٣٧
6- Jhonn-Loukh

العقل البشري في أثناء العملية الإدراكية. ونجد من بين الدارسين الآخرين الذين أكّدوا ـ بدورهم ـ أصالة التفكير العلامي وتجذّره عند مختلف الشعوب القديمة الباحث جان ماري سشايفر(٧) الذي يرى أنّ ما وصلنا من تصوّرات وتأمّلات حول الظاهرة اللّسانيّة تضمّنت العديد من المفاهيم الدلالية.

ويمكن أن نوجز هذه المحطّات السّيميائيّة التي توقّف عندها سشايفر في أثناء حديثه عن تاريخ هذا العلم في النّقاط الآتية:

١ـ جهود كلّ من أفلاطون وأرسطو في هذا المجال.

٢ـ جهود السفسطائيين.

٣ـ جهود القدّيس سانت أوغسطين، خاصّة في مجال تفريقه بين العلامات الطبيعيّة والعلامات التواضعية، وتمييزه بين وظيفة العلامات عند الحيوانات والبشر.

٤ـ الجهود التي قام بها الموديّون ، بخاصّة فيما يتعلق بأفكارهم اللّسانيّة التي كان لها حمولة علامية.

٥ـ جهود الفيلسوف الإسباني جوناسي بوانسوت(٨)، وخاصة ما جاء في كتابه"فنّ المنطق" الذي ميّز فيه بين التمثيل والمعنى.

٦ـ إسهام جان لوك الذي يقترح مصطلح العلاماتية أو السيميائية بوصفه معرفة بالعلامات.

٧ـ جهود بيرس(٩) كمحطّة أخيرة تشكّلت معها معالم هذا العلم بوضوح أكبر.

ولا تختلف هذه المحطّات التي توقّف عندها سشايفر عن سابقتها التي قدّمها الدارس عزّ الدين المناصرة مع زيادة ضئيلة عند الثّاني على أنّ كليهما أجلى حقيقة أصالة هذا العلم وقِدَمِه في الفكر الغربيّ.

أهمّ الاتجاهات السيميائية الغربية الحديثة:

سيمويولوجيا سوسير:

كان فرديناند دوسوسير(١٠) ومازال واحدا من أبرز أعلام البحث اللغويّ واللّساني في تاريخ البشريّة جمعاء لكونه صاحب أهمّ ثورة لغوية شهدها العصر الحديث، ثورة

7- J.M. Shypher
8- Jonnais
9- Pierce
10- Ferdinand De Saussure

انطلقت بعدها دراسات لغوية لسانية جادة لا تزال قائمة إلى يومنا، تدين في أغلبها لفكر وأبحاث هذا الرجل، وكلّ ذلك لم يجعل منه مؤسّسا لمدرسة مهمة هي ما يسمى بمدرسة جونيف[١١] بل مؤسّسا لعصر بأكمله من الدرس اللساني.

ومع ظهور كتابه "دروس في الألسنية العامة"، تلقّت علوم اللغة واللسان دفقا جديدا نحو الترّسّخ والشمول. فأمام سيطرة الدراسات التاريخية والمعيارية للظاهرة اللغوية في الماضي أراد سوسير توجيه الأنظار إلى نوع آخر من الدراسة هي الدراسة الآنية الوصفية للظاهرة اللغوية ومن أهم المقولات التي جاء بها سوسير في اللغة هو اعتبارها نظاما من الإشارات يعبر بها بني البشر عمّا يدور في أذهانهم من أفكار وأحاسيس ومشاعر، مثلها في ذلك مثل باقي الأشكال الإشارية الأخرى.

بيد أنّ سوسير، يكفيه من خلال ما قدّمه، أن يتنبأ بعلم السيمياء دون أن يعمد إلى تحديد الأطر العامة التي يقوم عليها هذا العلم، ولعلّ مردّ ذلك أنّه في هذه المرحلة من البحث كان حريصا بصفة خاصة على تحديد اللسانيات العامة، وبالأحرى موضوع اللسانيات،ومن هنا جعل "دي سوسير" اللغة «نظاما من العلامات، تعبر عن الأفكار، مثلها مثل أنظمة أخرى تشبهها، كأبجدية الصم، والإشارات العسكرية، وغيرها، ولكن اللغة هي أهم هذه الأنظمة العلاماتية»[١٢]، ويمكن وصفها نسقا من العلامات.

لقد رفض "دي سوسير" الفكرة التي ترى أن اللغة هي كومة من الكلمات المتراكمة تدريجيا عبر الزمن، تؤدي وظيفة الإشارة إلى الأشياء في العلم، فالعلامة عنده مركبة من طرفين متصلين يمثلان «كيانا ثنائي المبنى، يتكون من وجهين يشبهان وجهي العملة النقدية، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر»[١٣]، فالطرف الأول هو إشارة مكتوبة أو منطوقة، وهي "الدال, signifiant" أي الصورة الصوتية للمسمى، والطرف الثاني هو "المدلول، signifié" أو المفهوم الذي نعقله من الإشارة لها. ويمكن« تمثيل الفكرة»[١٤] كالآتي:

- ما يقبله دي سوسير: العلامة = الدال /المدلول

العلامة = **الدال** / **لمدلول**

11- Jeneve

١٢ ــ توسان،١٩٩٤، ص١٤

13-Saussure,1973:108

١٤ ــ خلف،٢٠٠٣،ص٢٢

هكذا نصل إلى تحديد مفهوم العلامة «Signe» بأنها ذلك الكل المركب من الدال والمدلول ويمكن توضيح ذلك بيانيا:

إشارة مكتوبة أو منطوقة (مسموعة) : Image

العلامة (Signe)

مفهوم التصور الذهنى: Concept

ومن ثم فإنّ العلامة أو الدليل عند سوسير «وحدة نفسية ذات وجهين مرتبطين ارتباطا وثيقا ويتطلب أحدهما الآخر»[١٥]، وعند عملية الجمع بين ــ الدال والمدلول ــ يتكون المعنى اللغوي، هذا وإنّ «العلامة لدى سوسير، قائمة على الدال والمدلول، مع إقصاء المرجع والعلاقة الموجودة بينهما اعتباطية»[١٦]، وهذا نجده بشكل واضح في بعض العلامات المحاكية للطبيعة (conomtopées)«كمواء القط، وخرير المياه»[١٧].

وتعدّ فكرة إهمال المرجع أو المشار إليه فكرة يكتنفها الغموض في علاقة الدال بالمدلول، إلى أن جاء "أوجدان وريتشاردز"[١٨]، وأكّدا على فكرة المشار إليه في كتابهما "معنى المعنى"، فالرمز يقابل الدال عند دي سوسير، و الفكرة تقابل المدلول، أما المشار إليه فلا وجود له عند سوسير، وعليه تتنوع العلامات تبعا لتنوع المعارف الإنسانية، من ألفاظ وإشارات، ورموز، وآثار وإيماءات جعلت العلامة تنقسم إلى علامة لسانية، وأخرى غير لسانية، مما دفع بالنقاد إلى خوض غمار هذا العلم ، ومن خلال البحث في أغواره، فإننا سنكون على أبواب مؤسس آخر للسيمياء، اختار لها اسم السيميوطيقا.

سيميوطيقا بـــيرس:

إذا كان بعض الدارسين يذهب إلى أنّ دي سوسير أوّل من بشّر بعلم السيمياء الحديث حين قال أنّه من الممكن أن نتصوّر علما يدرس حياة الدّلائل في صلب الحياة الإجتماعية فإنّ الكثير منـــهم يرى أنّ المنـــشئ الأوّل والأب الشرعـــيّ لهذا العلم هو

١٥ ــ خلف، ٢٠٠٣، ص٢٤

١٦ ــ حمداوي، ١٩٩٧، ص٨٨

١٧ ــ ابراهيم، ٢٠٠٤، ص٧٦

18- Ugdan & Richard

المنطقيّ الأمريكيّ شارل ساندرس بيرس"[١٩]، وإن كان سوسير ينطلق في تصوّره لعلم السيمياء من خلفية لسانية لغوية، فإنّ تصوّر بيرس لهذا العلم يقوم ــ أساسا ــ على المنطق والذي يراه مرادفا للسيمياء، ومنطق بيرس هو منطق العلاقات، ولا يسمح المنطق الشكلي كما تصوره هذا العالم إلا بدراسة البنيات المحمولة من نوع "الموضوع محمول" ويحتوي هذا الشكل في جوهره على موضوع يكمن دوره في تعيين الشيء أو الأشياء المتحدث عنها، ويحتوي على محمول يعبر عن خاصية الشيء أو الأشياء، ويحتوي هذا الفعل الذي ليس له أي دور سوى ربط الموضوع بالمحمول، وهو يعد كرابطة "copule".

ومن هنا يصبح البحث في مجال السيميولوجيا بحثا هاما تحتاج إليه كلّ مناحي المعرفة. يقول بيرس: «ليس باستطاعتي أن أدرس كل شيء في هذا الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن وعلم النفس وعلم الأصوات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم والكلام والسكوت والرجال والنساء وعلم القياس والموازين إلا على أساس أنه نظام سيميولوجي»[٢٠] ، ومنه اتّصف الدرس السيميائي عند بيرس بالشمول والتنوع لتنوّع المعارف والمواضيع المدروسة.

ومن أهمّ ما جاء به بيرس في نظريّته السيميائية هو تلك التقسيمات النظرية حول المنظومة الدلالية، ومنها ما عمد إليه حسب تصوّره الخاص إلى تقسيم العلامة أو الدليل إلى ثلاثة أقسام، يعرض إليها الدارس حنّون مبارك على النحو الآتي:

١ــ الممثِّل: الدليل باعتباره دليلا

٢ــ الموضوع: وهو ما يعنيه الدليل أو هو المعنى

٣ــ المؤوّل: وهو ما يجعل الدليل يحيل على موضوعه

ويعرض الدارس عادل فاخوري للتقسيم نفسه الذي قدّمه حنون مبارك على اختلاف طفيف في البنية الاصطلاحية بينهما؛ وذلك حين يؤكّد على أنّ العلامة التي هي نموذج للمقولة الثلاثية تشكّل ــ إذن ــ من حيث الكنه علاقة ثلاثية بين ثلاثة أركان يطلق عليها بيرس أسماء العلامة بحدّ ذاتها، الموضوع، التعبير.

19 - Charles-Senders-Pierce

٢٠ ــ الواعر، ١٩٨٨، ص ١١

ومنه نجد أن مصطلح الممثل أو الذي يسميه بيرس العلامة بحدّ ذاتها يقابل مصطلح "الدال" عند سوسير، بينما يقابل مصطلح الموضوع عنده مصطلح "المدلول" عند سوسير ويتجاوز بيرس المقولة السوسيرية من خلال مصطلح التعبير أو المؤول، فلا وجود لهما في الطرح السوسيري، وتأسيسا على ما سبق نستطيع القول: إنّ بيرس في أثناء دراسة العلامة ــ كما يرى الدارس عدنان بن ذريل ــ راعى عاملين هامّين هما:

أ. عامل الطابع الطبيعي أو الاصطلاحي لها.

ب. عامل التفسير لها؛ أي فهمها من قبل المتعامل معها.

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذا التقسيم الهام تقسيما ثلاثيا آخر جاء به بيرس حول طبيعة العلامة لا يقل أهمّية عن سابقه، ويقوم هذا التقسيم على وصف العلاقة القائمة بين الدال ومدلوله، ومن المتاح لنا عرض هذا التقسيم على النحو الآتي:

١.**الإشارة:** تكون العلاقة فيها بين الدال والمدلول علاقة تجاورية في المكان، وهي ذات طابع بصري في مجملها، ومثل ذلك السهم الذي يشير إلى مكان معيّن أو حركة الأصبع وغيرها.

٢.**الأيقونة:** تكون العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول ــ في هذا القسم ــ علاقة تشابه، فتكون الأيقونة بهذا: شيء يؤدّي عمله ووظيفته كعلامة انطلاقا من سمات ذاتية تشبه المرجع أو المشار إليه، وهي بهذا صورة تحيل إلى متصور تكون العلاقة فيهما علاقة مشابهة، ومنه فالعلامة الأيقونية تُفهم من خلال فهم نظيرها المشابه لها، وذلك كعلامات المرور والصور الفوتوغرافية والخرائط وغيرها.

٣.**الرمز:** ومثاله الأوّل هو العلامة اللغوية كما تصوّرها سوسير من قبل، وإن كانت العلاقة بين الدال والمدلول تقوم على التجاور المكاني في الإشارة، وعلى التشابه في الأيقونة، فإنّ العلاقة التي تربط بين طرفي العلامة في الرمز هي علاقة محض عرفية وغير معلّلة، فلا يوجد بينهما تشابه، أو صلة فيزيقية، أو علاقة تجاور.

ولقد كان هذا التقسيم الثلاثي للعلامة أهمّ فارق تجاوز به بيرس مفهوم العلامة عند سوسير؛ ذلك أنّه لم يقتصر ــ في أثناء تصنيفاته ــ على العلامة اللغوية كما فعل سوسير، بل وسّع مجال العلامة ليشمل كلّ ما هو لغوي وغير لغوي كما لمسناه سالفا. ومن كل ما سبق ذكره بعد طرح سيميولوجيا "دي سوسير" وسيميوطيقا" بيرس نجد أن

اتجاهات السيميوطيقا تتوسع؛ فـــ "محمد مفتاح" يفرغ النظريات اللسانية على التيار التداولي والتيار السيميائي والتيار الشعري، أما بيير جيرو فيحدد ثلاث وظائف أساسية للسيميولوجيا هي «وظيفية منطقية واجتماعية وجمالية»(٢١)، كما أن الناقد"مبارك حنون" ، قد صنــفها إلـــى عدّة اتجاهات منها «سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة وتصور سوسير للسيميولوجيا، سيميوطيقا بيرس(٢٢)، ورمزية كاسيرار(٢٣) وسيميوطيقا الثقافة»(٢٤)، بينما نجد "محمد السرغيني" يحدد ثلاث اتجاهات أساسية هي: «الاتجاه الأمريكي، الاتجاه الفرنسي والاتجاه الروسي»(٢٥) بالإضافة إلى هؤلاء جميعا نجد "عواد علي" الذي يحصرها في ثلاث اتجاهات أيضا هي: سيمياء التواصل، سيمياء الدلالة، سيمياء الثقافة.

وهذا ما يجعل من «السيميائية سيميائيات لها فروع ولها انشقاقات، ولهذه الاتجاهات مؤسسون وأنصار»(٢٦) كما سلف ذكره، حيث نجد أشهرها اتجاهات ثلاثة هي: أ ــ سيمياء التواصل ب ــ سيمياء الدلالة ج ــ سيمياء الثقافة، وكما سبق فقد أسهمت جميع هذه الاتجاهات في تيسير السبل لقراءات متعددة وأصلية للنصوص الأدبية طلبا للغائب من مفاهيمها واستجلاء للغامض من علاماتها.

تلكم باختصار لمحة عن المنهج السيميائي الذي تبلور في البيئة الثقافية الغربية، واستطاع ــ نتيجة لاعتبارات عدة ــ أن يقتحم عددا من الثقافات، ومنها الثقافة العربية التي استوردت في فترة من الفترات هذا المنهج ووظفته في معالجة الظاهرة الأدبية.

إنّ عملية انفتاح النص على القراءات المتجددة، وقدرته على البوح بأسرار جديدة تخص بناءه الإبداعي، تعتمد على أنّ النص«لا يحمل في ذاته دلالة جاهزة ونهائية، بل هو فضاء دلالي وإمكاني تأويلي، ولذا فهو لا ينفصل عن قارئه ولا يتحقق من دون مساهمة القارئ، فكل قراءة تحقق إمكانا دلاليا لم يتحقق من قبل، كـــل قراءة هي

---

٢١ ــ حمداوي، ١٩٩٧، ص٨٣

22- Pierce
23- Cassirer

٢٤ ــ نفس المصدر، ص٨٣

٢٥ ــ نفس المصدر، ص٨٣

٢٦ ــ آريفيه،٢٠٠٢،ص ٣١

اكتشاف جديد»(٢٧).

المحورالثاني: إشكالية مقاربة الخطاب الشعري الحديث سيميائيا

يرى النقد النصّي أنّ أهم إشكال في عملية مقاربة النص الأدبي الحديث هو انعدام المشاركة الفعالة بين النص الذي ألفه المبدع والقارئ المتلقي، أي إنّ الفهم الحقيقي للأدب ينطلق من تموقع القارئ في مكانه الحقيقي وإعادة الاعتبار له باعتباره هو المرسل إليه والمستقبل للنص ومستهلكه وهو كذلك القارئ الحقيقي له: تلذذا ونقدا وتفاعلا وحوارا،ويعني هذا أن العمل الأدبي لا تكتمل حياته وحركته الإبداعية إلا عن طريق القراءة وإعادة الإنتاج من جديد؛ لأن المؤلف ماهو إلا قارئ للأعمال السابقة وهذا ما يجعل التناص يلغي أبوة النصوص ومالكيتها الأصليين.

وعليه نجد الناقد "أيزر"(٢٨) يؤكّد على أنّ العمل الأدبي له قطبان: قطب فني وقطب جمالي، فالقطب الفني يكمن في النص الذي يخلقه المؤلف من خلال البناء اللغوي وتسييجه بالدلالات والتيمات المضمونية قصد تبليغ القارئ بحمولات النص المعرفية والإيديولوجية، أي إن القطب الفني يحمل معنى ودلالة وبناء شكليا، أما القطب الجمالي، فيكمن في عملية القراءة التي تخرج النص من حالته المجردة إلى حالته الملموسة، أي يتحقق بصريا وذهنيا عبر استيعاب النص وفهمه وتأويله، ويقوم التأويل بدور مهم في استخلاص صورة المعنى المتخيل عبر سبر أغوار النص واستكناه دلالاته والبحث عن المعاني الخفية والواضحة عبر ملء البياضات والفراغات للحصول على مقصود النص وتأويله انطلاقا من تجربة القارئ الخيالية والواقعية، ويجعل التأويل من القراءة فعلا حدثيا نسبيا لا يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة أو الوحيدة المتعالية عن الزمان والمكان.

ولا يكون العمل الإبداعي إلا من خلال المشاركة التواصلية الفعالة بين المؤلف والنص والجمهور القارئ، ويدل هذا على أن العمل الإبداعي يتكون من عنصرين أساسين: النص الذي قوامه المعنى وهو يشكل أيضا تجربة الكاتب الواقعية والخيالية، والقارئ الذي يتقبل آثار النص سواء أكانت إيجابية أم سلبية في شكل استجابات

---

٢٧ ــ جيرو، ١٩٨٨، ص٥٠

28- Ayzer

شعورية ونفسية،حيث يقول "ياوس"[٢٩] في هذا الصدد:« إذا أردنا كتابة تاريخ أدبي جديد، من خلال رسم يعيد تكوينه انطلاقا من بقايا الأعمال والتفرعات التاريخية، والتأويلات، ودعاوي التواصل الأدبي المتخفاة تحته، علينا أن نسارع إلى تاريخ التجربة الجمالية ونظريتها، وتظهر لي ضرورة كل هذا لأنه يمنحنا (الجسر الهرمنوتيكي) لبلوغ حقب بعيدة في الزمان وفي الثقافات الأجنبية ذات التقليد الأوربي»[٣٠].

ويشير "أيزر" أيضا إلى مدى أهمية إعادة تاريخ الأدب الأوربي اعتمادا على شهادات القراء ورصد ردود قراءاتهم وأذواقهم الجمالية أثناء تفاعل ماهو شعوري مع ماهو لفظي (النص): «كيف يتم استقبال النص الأدبي من طرف جمهور معين؟ عن الأحكام الصادرة عن الآثار الأدبية تعكس بعض وجهات النظر وبعض الضوابط السائرة بين الجمهور المعاصر مما يجعل الدليل الثقافي المرتبط بهذه الأحكام، يمارس تأمله داخل الأدب، وهذا أيضا صحيح حين يعمد تاريخ التلقي إلى شهادات القراء الذين يطلقون، عبر فترات مختلفة من الزمن، أحكاما على أثر معين،وفي هذه الحالة، يكشف تاريخ التلقي الضوابط التي توجه هذه الأحكام مما يشكل نقطة انطلاق لتاريخ الذوق»[٣١].

وعليه، فإنّ عملية نقد العمل الأدبي قد يراعي فيها أفق توقع القارئ عندما يستجيب لمعاييره الفنية والجمالية والأجناسية عبر عمليات المشابهة النصية والمعرفة الخلفية وقواعد الأجناس والأنواع الأدبية التي تعرفها في نظرية الأدب، ولكن قد يخيب توقعه ويفاجأ إذا واجه نصا حداثيا جديدا لم ينسجم مع القواعد التي يتسلح بها في مقاربة النص الأدبي.

فعندما نقرأ الروايات الكلاسيكية فإنها تراعي أفق انتظار القارئ الذي تعود على قراءتها من خلال معايير وآليات تجنيسية وتحليلية معروفة، بيد أنه إذا أعطيت لهذا القارئ الكلاسيكي رواية حداثية فإنها ستصدمه، وتشلّ تفكيره، ومن هنا كان لزاما على متلقي النص الشعري الحديث في ضوء المناهج النصيّة كالبـنيوية والأسلوبـية

29- Yaus

٣٠ ـــ يوس، د.ت، ص١١٢

٣١ ـــ آيزر،١٩٨٧،صص٢٩،٢٨

والتفكيكية والسيميائية والتداولية أن يراعي انحرافات النص الحداثي وفق الأطر والآليات التي تحلل النص تحليلا لايتعارض مع مضمونه ويحاول مقاربته حداثيا وفق المنهج الذي يراه مناسبا لعملية التأويل والتفكيك لمختلف شفراته اللّغوية.

آلية مقاربة النص الشعري الحديث سيميائيا:

لقد نشأت في ذهن المتلقي للعمل الإبداعي الشعري الحديث، إيحاءات النصوص وعناوينها، وأبعادها الفكرية المؤسسة « انفعاليا، أو أسلوبيا، أو حتى إيديولوجيا بحيث لا يبدأ المتلقي تلقي النص أو في قراءة العمل المبدع من نقطة الصفر، وإنما يبدأ مما يؤسسالعنوان من معرفة أو إيحاء»[٣٢]، وهكذا بدأت نصوص المؤلفين المعاصرين في ظلّ المناهج النصيّة يعلوها طابع الغموض والرمزية، والنزوع إلى الصياغة الأسطورية، وهذا ما يؤكده القول التالي الذي يرى « أنّ الشعر لم يكن في يوم من الأيام أقرب إلى روح الأسطورة منه في الوقت الحاضر»[٣٣] وهذا إما تمويها أو تضليلا للمتلقي حتى لا يصادر الإنتاج أو يعرض صاحبه إلى الملاحقات السياسية أو المتابعات القضائية، كل هذا جعل المبدع يتحرى الحذر في إصداراته الفكرية خاصة الشعرية منها؛ فلغة الشعر تختلف عن لغة الاستعمال العادي وهذا ما أشار إليه "ميشال ريفاتير"[٣٤] في قوله:« إن الشعر يعبر عن مفاهيم وأشياء تعبيرا غير مباشر وباختصار،إن القصيدة تقول شيئا وتعني شيئا آخر»[٣٥] لذا فان قراءة النص الشعري الحديث تتطلب منا استنتاجا صحيحا لمعنى القصيدة، وهذا لا يتأتي إلا بالفحص الدقيق للكلمات التي تتكون منها.

وممّا لا شك فيه أن شعرنا العربي قد تطور منذ بداية عصر النهضة في شكله ومضمونه إلى نهاية عصرنا المعاصر شكلا ومضمونا، « فليس من مقارنة ممكنة بين ما نقرأه لقرائنا المعاصرين وما نقرأه في شعرنا القديم، فالقضايا غير القضايا، والدوافع لقول الشعر مختلفة والأهداف متباينة»[٣٦]؛ هذا ما يجعل من الشـــعر العربي

٣٢ ـــ قطوس، ٢٠٠١، ص ٦٠.

٣٣ ـــ فانون، ١٩٩١، ص ٥٧.

34- Michel Rivateer

٣٥ ـــ ريفاتير، ١٩٩٧، ص ٧.

٣٦ ـــ مصايف، ١٩٨١، ص ٧١.

الحديث يرتقي في شكله ومضمونه من جانب الغموض والتصوير الفني والجمالي للصور والمشاهد التعبيرية للنص الذي «يتشكل ويتكيف حسب أهمية الإبداع ومتطلبات المبدع التي ترسم دروب مساره تدريجيا كما أن الطبيعة الإبداعية للفنان تتأثر بالاتجاهات الأخلاقية والدينية والسياسية والعلمية، والتعاليم الاجتماعية السائدة في المجتمع»[٣٧].

وهكذا تتنوع العناوين الشعرية ومضامينها من مبدع لآخر، ومن عمل لآخر لتعكس ثنائية التفاعل بين النص والناص«فالقصيدة هي نتيجة تفاعل بين الشاعر وواقعه، والشاعر إذ يعيش تجربته الجمالية مستغرقا، فإنه يكون محملا بكل ما في عصره، وواقعه، وكل ما يتصل به من مؤثرات تتفاعل معه لتنتج قصيدة ذات صياغة فنية محكمةوتولد لحظة جمالية فائقة التركيز»[٣٨]، وهذا ما نجده ينطبق شكلا ومضمونا على النصوص الشعرية الاستفزازية التي تسم قضايا الأدب المعاصر، وإخفاقات الشاعر أو اتجاهاته عبر صيرورة إبداعه الفني. وقد تفطن المبدع العربي المعاصر إلى أهمية العنوان التأويلية وجودته، فجعله ذلك يدقق وينقح عناوين دواوينه ونصوصه الشعرية ويخرجها من دائرة التقليد إلى دائرة الحيرة والتساؤل؛ لذلك قيل إنّ «العنوان الجميل هو بمثابة الوسيط الحقيقي للكتاب ويجعله سريع الرواج»[٣٩].

ولعلّ النص الشعري الحديث يتمحور في ثلاثية، هي:"بؤرة العنوان/الفاتحة النصية/الخاتمة النصية"والتي تحيط بعتبة النص، وتعطيه صورته الحديثة التي عكست التجارب العديدة في إخراج النصوص في أتم نضجها الفكري. لهذا فـ«القصيدة مجموعة متتابعة من التجارب فيها الأصوات، والصور، والأفكار والعواطف نمر خلالها حين نقرؤها شعريا ــ على قدر الإمكان ــ وبهذه القراءة تختلف القصيدة من قارئ لآخر ،أي أنها ذات وجوه متعددة لا يأتي عليها الحصر»[٤٠]، فكل قراءة جديدة هي إبداع جديد، فالنص الشعري نص هلامي يتغير حسب نفسية كل قارئ، ويتشكل حسب طبيعته، ويعكس انطباعاته الشعرية، والنقد العربي النصّي لم يصل إلى

---

٣٧ ــ حجازي، ٢٠٠١، ص٣٦.

٣٨ ــ الصباغ، ١٩٩٨، ص١٢٧.

39 - **Léo. Hock ,3**

٤٠ ــ عباس، ١٩٩٦، ص١٥٣.

استنطاق البنى العميقة للنصوص الشعرية إلاّ بعد بروز النقد النصّي في ظلّ المناهج النقدية الغربية، وخاصة المنهج العلاماتي.

ومن أهمّ الدّراسات العربية التي انصبت على مقاربة النص الشعري الحديث دراسة وتحليلا وتصنيفا نذكر بعض المقالات المبثوثة في مختلف المجلات والدّراسات النقدية العربية الحديثة إلى غير ذلك من البحوث التي كان أصحابها سباقين إلى تعريف القارئ العربي بكيفية الاشتغال على مقاربة النصوص الشعرية الحديثة نصيّاً تنظيرا وتطبيقا، كما ننوه إلى الدّراسات النقدية التي أنجزها بعض الباحثين في الملتقيات السيميائية في قسم الأدب العربي بجامعة "محمد خيضر- بسكرة/الجزائر" وأيضا أعمال بعض السيميائيين المنشورة رقميا، وهذه الدّراسات موضحة في الجدول الآتي:

عنوان المـــــقال	صاحب المقال	الفعاليات النقدية للدراســـــــة
سيمياء العنوان في ديوان مقام البوح لـــ"عبد الله العشّي".	شادية شقروش	الملتقى الوطني الأوّل: السيمياء والنص الأدبي ١٥-١٦ أبريل٢٠٠٢ م جامعة محمد خيضر/ بسكرة
طلاسم إيليا أبو ماضي – دراسة سيميائية	عمار شلواي	الملتقى الوطني الثاني: السيمياء والنص الأدبي ١٥-١٦ أبريل٢٠٠٣ م جامعة محمد خيضر/ بسكرة
سيميائية العلامة في قصيدة (المهرولون) لنزار قباني	بشير تاوريريت	الملتقى الوطني الثالث: السيمياء والنص الأدبي ١٩-٢٠ أبريل٢٠٠٤ م جامعة محمد خيضر/ بسكرة
شعرية المحموم/المفجوع/ الموجوع- مقاربة سيميولوجية تأولية في ديوان قصائد محمومة	عبد الغني بارة	
مقاربة سيميائية لنص شعري قصيدة خائفة لنازك الملائكة	منقور عبد الجليل	مجلة الموقف الأدبي – اتحاد الكتاب العرب عدد ٣٨٢ السنة الثانية و الثلاثون – شباط – ٢٠٠٣م – ذو الحجة – ١٤٢٣ هـــ
أغنية المقاومة و نشيد الحرية مقاربة سيميائية لديوان الدرب الأخضر	نبيل سعيد مطبق	http://www.almolltaqa.com?t=45873./vb/showthread.php

ويلاحظ اليوم أن الكتابات النقدية الإبداعية النصانية سواء في الثقافة الغربية أم الثقافة العربية بدأت في خلخلة الجنس الأدبي، وتحطيم معاييره النوعية ومقوماته النمطية باسم الحداثة والتجريب، فأصبحنا نتحدث عن القصيدة النثرية التي يتقاطع فيها الشعر والنثر، والقصيدة الدرامية التي ينصهر فيها الشعر والحوار المسرحي معا، كما أصبحت الرواية فضاء تخييليا لتلاقح النصوص وتداخل الخطابات والأجناس تناصا وتهجينا، دون أن ننسى المسرح الذي أصبح أباً للفنون والأجناس الأدبية بامتياز.

وهذا كله لم يفقد النص الشعري الحديث هويته ،وأصالته العربية ،حيث لقد تم مقاربة الجنس الأدبي انطلاقا من زوايا منهجية متعددة، فهناك دراسات تركز على الشكل، وأخرى على المضمون، والبعض الآخر على الوظيفة، ويمكن تحديد بعض المناهج المعتمدة في تلك الدراسات، نذكرمنها على سبيل المثال ما يأتي:

أولا ـ المقاربة الاجتماعية: (لوكاش ـ باختين ـ غولدمان...)؛

ثانيا ـ المقاربة الفلسفية: (هيجل....)؛

ثالثا ـ المقاربة البنيوية: (تودوروف ـ جنيت ـ فلاديمير بروب ـ توماشفسكي...)؛

رابعا ـ المقاربة التطورية التاريخية: (برونوتير[٤١]، أدينغتون...)؛

خامسا ـ المقاربة الشكلية: (فراي ـ شولزـ ويليك ـ أوستين وارين...)؛

سادسا ـ المقاربة السيميائية: (كريزنسكي[٤٢]...).

وغيرها من المقاربات كما أنّ هناك من يصنف الأجناس الأدبية اعتمادا على الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، أو الضمائر، أو الأساليب (السرد ـ الحوار)، أو الأفعال، أو الصيغ اللغوية أو حسب المواضيع (الرواية التاريخية والرواية السياسية والرواية الاجتماعية...)، وهكذا فموضوع الجنس يثير أسئلة مركزية في تاريخ الأدب والنقد الأدبي، وفي العلاقات الداخلية المتبادلة بينهما، وهو يطرح في سياق أدبي نوعي المسائل الفلسفية المتعلقة بالصلة بين الطبقة والأفراد الذين يؤلفونها، وبين الواحد والمتعدد، وطبيعة الكليات.

إنّ تطبيق المستويات الإجرائية للمنهج السيميائي في مقاربة النصوص الإبداعية

41- BRUNETIERE
42 -KRYSINSKI

الشعرية خاصة تبقى عملية معرفية معقّدة تختلف في تقنياتها من باحث لآخر، ومن المعلوم أنّ النصوص الأدبية كلها تقبل عملية التحليل اللّساني الذي يصبّ في دائرة النقد النصّي، ومع ذلك نجد جلّ النقاد مازالوا يخوضون في مسألة أدوات الممارسة النقدية لأنّها لم تتأسس عند البعض منهم لاختلاف الرؤى والمشارب المعرفية عند كل ناقد.

طبعا لا يمكن فهم النص الأدبي خاصة الشعري منه وتفسيره، أو تفكيكه وتركيبه إلا من خلال التسلح بنظرية الأدب والانطلاق من مكونات النص ومدى استفزازه للمتلقي والناقد على السواء؛ لأنها العملية الأساس التي نتكئ عليها في تحليل النصوص وتقويمها ومعرفة طبيعتها ومدى انزياحها عن المعايير الثابتة للنص الأصلي ومدى مساهمتها في تطوير الأدب و خلق حداثة أجناسية أو نوعية، ومن هنا كانت رؤيتنا لهذه الآليات النقدية في مقاربة النص الشعري الحديث سيميائيا من خلال عملية الجمع بين ما هو لساني، وما هوجمالي وهي مصنفة كالآتي:

أولا – بنية العنوان:"Structure du titre"

يُعَدّ النص الشعري آلة لقراءة العنوان إذ تربطهما علاقة تكاملية، فالنص الشعري يتكون من نصين يشيران إلى دلالة واحدة في تماثلهما مختلفة في قراءاتهما هما: (النص وعنوانه)، أحدهما مقيد موجز مكثف، والآخر طويل. ولعل صفحة كل غلاف تعطينا انطباعا يجعل من أغوار أي عمل إبداعي يعد نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية، وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته، ومحاولة فك شفراته الرامزة.

لهذا يرى السيميولوجيون أنّ العنوان والنص والإخراج الطباعي والإشارات والصور أجزاء لا تتجزأ من الخطاب الأدبي. وهذه الرموز اللغوية المميزة لكل عمل إبداعي هي دلالات واضحة في سلم العمل اللغوي لهذا نجد أنّ "الطباعة واللون والغلاف والعنوان كلها عتبات" لفك شفرات العمل الأدبي، وتبقى عتبة العنوان النصي أهم منافذ النص المدروس وذلك بتقسيمه إلى ثلاثة مفاتيح علاماتية هي كالآتي:

١ــ **بؤرة العنوان:** وذلك من خلال استنطاق عنوان النص الشعري ،وفك شفراته العلاماتية، وربطها بمتن النص، وعموما كلّ عناوين النصوص الشعرية القديمة هي فواتح النصوص الأدبية.

٢ــ **الفاتحة النصية:** تتناول البيت الأوّل أو الوحدة الأولى من القصيدة، حيث

يطرح فيها الشاعر العديد من الأسئلة التي تبحث عن جواب، أو ذكريات لم تندمل بعد أو حنين وشوق محمّل بالوصل والعتاب النفسي المشفّر بكــلّ الــدلالات، والرمــوز المغلقة التي تبحث عن مفاتيح لتفجيرهذه المعاني النصية وسط متاهات ذات الشاعر، ورؤيته للعالم بعيون المستفهم الحاضر/ الغائب.

٣ـ الخاتمة النصيّة: هذه الأخيرة تبحث في خاتمة النص الشعري لتقدّم إجابات شافية لما طرحه الشاعر من حيرة وأسئلة تبحث عن مخرج من هذا المأزق النفسي الذي يتجرع مرارته الشاعر في كلّ ذكرى من مخيله الشعري المتأزم بمرارة الشوق والحنين والجفاء الذي يعيشه في وسط تترمّز فيه كل المشاعر الإنسانية لتصبح كل معانيه عللاً وزحافات يتعثر فيها وسط الإخفاقات العاطفية التي تبحث عنها السيمياء، وتعطيها تفسيراتها وقراءتها وفق منهجية علمية ممنهجة على آليات متفق عليها سلفا بين المتلقي والناقد.

ثانيا- البنية الصوتية " Structure Phonétique " :

تقتضي طبيعة التحليل اللغوي الصوتي للنص الشعري البــدء بــالعنوان كــنص مصغر وذلك من أصغر وحدة صوتية في النظام اللغوي إلى أعلى مراتب التركيــب، وهو الدافع للباحث عند تتبعه لمعاني الألفاظ إلى الانطلاق من الصوت اللغوي الــذي يعد أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني، إضافة إلــى كونــه أساس اللغة، وعمود بنائها، ومبحث الأصوات هو المســتوى الأول مــن مســتويات التحليل إذ يعد الخطوة الأولى للمحلل السيميائي لما للصوت من قيمة تعبيرية تنطلــق منه ثم تطغى على اللفظة التي تحويه وقد يتعداها ليعم التركيب، فالأصــوات تناســب معاني ألفاظها والعلاقة بينهما متبادلة وجدلية.

ثالثا- البنية التركيبية "structure syntaxique" :

يعدّ الحديث عن البنية التركيبية حديثا عن النحو ــ وخصوصا الجملــة النحويــة وسياقاتها ــ الذي يعرّفه الشريف الجرجاني بأنه: علم بقوانين يعــرف بهــا أحــوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء، والبحث في البنية التركيبية لأي نص يحيلنا إلى دراسة الجملة بوصفها الوحدة اللغوية الأساسية في عمليــة التواصــل، فقيمتهــا فــي المستوى التركيبي كقيمة الصوت في المستوى الصوتي، وقيمة الكلمة في المستوى

الصرفي، وعلى هذا التحليل التركيبي للعناوين يعتمد على تصنيف الجمل اسمية، فعلية، شرطية وظرفية.

رابعا- البنية الصرفية "Structure Morphologique":

يتناول فيها الباحث دراسة صيغ الأفعال وما تتعرض لها من تغييرات عند إسنادها للضمائر وتحديد أقسام الفعل من حيث الزيادة، والتجريد، ودراسة خصائص الأسماء من تنكير وتعريف، ومن تذكير وتأنيث، وبيان اللواحق الدالة على التأنيث، ويبين أقسام الاسم من حيث العدد، فيبين طرق التثنية، والجموع التي منها ما يكون بإلحاق لاحقة، وهو جمع السلامة، ومنها ما يكون بتغيير داخلي في لفظ المفرد، وهو جمع التكسير.

وتناول الظواهر الصرفية مثل: ظاهرة التصغير، فيبين التغييرات التي تطرأ على الاسم عند تصغيره، ودراسة ظاهرة النسب، وتبيين التغييرات التي تجري على الاسم بسبب إلصاق لاحقة النسب،والتركيز على المشتقات من"اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبهة، اسمي الزمان والمكان، صيغ المبالغة، المصدر الميمي والصناعي، اسم المرة والهيئة، اسم الآلة".

خامسا- البنية الدلالية "structure sémantique":

الحقل الدلالي مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشمل مفاهيم تندرج تحت مفهوم عام يحدد الحقل، أي أنه مجموع الكلمات التي تترابط فيما بينها من حيث التقارب الدلالي ويجمعها مفهوم عام تظل متصلة به ولا تفهم إلا في ضوئه. فالدارس السيميائي عليه أن يصنف مجموع الكلمات في المتن أو المتون الشعرية التي يصنفها إلى حقول دلالية خاصة بالمعنى الذي يجمع كل مجموعة لتسهيل المقاربة النقدية، والتقريب من مفاتيح التأويل.

سادسا- البنية الموسيقية " Structure Harmony ":

وعلى هذا الأساس بدا تحديد البنية الموسيقية في الخطاب الشعري الحديث ضرورة تتحدّد معها معالم أخرى تتعدّى إلى الدلالة، فتجد بذلك العلامات السيميائية الشكلية دلالاتها داخل البنية اللغوية، كحال الفاصلة والحذف الكاسرين للتفعيلة، وما يليهما من دلالة إيحائية، وما خفي من علل الزيادة والنقصان وما تحمله من مدلولات

لا تتنافى مع محمول حاملها، وارتباط نوع القافية بصفتها، وما تبديه من توتر خفي يضاف إلى كتلة التوترات داخل الخطاب، وما يوحي به شكلها من إيحاءات.

سابعا-جماليات النص الشعري:

أولا ــ التناص: يشكل التناص بعدا جماليا للعنوان إذ يسبح في عدة مرجعيات ويشير إلى الفاعلية المتبادلة بين النصوص ليؤكد عدم انغلاق النص على نفسه وانفتاحه على غيره من النصوص. وفكرة التناص ــ كما يرى النقاد المحدثون ــ تعتبر توسعا لمعنى التأثير والتأثر، لا كما ذهب القدماء إلى قضية الانتحال والسرقات فهناك من القصائد ما تضرب صلتها بأبعاد ومرجعيات (دينية ــ فكرية ــ أدبية ــ أسطورية) فيصعب على القارئ الدخول إلى النص إلا إذا كان متسلحا بقدر من الثقافة.

ثانيا ــ الانزياح: يعدّ الانزياح ظاهرة أسلوبية جمالية ، وهو يعني الخروج عن الاستعمال العادي المألوف للغة النثرية، والرقي بها إلى مستوى قريب من اللغة الشعرية، يعتمد على قوة الخيال في تحويل الصور والمفاهيم بغية التأثير التجميلي للمتون الشعرية خاصة، وهو يقدم على المفاجأة والتغير وعدم الثبوت فيكسر أفق توقع القارئ.

إشكاليات مقاربة النص الشعري الحديث سيميائيا:

الملاحظ عموما على المقاربات السيميائية الموثقة في الملتقيات الدولية والوطنية والندوات والمجلات الورقية المحكّمة والرقمية كلّها تشير صراحة وتؤكّد على أنها تميّزت بوجود جملة من الإشكالات يمكن للناقد السيميائي عدّها وحصرها على مستوى المنهج أوعلى مستوى التحليل الإجرائي، وهي كالآتي:

إشكالية المقاربة على مستوى المنهج:

أ ــ يجب على الناقد السيميائي مراجعة طرق وأساليب استخدامه للمنهج، وهذه الممارسة تفترض عليه وعيا مركبا، وعيا بالخلفيات الإبستمولوجية والإيديولوجية للمنهج أوّلا، ثم وعيا بالنصوص في مجال الدراسة، وهذا ما يقع فيه أغلب نقادنا.

ب ــ إنّ التحليل السيميائي المقترح أثناء تحليله للخطاب الأدبي الشعري منه خاصة يجب أن يسعى إلى مساءلة الوعي الفكري العربي بالحداثة، لمعرفة مدى

وعيه بالروابط الحضارية العميقة بين الظواهر المعرفية العالمية، ووضعه الفكري الثقافي والنسقي الخاص، وكذا التعرّف على دور المفكر العربي أو الناقد العربي في إبراز أسس الحداثة، وطريقة تعامله مع المستجدات الفكرية المعاصرة، وتشخيصه لداء التراجع الدائم في مقابل تقدّم الآخر.

إشكالية المقاربة على مستوى الأدوات الإجرائية:

أ ــ يسعى المنهج السيميائي إلى دمج الأفكار ومراجعتها أو تفكيكها على النحو الذي يولّد منها أفكارًا تقبل المراجعة والمساءلة هي الأخرى، لكن قصر نظر الخطاب النقدي العربي حول حداثة الشعر العربي هو الذي أدى إلى نوع من سوء الفهم لهذه النصوص؛ لأن عقيدة التقليد لدى نقادنا افترست أفكارنا النقدية وحصرت الفكر النقدي في أفق معرفي ضيق يزكّي الأوضاع النقدية السائدة، ويوهم أصحابه بامتلاك الحقيقة، دون الوعي بأن هذا الفكر يعودهم على التلقي وقبول الأشياء كما هي دون مساءلة.

ب ــ هدف الباحث السيميائي هو إجراء مقاربة معرفية ترمي إلى بناء نمط ثقافي لقراءة النصوص في ضوء الثقافة التي أنتجتها تلك المعرفة، ومن ثم مساءلة البنية العميقة للنص الأدبي المراد استنطاقه سيميائيا من خلال طرح أسئلة تتعلق بسياقاته لكشف معانيها وأبعادها داخل الخطاب الأدبي والتحليل، لا يهدف بهذا المنحى إلى فحص المعارف والأفكار، بقدر ما هو بحث في استراتيجيات المعرفة، وفهم آليات التحليل و الأبعاد الجمالية للنص الأدبي، ومعاييره الأدبية؛ ومن ثم بناء ممارسة نقدية سيميائية ناضجة تتيح لمختلف الخطابات الأدبية أن تتشكّل وتنتشر، وفق رؤية نقدية واعية بإشكالية الذات والموضوع معا.

خـــاتمة الدّراسة

وفي الأخير ندعو الباحثين السيميائيين إلى تطبيق وتمثل هذه المقاربة السيميائية نظريا وتطبيقيا والتوسع فيها؛ لأنّ الدرس الأدبي الأكاديمي لا يهتم سوى بالنص الأساسي والمرجعي ولا يبالي ديداكتيكيا ولا بيداغوجيا بالنص الموازي وملحقاته الداخلية وعتباته الخارجية، أو يمر عليها مرور الكرام ولا يتعمق فيها منهجيا أو نظريا.

كما لاحظنا السمة التجزيئية التي يتسم بها الدرس السيميائي، إذ وجدنا من الباحثين

والأساتذة من يركزعلى المنهج وحده أو النص أو القارئ أو الذوق أو التاريخ أو النفس أو المجتمع دون غيرها من العناصر والمكونات الأدبية والنقدية الأخرى، أي يدرسون المنهج السيميائي بالتركيز على عنصر معين في معزل عن العناصر الأخرى المكونة للعملية الإبداعية والأدبية، لذلك أصبح الدرس النقدي قاصرا وجزئيا وعاجزا عن الإحاطة بالنص الأدبي من جميع جوانبه مهما كانت قيمة هذه العناصر على مستوى الدلالة والتبليغ والتواصل، لذلك يجب الجمع بين الجانبين النظري والتطبيقي معا.

قائمةالمصادر

١ــ آريفيه، ميشال وآخرون، السيميائية أصولها وقواعدها، (٢٠٠٢)، ترجمة رشيد بن مالك، الجزائر: منشورات الاختلاف.

٢ــ إبراهيم، عبد الله وآخرون، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، (٢٠٠٤).

٣ــ إيزر، فولفغانغ، فعل القراءة، نظرية الوقع الجمالي، (١٩٨٧)، ترجمة أحمد المديني؛ آفاق المغربية، العدد٦.

٤ــ توسان، برنار، ما هي السيميولوجيا،(١٩٩٤)، ترجمة محمد نظيف، ط١، دار النشر إفريقيا الشرق.

٥ــ جيرو، بيير، علم السيميولوجيا،(١٩٨٨)، ترجمة منذر عياشي، ط١، دمشق: دار طلاس.

٦ــ حجازي، محمد عبد الواحد، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث،(٢٠٠١)، القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

٧ــ حمداوي، جميل، السيميوطيقا والعنونة، (١٩٩٧)، الكويت، مجلة عالم الفكر، ج٥،ع٣، يناير/مارس،١٩٩٧.

٨ــ خلف، عصام كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، (٢٠٠٣)، ط١، القاهرة، دار فرحة للنشر والتوزيع.

٩ــ ريفاتير، مايكل، دلائليات الشعر، (١٩٩٧)، ترجمة ودراسة محمد معتصم، ط١، المغرب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح.

١٠ــ الجديدة الصباغ، رمضان، في نقد الشعر العربي المعاصر،(١٩٩٨)، دراســة

جمالية، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر.

١١ـــ عباس، إحسان، فن الشعر،(١٩٩٦)، بيروت، دار صادر.

١٢ـــ فانون، وجيه، دراسات في حركة الفكر الأدبي، (١٩٩١)، ط١، بيروت، دار الفكر.

١٣ـــ قطوس، بسام، سيمياء العنوان، (٢٠٠١)، ط١، الأردن، عمان، وزارة الثقافة.

١٤ـــ مصايف، محمد، دراسات في النقدوالأدب،(١٩٨١)، الجزائر، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع.

١٥ـــ الواعر، مازن، مقدمة الإشارة ـــ السيميولوجيا ـــ لبييرجيرو، (١٩٨٨)، ترجمة منذر.

١٦ـــ عيا شي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

١٧ـــ يوس، هانز روبير، جمالية التلقي والتواصل الأدبي،(د.ت.)، لبنان، الفكر العربي المعاصر، العدد ٣٨.

18- Ferdinand De Saussure (1973). cours de linguistique générale, Paris, Payot

19- Léo. Hock (1984). La marque de titre

نفسيّة المتنبّي وسَعدي وأثرها في حكمتهما الشعريّة

د. صادق عسكري*

الملخص

إنّ نفسية المتنبي وسَعدي من أهمّ المؤثّرات على حِكمة الشاعرين. لأنها تؤثّر على حِكمتهما من جهتين، الأولى بتأثيرها على إقبالهما على الحِكمة، والثانية بتأثيرها على المضامين والموضوعات الحكميّة الملائمة لنفسيتّهما.

واتّضح لنا أخيرا أنّ الشاعرين مختلفان في هذا الجانب كلّ الاختلاف، إذ لا نلاحظ أيّ تشابه بينهما، فكلّ ما ذكرنا في هذه المقالة هو تفاوت وتباعد، بل تناقض وتعاكس أحياناً. لأنّ تواضع سَعدي يناقض غرور المتنبّي، وتفاؤله عكس تشاؤم المتنبّي، وتديّنه يناقض ضعف عقيدة المتنبّي.

فخلاصة الكلام في هذا المجال أنّ معالجة نفسيّة الشاعرين تُظهر لنا التفاوت بين المتنبّي كشاعر المدح وسَعدي كشاعر الموعظة والنصيحة، أي: التفاوت بين المدّاح والواعظ. وإن اشترك الشاعرين فيما يؤخذ عليهما، هو بسبب بعض التناقضات بين حكمتهما الشعريّة وبين حياتهما العمليّة، من قبيل التكسّب والإباحيّة.

أمّا تأثير هذا الاختلاف في المضامين الحكميّة، فيظهر في الإكثار من بعض المضامين دون غيرها. فكان حثُّ المتنبّي على الشجاعة والجرأة أكثر بكثير من حثّ سَعدي عليهما، وبالعكس لا يقاس إقبال المتنبّي على التواضع مع إقبال سعدي عليه. وكذلك أنّ المتنبّي ما حثّ على القناعة والعدالة ولم يمنع عن الأنانيّة والغرور، بينما حثّ سَعدي على القناعة والعدالة والإنصاف ومَنَع عن الغرور والأنانيّة كثيراً.

كلمات مفتاحية: الحكمة، المتنبّي، سَعدي، النفسيّة والأخلاق، الدراسة المقارنة

المقدمة:

من القضايا المؤثّرة في أدب المتنبّي وسَعدي عموماً وفي إقبالهما على الحِكمة والموعظة خصوصاً، هي المؤثّرات المستمدّة من عصري الشاعرين وحياتهما الشخصيّة.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغةالعربيّة وآدابها بجامعة سمنان، إيران.

فكانت هذه المؤثّرات راجعة إلى الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة والأدبيّة. فالاضطرابات السياسيّة وما فيها من الفتن والحروب، بالإضافة إلى الأزمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة وما يترتّب عليها من فساد وفقر وانهيار خُلقي واختلاف طبقي بين الحكّام والوزراء والأمراء ومن في حاشيتهم من جهة، وبين الرعيّة وعموم الناس من جهة أخرى، هذه الأمور كلّها انتهت إلى تأمّلاتٍ وخواطرَ وأدّت إلى إكثارهما من الأبيات الحكميّة. كما كان للتيارات الفكريّة والأدبيّة كالفكر اليونانيّ والثقافة الفارسيّة، وازدهار الفلسفة والتصوّف تأثير بارز في حكمة الشاعرين ومضامينهما أيضاً.

وإلى جانب هذه القضايا المرتبطة بعصري الشاعرين وبيئتيهما، ثمّة أيضاً مؤثّرات أخرى مرتبطة بحياتهما الشخصيّة، منها أساتذة الشاعرين، وأسفارهما، ونفسيّتهما وأخلاقهما.

ونظراً لأهمّية أخلاق المتنبّي وسَعدي ونفسيّتهما، وتأثير ذلك في إقبالهما على الحكمة والإكثار منها من جهة، وفي اختيار الموضوعات والمضامين الحِكميّة المتلائمة مع نفسيّة كلّ منهما من جهة ثانية، اخترنا دراسة نفسيّة المتنبّي وسَعدي وأثرها في حكمتهما الشعريّة موضوعاً لهذه المقالة. فقد حاولنا في الصفحات التالية أن نلقي الضوء على أبرز الخصائص النفسيّة والخلقيّة عند المتنبّي وسعدي معرفة لأهمّ وجوه الشبه والاختلاف بين الشاعرين الفذّين اللذَين عُرف كلّ منهما في الأدبين العربي والفارسي بشاعر الحكمة والموعظة.

هذا وقد درس الباحثون سابقا أدب المتنبي وسعدي في دراسات مقارنة، كالأستاذ حسين علي محفوظ والدكتور أمير محمود أنوار والدكتورة أمل إبراهيم وغيرهم. إلاّ أنّهم لم تطرّقوا إلى قضيّة الحكمة الّتي كانت من أهمّ أسباب اشتهار الشاعرين، كما أنّ دراساتهم لم تتمتّع بمنهج مقبول في المقارنة، فضلاً عن خروجهم عن الموضوعيّة أحيانا.

أ- أنانيّة المتنبّي وتواضع سَعدي

لعلّ أوّل ما يتراءى لنا في معالجة أخلاق المتنبّي ونفسيّته هو الغرور والكبرياء. فقد عانى الرجل من إحساسه بالتفوّق على كلّ من حوله، فجاءت أغلب مدائحه وكأنّها صيغت لفخره. قال ابن رشيق القيرواني: «وأمّا أبو الطيّب فكان في طبعه غلظة وفي

عتابه شدّة وكان كثير التحامل، ظاهر الكبر والأنفة».[١] ومن الأبيات الّتي يمكننا الاستشهاد بها في هذا المجال قوله:

وَما الدَهرُ إِلاّ مِن رُواةِ قَصائِدي إِذا قُلتُ شِعراً أَصبَحَ الدَهرُ مُنشِدا
أَجِزني إِذا أُنشِدتَ شِعراً فَإِنَّما بِشِعري أَتاكَ المادِحونَ مُرَدَّدا
وَدَع كُلَّ صَوتٍ غَيرَ صَوتي فَإِنَّني أَنا الصائِحُ المَحكِيُّ وَالآخَرُ الصَدى[٢]

وقوله:

قَوافٍ إِذا سِرنَ عَن مِقوَلي وَثَبنَ الجِبالَ وَخُضنَ البِحارا
وَلي فيكَ ما لَم يَقُل قائِلٌ وَما لَم يَسِر قَمَرٌ حَيثُ سارا[٣]

وهكذا خالف المتنبّي رأي النقّاد عندما قالوا: «لا يجوز أن يكون الشاعر معجباً بنفسه، مثنياً على شعره وإن كان جيّداً في ذاته»[٤]. ورأى عبد الوهّاب عزّام أنّ هذه الكبرياء والتعاظم من أسباب الفراق بين الشاعر وسيف الدولة، فقال: «كان حول سيف الدولة شعراء كَسَفت شمسُ أبي الطيّب نجومَهم وأخمدت نباهتُه ذكرَهم، فكانوا يحسدونه... . كانت كبرياءُ أبي الطيّب وفخرُه بشعرِه وتعاليه عليهم وإيثارُ الأمير إيّاه تزيدُ حَسَدَهم وغيظهم. وكان غيرُ الشعراء يحسدون الشاعرَ الأبيَّ على مكانته وينقمون عليه تعاليه وتعاظمَه... فلا جَرَمَ جهدوا أن يوقِعوا بينه وبين الأمير»[٥]. ولعلّ هذه الخصال النفسيّة أيضاً هي الّتي حرّضته على أن يشترط على سيف الدولة أن لا ينشد أمامه إلاّ قاعداً[٦] وأن يدّعي امتناعه عن مدح غير الملوك[٧]. ويبدو أنّ هذه الأنانية متوغّلة في نفسيّة الشاعر، والدليل على ذلك ظهورها عنده في عمر الصبا. فلو كان هناك ما يبرّر للشاعر أن يَفخر بنفسه بعدما وصل إليه من المكانة والشهرة في بلاط سيف الدولة الحمداني وينظم الأبيات السابقة، فما الّذي يبرّر له أن

١- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج ٢، ص ١١٢.
٢- المتنبّي، الديوان، ص ٣٦١
٣- المصدر نفسه، ص٣٦١.
٤- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج ١، ص ٢٠٥.
٥- عبد الوهاب عزّام، ذكرى أبي الطيّب، ص ٩٥.
٦- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، ج ١، ص ٣٨٣.
٧- الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٣٦.

يُبدي غروره وتعاليه في بدايات حياته الشعريّة، إذ يقول:

لا بِقَومي شَرُفتُ بَل شَرُفوا بي وَبِنَفسي فَخَرتُ لا بِجُدودي
إِن أَكُن مُعجَباً فَعُجبُ عَجيبٍ لَم يَجِد فَوقَ نَفسِهِ مِن مَــزيدِ
أَنا تِربُ النَدى وَرَبُّ القَوافــي وَسِمامُ العِــدا وَغَيظُ الحَسودِ[٨]

وهذه الأبيات من قصيدة هي الرابعة في الديوان على حسب الترتيب التاريخي إذا ما تركنا بعض المقطوعات الصغيرة وإلاّ فالثالثة عشرة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما قيل عن أسفار المتنبّي وأهدافها، وأنّ غالبها كان لطلب الثروة والشهرة[٩]، فكيف يبرّر الشاعر أن يطلبهما متكسباً بشعره، وينادي في الوقت نفسه بغروره وتعاليه إلى حدّ سبّب له فيما بعد كثيراً من النقد اللاذع والعداوة من قِبَل النقّاد. لعلّ الجواب الوحيد هو أنّ الاضطراب السياسي والاجتماعي والفتن والحروب وخاصّة التعاليم القرمطيّة، فضلاً عن الحرمان الّذي عاناه الشاعر في بداية حياته، كلّ هذه الأمور هي الّتي ولّدت الأنانيّة والغرور في نفسيته، كما ولّدت فيها التشاؤم وذمّ الدهر والناس.

ويبدو أنّ كلّ ما ذكره النقّاد من غلوّ المتنبّي أو شجاعته، سواء أكان في المدح أم في الفخر، يرجع إلى هذه الخصيصة النفسيّة أي إلى التعالي والتعاظم، فلهذا قال ابن رشيق القيرواني في باب الغلوّ من كتاب العمدة ما نصّه: «زعم بعض المتعقّبين أنّ الّذي كثر هذا الباب أبو تمّام، وتبعه الناس بعد. وأين أبو تمّام ممّا نحن فيه؟ فإذا صرتَ إلى أبي الطيّب، صرتَ إلى أكثر الناس غلوّاً وأبعدهم فيه همّة، حتّى لو قدر ما أخلى منه بيتاً» [١٠].

ولا شكّ في أنّ هذه الأمور أثّرت تأثيرا بالغاً في شعر المتنبّي، إذ نلاحظ معالم هذه الخصال والحالات النفسيّة بوضوح في شعره. ونذكر على سبيل المثال بعض الشواهد الشعرية في هذا المجال، تلك الشواهد الّتي تدلّ على الإباء والتعالي والكبرياء وإلى أن وصل حدّ الغرور والأنانيّة والاستهانة بالآخرين، يقول:

٨- المتنبّي، الديوان، ص ١٥.

٩- الواحدي، شرح ديوان المتنبّي، ص ٩٣، ٢٠٦؛ ياقوت الحموي، معجم الأباء، ج ٥، ص ٢٠٣؛ البديعي، الصبح المنبي، ج ١، ص ٧٨- ٨١؛ اليازجي، العرف الطيب، ص٥١، ١٣١؛ بلاشير، أبو الطيّب المتنبّي، ص ١٤٢.

١٠- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج ٢، ص ١٤.

واقِفاً تَحتَ أَخمَصَي قَدرِ نَفسي　　　واقِفــاً تَحتَ أَخمَصَــيَّ الأَنــامِ[١١]

ولعلّ ما قيل عن شجاعة المتنبّي هو أيضاً بدوره متأثّر بكلّ ما أشرنا إليه من غروره وكبريائه وهكذا نفسّر ما نقله ابن رشيق القيرواني عن بعضهم: «وأبو الطيّب كالملك الجبّار. يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده ولا يبالي ما لقي ولا حيث وقع»[١٢]. وبإمكاننا أن نفهم هذا الأمر من شعر المتنبّي أيضاً، إذ صرّح بذلك في أكثر من موضع في ديوانه. قال مثلاً بعد ما عذله أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي على ما كان قد شاهده من تهوّره واستعداده للثورة:

أَبا عَبدِ الإِلَهِ مُعــاذُ إِنّــي　　　خَفِيٌّ عَنكَ في الهَيجا مَقامي

أَمِثلي تَأخُذُ النَكَبــاتُ مِنهُ　　　وَيَجزَعُ مِن مُلاقــاةِ الحِمامِ

وَلَو بَرَزَ الزَمانُ إِلَيَّ شَخصاً　　　لَخَضَّبَ شَعرَ مَفرِقِهِ حُسامي[١٣]

ولكنّنا نلاحظ زوال هذه الكبرياء والتعاظم في أخلاق المتنبّي في الحقبة الأخيرة من حياته عند ما كان في فارس عند ابن العميد وعضد الدولة إذ «أنشده قائماً حين دخل عليه، على غير عادته وأمره عضد الدولة بالجلوس، فأبى وقال: هيبتك تمنع من ذلك»[١٤]، كما لا يظهر في الشعر الّذي قاله في عضد الدولة أيّ اعتداد بالنفس أو تفضيل نفسه على أحد. فنلاحظ في قصائد المتنبّي في هذه الحقبة زوال تضخّم ذاتية الشاعر أو أنانيّته وتعاظم الأنا الأخرى المتجلّية في شخصية الممدوح[١٥].

ولعلّ يمكننا من هذاالمنطلق، فهم تخلّي المتنبّي في حضرة ابن العميدعن فكرة كونه الأقدرشعريّاً والأفصح لغة ونطقاً. بل على العكس نراه يعترف بالنقص، معتذراً:

هَل لِعُذري إِلى الهُمامِ أَبي الفَضلِ　　　قُبــولٌ سَــوادُ عَينِــي مِدادُه

إِنَّ فــي المَوجِ لِلغَــريقِ لَعُذراً　　　واضِحاً أَن يَفــوتَهُ تَعــدادُه

١١– المتنبّي، الديوان، ص ١٤٩.

١٢– ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج ١، ص ١٢٣.

١٣– المتنبّي، الديوان، ص ٤٩.

١٤– محمود شاكر، المتنبّي رسالة في الطريق، ج ٢، ص ٣٥٢. ولم يشر محمود شاكر إلى المصدر الّذي أخذ منه هذه المعلومة. ونقل عنه مصطفى شعكة في كتابه أبو الطيب المتنبّي في مصر والعراقين، ص ٥٤٦. ولكنّه أضاف بعد الإحالة إلى محمود شاكر أنّ هذه المعلومة «عن ترجمة المقريزي، الفقرة ١٩». إلاّ أنّ هذه الإضافة لم تساعدنا في البحث عن مصدر هذه المعلومة. فلا نستطيع الاعتماد عليها كثيراً.

١٥– الأرفه لي، ملامح الأدب العربي في قصور البويهيّين، ص ١٢٧.

لِلنَدى الغَلبُ أَنَّهُ فاضَ وَالشِعـ ـرُ عِمادي وَاِبنُ العَميدِ عِمادُه(١٦)

ونحن نرى أنّ هذا التحوّل في نفسيّة المتنبّي ــ لو صحّ التعبير ــ يعود إلى الأجواء الّتي عاشها الشاعر في البيئة الفارسيّة، حيث لم يواجه خصوماً، فلم يجد دواعي للفخر والهجاء كثيراً.

أمّا سَعدي فكان، عكس المتنبّي تماماً. إذ اتّفق النقّاد والباحثون في أدب سَعدي وشخصيته على أنّ التواضع والاعتدال من أهمّ ميّزاته الخلقية. وفيما يلي نماذج من أقوالهم في هذا الشأن. يقول إدوارد براون: «وفي الحق أنّ فوز سَعدي بالشهرة العريضة الّتي نالها يرجع إلى ما اتّصف به من مرونة شاملة»(١٧). وقال الآخر: «إنّ اتّصاف سَعدي بالفضائل الإنسانية، أدت إلى ابتعاده عن الكبرياء والتعاظم والغرور»(١٨). ويقول عطاء الله مهاجراني: «يتجنّب سَعدي في كلّ ما كتب، الإفراط والتفريط ويتّخذ موقفاً وسطاً معتدلاً»(١٩).

ولعلّ خير ما نستشهد به في هذا المجال هو أبيات سَعدي نفسه؛ فقد خصّص سَعدي أربعة أبواب من بوستان لهذه القضايا، وهي: باب التواضع، باب الرضا، باب القناعة، باب الشكر. كما خصّص الباب الثالث من گلستان للقناعة أيضاً. وفضلاً عن كلّ ذلك يقول في قصيدة عربية:

ومـــا الشعرُ أيمُ اللّهِ لستُ بمُدّعٍ ولو كان عندي ما ببابِلَ من سحرِ
هنالكَ نقّــادونَ علماً وخـــبرَةً ومنتخبو القول الجميلِ من الهجرِ
ولو سبقتني ســـادةٌ جلّ قدرُهُم وما حسُنَت منّي مجاوَزَةُ القدرِ
ففي السمطِ ياقوتٌ ولعلٌ وجاجَةٌ وإن كان لي ذنبٌ يُكَفِّرُ بالعُذرِ(٢٠)

وأين هذه الأبيات من قول المتنبّي إذ يقول:

أنا الّذي نظــر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلمــاتي من به صـــممُ(٢١)

١٦- المتنّبي، الديوان، ص ٥٤٣.

17 -Edward Browne, *A Litrerary History of Persia*, vol. II, p. 530.

١٨- محمد دامادى، «سَعدى شاعر جامع»، ذكر جميل سعدى، ج ١، ص ٣٥٥.

١٩- عطاء الله مهاجراني، «نصائح سَعدي لأبناء القرن العشرين»، الدراسات الأدبية، العدد ٣ و ٤، ص ١٨.

٢٠- سَعدى، كلّيّات، ص ٧٦٩.

٢١- المتنّبي، الديوان، ص ١١٥.

وَما الدَهرُ إلاّ مِن رُواةِ قَصائِدي إذا قُلتُ شِعراً أَصبَحَ الدَهرُ مُنشِداً[۲۲]
قَوافٍ إِذا سِرنَ عَن مِقوَلي وَثَبنَ الجِبالَ وَخُضنَ البِحار[۲۳]

والأمثلة على ذلك من كلام سَعدي كثيرة جدّاً لا تُعَدّ ولا تحصى[۲٤].

ب- تشاؤم المتنبّي وتفاؤل سَعدي

والقضيّة الثانية الّتي تستدعي الانتباه إليها في دراسة أخلاق المتنبّي، والمرتبطة بحِكمته إلى حدّ كبير هي سوء الظنّ بالناس والتشاؤم وشكوى الدهر. ولا يستبعد أن يكون ذلك ناتجاً عن خصلته السابقة أي عن كبريائه وتعاظمه، لأنّ التعالي وحبّ الرئاسة والطموح من جهة، وعدم الوصول إلى ما أراد الشاعر من الإمارة والسلطان من جهة ثانية، أدّيا إلى هذه النظرة التشاؤميّة وشكوى الدهر وذمّ الناس والحقد عليهم. وإلى هذا أشارعبد الوهّاب عزّام عندما قال: «كان المتنبّي في اعتزازه بنفسه وطموحه إلى السؤدد وقصور عصبته وثروته عن بلوغ ما أمّل، حاقداً على الناس يحقّرهم ويذمّهم ويضطغن عليهم ويتحدّث بقتلهم»[۲٥]. يقول المتنبّي:

أَذُمُّ إِلى هَذا الزَمانِ أُهَيلَهُ فَأَعلَمُهُم فَدمٌ وَأَحزَمُهُم وَغدُ
وَأَكرَمُهُم كَلبٌ وَأَبصَرُهُم عَمٍ وَأَسهَدُهُم فَهدٌ وَأَشجَعُهُم قِردُ[۲٦]

و يقول:

إِذا ما الناسُ جَرَّبَهُم لَبيبٌ فَإِنّي قَد أَكَلتُهُمُ وَذاقا
فَلَم أَرَ وُدَّهُم إِلاّ خِداعاً وَلَم أَرَ دينَهُم إِلّا نِفاقا[۲۷]

أمّا عن سبب كلّ هذا الحقد على الناس والنفور منهم فيمكننا الإشارة إلى السبب الّذي ذكره بلاشير فضلاً عمّا أوردناه آنفاً من الحالة النفسيّة الناتجة عن الأنانيّة والغرور. يقول بلاشير: «اختلف المتنبّي إلى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة، ولا ريب في أنّه تحمّل تلك المضايقات التي يلقاها فقير ضائع بين رفاقه الأغنياء. ولعلّ في هذا اللقاء

۲۲- المتنبّي، الديوان، ص ۳٦۱.

۲۳- المتنبّي، الديوان، ص ۳٦۱.

۲٤- أنظر إلى بعض النماذج في: بوستان، ص ۱۱٥، ۱۱٦، ۱۳٥؛ گلستان، ص ۷٦.

۲٥- عبد الوهّاب عزّام، ذكرى أبي الطيّب، ص ۲۱۸.

۲٦- المتنبّي، الديوان، ص ۱۸۳- ۱۸٤. الفدم: العيي، والوغد: الأحمق الخسيس.

۲۷- المتنبّي، الديوان، ص ۲۸۲.

الأوّل مع الناس، وإن كنّا لا نــبغي المبالغة في أهمّيته، منشأ نفــور أبي الطــيب من البشر»(٢٨). وهذه النظرة التشاؤميّة تتخلّل نفسَ الشاعر حتّى في أثناء المدح والغزل. قال في مدح سيف الدولة متغزّلاً:

زَوِّدينا مِن حُسنِ وَجهِكِ ما دا ... مَ فَحُسنُ الوُجوهِ حالٌ تَحــولُ
وَصِلينا نَصِلكِ في هَذِهِ الدُنــ ... ــيا فَإِنَّ المُقــامَ فيهــا قَليــلُ(٢٩)

كما نرى أثر هذا التشاؤم في أوّل بيت من القصيدة الأولى الّتى مدح بها كافور الإخشيدي، إذ قال:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا ... وَحَسبُ المَنــايا أَن يَكُنَّ أَمــانِيا(٣٠)

نلاحظ أنّ نفسيّة المتنبّي انطوت على التشاؤم والشكوى، والحقد والحزن في كثير من قصائده، مدحاً كانت أم هجاءً أم رثاءً. وهذا ما اعترف به الشاعر نفسه إذ يقول:

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَقولُ قَصيدَةً ... فَــلا أَشتَكي فيهــا وَلا أَتَعَتَّبُ(٣١)

فالحزن والتأمّل في عاقبة الإنسان وفنائه في هذه الدنيا، الناتجان عن التشاؤم والشكوى قد أثّرا بدورهما تأثيراً بالغاً في إدخال كثيرٍ من الحِكم والأمثال، ليس في رثاء المتنبّي فقط، بل وحتّى في مدحه وغزله أيضا.

أمّا سَعدي فقد كان متفائلاً ومحبّاً للإنسانية جمعاء. وقد اتّصفت شخصيّته بنظرة إنسانية شاملة، من دون التقيّد بالحدود الضيّقة الّتي فرضتها المذاهب والجغرافيا. فقد ورد في دائرة المعارف الإسلاميّة: «صبغت معرفة سَعدي بالدنيا وأفكاره وآراؤه بالنزعة العالمية الّتي لم يدركها شاعر فارسي آخر غيره»(٣٢).

ويقول كورش كمالي سروستاني: «كان الشيخ سَعدي يحبّ الإنسان دائماً، وكان يرى أبناء آدم كلّهم أعضاء لجسد واحد لوحدة جوهرهم الإنساني»(٣٣). وقد سبق أن أشرنا إلى فريدة سَعدي المشهورة عالميّاً في هذا المجال أي في الأخوة الإنسانية، عند ما يقول:

٢٨- بلاشير، أبو الطيّب المتنبّي، ص ٤٤.

٢٩- المتنبّي، الديوان، ص ٣٤٤.

٣٠- المتنبّي، الديوان، ص ٣٥٢.

٣١- المتنبّي، الديوان، ص ٤٦٥.

32 –vol.VIII, p. 721 ' Saʿdī, *E.I.2*, R. Davis,

٣٣- كورش كمالي سروستاني، «ديباجه»، سعدى شناسى، دفتر اوّل، ص ٧.

بني آدم اعضـــایِ یك پیکرند | که در آفرینش زیك گوهرند
چو عضوي بدرد آورد روزگار | دگر عضوها را نـــماند قرار
تو کز محنت دیـــگران بي غمي | نشاید که نـــامت نهند آدمي[٣٤]

أي:ــ إنّ أبناءَ آدمَ أعضاءُ جسدٍ واحد، لأنّهم قد خُلقوا من جوهرٍ واحدٍ.

ــ عندما يُؤلمُ الدهر عضواً من هذا الجسد، لا يبقَى لسائرِ الأعضاء هدوء واستقرار.

ــ إذا كنتَ ممّن لا تهمّك محنةِ الآخرينَ، فلا يجوزُ أن يُطلق عليك اسمُ الإنسان.

ولعلّ هذه الرؤية الإنسانيّة الشاملة هي السرّ في خلود هذه الأبيات في صدور الأجيال اللاحقة، وقد بلغت ذورة الاشتهار إذ اختارتها منظّمة الأمم المتّحدة وزيّنت بها إحدى لوحاتها، لأنّها تدعو إلى الإحسان والمحبّة والتعاطف والمواساة بين جميع أبناء البشر، ما يناسب شعار الأمم المتّحدة قبل حوالى سبعة قرون من تشكيل هذه المنظّمة العالميّة. ولعلّ ذلك ما جعل المستشرق النمساوي فان هومر بورغشتال (vanhammer porgstall) يوصي بحكّ هذه الأبيات على رخام قبره لما فيها من نزعة إنسانية شاملة، ولما لسَعدي من نبوغ فطري مجبول على حبّ الخير والفلاح للبشريّة جمعاء[٣٥].

ج- ضعف عقيدة المتنبّي وتديّن سَعدي

آخر ما نتعرّض له في دراسة أخلاق المتنبّي هو ضعف عقيدته. إذ يقع ذلك في المرتبة الثالثة في التأثير على حِكمة المتنبّي وذلك بتأثيره على مدى إقبال الشاعر على الحِكم الدينيّة، إذا صحّ التعبير.

وقد اختلف النقّاد وتضاربت آراؤهم في عقيدة المتنبّي كما كان الأمر في كثير من الأمور المرتبطة بحياته. فالكثيرون يتّهمونه بالزندقة والإلحاد استناداً إلى بعض أبياته، كما كان هناك من يدافع عنه ويفسّر تلك الأبيات بطريقة تخرجه بأمان من دائرة الكفر والإلحاد.

قال الخطيب البغدادي صاحب خزانة الأدب متّهماً المتنبّي في عقيدته: «وهو فـــي الجملة خبيث الاعتقاد، وكان في صـــغره وقع إلى واحدٍ يكنى أبا الفـــضل بالكوفة من

٣٤- سعدی، گلستان، ص ٦٦.

35 –See: A. schimmel, *Persian literature*, p. 214.

المتفلسفة، فهوسه وأضلّه كما ضلّ»(٣٦). ويقول الثعالبي في معرض الحديث عن مثالب المتنبّي وعيوبه: «منها الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقّة الدين». ثمّ يستشهد ببعض أبيات يرى أنّه قد جاوز حدّ الإساءة فيها، منها قوله:

يَتَرَشَّفنَ من فَمي رَشَفاتٍ هُنَّ فيهِ أَحلى مِنَ التَوحيدِ(٣٧)

و يقول:

لَو كانَ عِلمُكَ بِالإِلَهِ مُقَسَّماً في الناسِ ما بَعَثَ الإِلَهُ رَسولا
لَو كانَ لَفظُكَ فيهِمِ ما أَنزَلَ الـ ـقُرآنَ وَالتَوراةَ وَالإِنجيلا(٣٨)

وكذلك قوله:

وَكُلُّ ما قَد خَلَقَ الـ ـلهُ وَما لَم يَخلُقِ
مُحتَقَرٌ في هِمَّتي كَشَعرَةٍ في مَفرِقي(٣٩)

ويتابع الثعالبي كلامه قائلاً: «وقبيحٌ بمن أوّله نطفةٌ مَذِرة وآخرُه جيفةٌ قَذِرة، وهو فيما بينَهما حاملُ بولٍ وعَذِرة أن يقول مثل هذا الكلام الّذي لا تَسَعُه معذرة»(٤٠). ونقل البرقوقي عن علي بن حمزة الأصفهاني قوله: «بلوت من المتنبّي ثلاث خصال محمودة وذلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط، وبلوت منه ثلاث خصال مذمومة وذلك أنه ما صام ولا صلّى ولا قرأ القرآن»(٤١). وكذلك استشهد صاحب الروض المعطار في خبر الأقطار ببيت من المتنبّي وهو:

وَأَبهَرُ آياتِ التِهامِيِّ أَنَّهُ أَبوكَ وَأَجدى مالَكُم مِن مَناقِبِ(٤٢)

وقال مهاجماً المتنبّي: «فعني بالتهامي النبيّ صلّى الله عليه، وهذه العبارة تقتضي جهله أو قلّة أدبه، فضّ الله تعالى فاه»(٤٣).

٣٦- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، ج ١، ص ٣٨٢.
٣٧- المتنبّي، الديوان، ص ١٣.
٣٨- نفسه، ص ١٣٣.
٣٩- نفسه، ص ٣٥.
٤٠- الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٨٦. وقد نُسب هذا الكلام إلى الإمام علي بن أبي طالب أيضاً. أنظر: الكليني، أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٢٩.
٤١- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبّي، ج ١، ص ٤.
٤٢- المتنبّي، الديوان، ص٢١١.
٤٣- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، ص ١٤٢.

ولكن في المقابل دافع ابن جنّي عن المتـــنبّي أمام هذه الاتّهامات عنـــدما قال في شرحه لهذا البيت: «ليسَتْ الاعتقاداتُ والآراءُ في الدين ممّا يقدحُ في جودة الشعر ورداءته، لأنّ كلاًّ منفردٌ عن صاحبه»(٤٤). ويمثل هذه العبارات دافع القاضي الجرجاني عن المتنبّي، عندما قال مشيراً إلى بعض هذه الأبيات المذكورة: «والعَجَب ممن ينقص أبا الطيّب، ويغضّ من شعره، لأبيات وجدها تدلّ على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ...، فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسمُ أبي نواس من الدواوين، ... ولكنّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر»(٤٥).

كما أجاب أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران عن رسالة أرسلها إليه علي بن منصور المعروف بابن القارح الّذي اتّهم المتنبّي فيها بالزندقة والإلحاد، قائلاً: «وقد دلّت أشياء في ديوانه على أنّه كان متألّهاً،... وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان»(٤٦).

ومن الّذين دافعوا عن المتنبّي في مجال العقيدة أيضاً عبد الوهاب عزّام إذ يقول: «مثل هذه الأبيات تدلّ على الغلوّ في المدح وقلّة المبالاة، وتفسيرها بالغلطة والجرأة كالعبارات الّتي خاطب بها الممدوحين وأخذه عليها النّقاد، أولى من تفسيرها بالزندقة والإلحاد»(٤٧).

ونحن هنا لسنا بصدد تفصيل هذه الآراء المتضاربة، إلاّ أننا متيقّنون أن في ديوان الرجل أبياتاً تدلّ على استخفافه بالدين. مع ذلك كلّه لا نستطيع أن نرميه بالإلحاد والكفر أبداً. فهناك أبيات في ديوان الشاعر تدلّ على إيمانه بالله واحترامه للنبيّ محمّد وأهل بيته، نحو:

أي كَبَتَ كُلَّ حـــاسِدٍ مُنـــافِق   أَنتَ لَنـــا وكُلُّنـــا لِلخــالِق(٤٨)
فَأَنتَ حُسامُ المُلكِ وَاللَهُ ضارِبٌ   وَأَنتَ لِواءُ الدينِ وَاللَهُ عاقِدُ(٤٩)

٤٤- ابن جنّي، الفَسر، ج ٢، ص ٥١٨ – ٥١٩.

٤٥- الجرجاني، الوساطة، ص ١٠٧-١١١.

٤٦- المعرّي، رسالة الغفران، ص ١٣٤.

٤٧- عبد الوهّاب عزّام، ذكرى أبي الطيّب، ص ٢٥٧.

٤٨- المتنبي، الديوان، ص ٢١٦. والكبت: الإذلال والقهر.

٤٩- المصدر نفسه، ص ٣١٤.

فَتَمليكُ دِلَّيـــرٍ وتَعظيمُ قَــدرِهِ شَهيدٌ بِوَحــدانيَّةِ اللَّهِ وَالعَدلِ(٥٠)
لستَ الملــومَ أنا الملــومُ لأنّني أنزلتُ آمـــالي بغير الخـــالق(٥١)
أَستَغفِــرُ اللَّهَ لِشَخصٍ مَضــى كــانَ نَــداهُ مُنتَهــى ذَنبِــهِ(٥٢)
هُوَ اِبنُ رَسولِ اللَّهِ وَاِبنُ وَصيِّهِ وَشِبهُهُما شَبَّهتُ بَعدَ التَجارِبِ(٥٣)

وفضلاً عن ذلك يرى بلاشير أنّ المتنبّي قرأ القرآن في الكتّاب كغيره من المسلمين، وقد أثّر هذا الكتاب على تكوينه الفكري والخلقي(٥٤). هذا وقد وجدنا في ديوان المتنبّي نماذج من تأثّره ببعض المضامين الحكميّة الموجودة في الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والأقوال المأثورة لعلي بن أبي طالب.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذا الاستخفاف بالدين قد أثّر في مضامينه الحِكميّة وموضوعاتها ومن أبرزها قلّة المضامين الدينيّة في ديوانه عموماً وفي حِكمته خصوصاً.

أمّا المعتقدات الدينيّة عند سَعدي، فإنّها من أبرز سمات شخصيته، ومن أهمّ المحاور الّتي يدور عليها أدبه نظماً ونثراً، وهي بدورها أحد أهمّ المؤثّرات في حِكمته أيضاً. يقول علي دشتي وهو من الباحثين في أدب سعدي: « إنّ المعتقدات الدينيّة هي أساس حركة سَعدي الفكريّة ومجال أبحاثه الأخلاقية، فأورد المبادئ الدينيّة الّتي التزم بها الشاعر نفسُه عمليّاً، ولم يتكلّم في هذا الأمر على وتيرة المرائين، ولا بلغة محترفي الزهد الجافّة المملّة، بل لقد مزج الديانة والأخلاق بعضها ببعض بلسان فصيح وتعابير جديرة وجذّابة»(٥٥).

ويشير شبلي النعماني في كتابه شعر العجم إلى إحدى حكايات گلستان الّتي تدلّ

٥٠- (المصدر نفسه، ص ٥٢٤. ودلّير اسم الممدوح وهو أبو الفوارس دلّير بن لشكروز قائد جيش أرسله عضد الدولة لقتال بني كلاب الّذين خرجوا بغية السيطرة على الكوفة عام ٣٥٢/٩٦٢. عبد الوهّاب عزّام، «مقدّمات القصائد»، في: المتنبّي، الديوان، ص ٥١٩.

٥١- (لم نجد هذا البيت في ديوان المتنبّي، ولكن المصادر تنسبه إلى المتنبّي برواية تاج الدين الكندي. أنظر: ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢١؛ صلاح الدين الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، ص ١٨٠؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٥٤؛ العبّاسي، معاهد التنصيص، ص ١١.

٥٢- المتنبّي، الديوان، ص ٥٧٤.

٥٣- المصدر نفسه، ص ٢١٢.

٥٤- بلاشير، أبو الطيّب المتنبّي، ص ٤٥.

٥٥- علي دشق، قلمرو سعدى، ص ٣٥٠.

على أنّ سَعدي قد سهر ذات ليلة مع أبيه لأداء صلاة النافلة وتلاوة القرآن، ويستنتج منها أنّ سَعدي كان يشتاق إلى العبادة متأثّراً بتعاليم أبيه في الصغر[٥٦].

يرتجف سَعدي خوفاً من الموت وارتكاب المعاصي والنار، وكلّ ذلك يقرّبه إلى الله تعالى، فلهذا نرى مناجاته ممزوجة بالخوف والرجاء[٥٧]. نراه يدعو الله، ويطلب منه التوفيق والقيام بالعمل الصالح حتّى لهولاكو المغولي الملحد، يقول في أثناء مدحه:

يارب تو هر چه راى صوابست وفعل خير   اندر دل وى افكن وبر دست وى بران[٥٨]

أي:– ياربّ، ألهِمْه كلّ رأيٍ صائب وأنجزْ بيده كلّ فعل خير.

وننهي كلامنا على المعتقدات الدينيّة لسَعدي بأنه يبدأ كلّ آثاره بذكر الله ومناجاته ونعت النبيّ محمّد (ص) والخلفاء الراشدين ويُنهيه أيضاً بمناجاة الله، فعلى سبيل المثال يقول في البيت الأوّل من بوستان:

بنامِ خـــدايى كه جـــان آفريد   سخـــن گفتن انـــدر زبان آفريد

خداوندِ بخشـــنده ى دستگير   كريـــمِ خطا پـــوشِ پوزش پذيـــر

عزيزى كه هر كز درش سر بتافت   به هر در كه شد هيچ عزّت نيافت

سر پادشـــاهانِ گردن فـــراز   به درگـــاهِ او برزميـــن نيـــاز[٥٩]

أي: ــ بسمِ اللهِ الّذي خَلَقَ الأرواحَ، وأجرَى الكلامَ على اللسانِ.

ــ الخالقُ الرحمنُ المغيثُ، الكريمُ ستّارُ العيوبِ وغفّارُ الذنوبِ.

ــ العزيزُ الّذي خاب الوافدون على غيره.

ــ فيضعُ الملوكُ الأقوياءُ رؤوسهم، على أعتابِ بابه لطلبِ الحاجةِ.

كما خصّص الباب العاشر ــ وهو الأخير من بوستان ــ بذكر الله ومناجاته وطلب الاستغفار منه، فقال في مطلع هذا الباب الّذي تبلغ أبياته مائة وعشرة أبيات:

بيـــا تـــا برآريـــم دستي زِ دل   كه نتوان برآورد فـــردا زِ گِل[٦٠]

أي: ــ تعال لنمدّ يداً إلى الله مخلصين، إذ لا يمكن مدّ اليد غداً من تحت التراب.

٥٦– شبلي النعماني، شعر العجم، ج ٢، ص ١٩–٤٠.

٥٧– غلامحسين زرّين كوب، با كاروان حلّه، ص ٢٥١.

٥٨– سَعدى، كلّيات، ص ٧٣٦.

٥٩– سَعدى، بوستان، ص ٣٣.

٦٠– سعدى، بوستان.، ص ١٩٦.

وقال في الأبيات الأربعة الأخيرة من هذا الباب معترفاً بذنبه، طالباً العفو والمغفرة من الله:

زِلطفت همیـــن چشـــم داریم نیـــز   بر این بی بضاعت ببخش ای عزیز
کس از من سیه نامه تر دیده نیست   که هیچم فِعـــالِ پسندیده نیست
جز این کاعتمـــادم به یاری تُست   امیـــدم بـــه آمرزگـــاری تُست
بِضـــاعت نیـــاوردم اِلاّ امیـــد   خدایـــا زعفوم مکن نـــا امیـــد[٦١]

أي: ــ أتوقّعُ من فضلكَ أن تغفرَ لهذا الفقيرِ الضعيفِ، أيّها الخالقُ العزيزُ.

ــ ليسَ أحدٌ أكثرَ معصيةً منّي، إذ لا عملَ صالحَ لي؛

ــ ولكنّني اتّكلتُ على عنايتِك، ورجوتُ عفوك ومغفرتَك.

ــ فليستْ عندي بضاعةٌ إلاّ الأملُ، فلا تؤيسْني يا ربِّ مِن عفوِك.

الخاتمة

هكذا اتّضح لنا أنّ أخلاق المتنبي وسَعدي من أهمّ المؤثّرات على حِكمة المتنبّي وسَعدي. لأنها تؤثّر على الحِكمة من جهتين، الأولى بتأثيرها على إقبالهما إلى الحِكمة كالمؤثّرات الشخصيّة الأخرى نحو أساتذة الشاعرين وأسفارهما، والثانية بتأثيرها على المضامين والموضوعات الحكميّة الملائمة لنفسيّة كلّ منهما وخصائصهما الأخلاقيّة.

واتّضح لنا أيضاً أنّ هناك بوناً شاسعاً بين أخلاق المتنبّي وسَعدي ونفسيتيهما، ونحن لا نشكّ في أنّ الشاعرين مختلفان في هذا الجانب كلّ الاختلاف، إذ لا نلاحظ أيّ تشابه بينهما، فكلّ ما ذكرنا في المحاور الثلاثة من هذه المقالة هو تفاوت وتباعد بل تناقض وتعاكس. لأنّ تواضع سَعدي يناقض غرور المتنبّي، وتفاؤله عكس تشاؤم المتنبّي، وتديّنه يناقض ضعف عقيدة المتنبّي. فبقدر ما كان المتنبّي متعالياً ومغروراً كان سَعدي متواضعاً ومعتدلاً، وبقدر ما كان المتنبّي متشائماً وحاقداً على الدهر والناس كان سَعدي متفائلاً ومحبّاً للإنسانيّة جمعاء، وبقدر ما كان المتنبّي ضعيف الاعتقاد كان سَعدي متديّناً مؤمناً.

---

٦١ – المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

فالتفاوت في كلّ هذه القضايا المرتبطة بنفسيّة الشاعرين وأخلاقهما أدّى بدوره إلى التفاوت بين الشاعرين في مدى إقبالهما على الحِكمة أوّلاً، والاختلاف في مضامينهما الإيجابيّة والسلبيّة ثانياً. كما أدّى إلى الاختلاف في مكانة الحِكمة ووظيفتها عند الشاعرين أيضاً.

ومن مظاهر هذا التفاوت أنّ اهتمام سَعدي بالحِكمة أكثر بكثير من اهتمام المتنبّي. وقد استندنا في كلامنا هذا إلى عدّة أمور، أهمّها: الحجم الكبير جدّاً للحكمة في كلّيات سَعدي مقابل حجم القليل في ديوان المتنبّي، وأنّ المنظومات الخاصّة بالحِكمة عند سَعدي كثيرة جدّاً، في حين أنّ المنظومات الخاصّة بالحِكمة في ديوان المتنبّي لاتتعدّى منظومتين أو ثلاث منظومات، وإنّ الحِكمة عند المتنبّي وسيلة للوصول إلى الثروة والسلطان، بينما هي وسيلة للموعظة والإرشاد عند سَعدي، أي: الحِكمة عند الأوّل وسيلة، وعند الآخر غاية. ذلك لأنّ الهدف الأساس من الحِكمة عند سَعدي النصح والإرشاد إمّا للناس أو الممدوح أو لنفسه أحياناً، في حين أنّ الهدف الأساس عند المتنبّي المدح والفخر والهجاء. فخلاصة الكلام في هذا المجال أنّ معالجة نفسيّة الشاعرين تُظهر لنا التفاوت بين المتنبّي كشاعر المدح وسَعدي كشاعر الموعظة والنصيحة، أي: التفاوت بين المدّاح والواعظ، وإن اشترك الشاعران فيما يؤخذ عليهما، لوجود بعض التناقضات بين حكمة الشاعرين وحياتهما، من قبيل التكسّب والإباحيّة.

أمّا تأثير هذا الاختلاف في المضامين الحكميّة وموضوعاتها الإيجابيّة والسلبيّة، أي في الحثّ على الفضائل والتحذير من الرذائل، فيظهر في الإكثار من بعض المضامين دون غيرها. بعبارة أخرى كلّ ما ذكرناه هو من التفاوت في نفسيّة الشاعرين، فكان حثُّ المتنبّي على الشجاعة والجرأة أكثر بكثير من حثّ سَعدي عليهما، وبالعكس لا يقاس إقبال سَعدي على التواضع مع إقبال المتنبّي عليه. وكذلك إنّ المتنبّي ما حثَّ على القناعة والعدالة ولم يمنع عن الأنانيّة والغرور، في حين أنّ سَعدي حثّ كثيراً على القناعة والعدالة والإنصاف ومَنَع عن الغرور والأنانيّة.

وكانت هذه المقالة دراسة موجزة ومتواضعة في نفسيّة كلّ من المتنبّي وسعدي وتأثيرها على حِكمة الشاعرين.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر والمراجع العربيّة

١ــ ابن جنّــي، أبو الفتح عثمان، ١٠٠٢/٣٩٢، شرح ديوان المتنبّي المسمّى بالفَسر، تحقيق وتقديم رضا رجب، الطبعة الأولى، دمشق، دار الينابيع، ٢٠٠٤م، خمسة مجلّدات.

٢ــ ابن خلّكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد، ١٢٨٢/٦٨١، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق وتعليق محمّد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، ١٩٤٨م، ثمانية مجلّدات.

٣ــ ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، ١٠٦٤/٤٥٦، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمّد عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلميّة، ٢٠٠١م، مجلّدان.

٤ــ ابن شاكر الكتبي، محمّد، ١٣٦٣/٧٦٤، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عبّاس، لا طبعة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣ - ١٩٧٤م، خمسة مجلّدات.

٥ــ الأرفه لي، بلال وليد، ملامح الأدب العربي في قصور البويهيّين، ١٥٣ صفحة (مستنسخة)، رسالة ماجستر، اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأميركية في بيروت، كليّة العلوم والآداب، حزيران ٢٠٠٣م.

٦ــ البديعي، يوسف، ١٦٦٢/١٠٧٢، الصبح المنبي عن حيثية المتنبّي، لا طبعة، دمشق، مكتبة عرفة، لا تاريخ.

٧ــ بلاشير، ريجيس، أبو الطيّب المتنبّي، دراسة في التاريخ الأدبي، ترجمة ابراهيم الكيلاني، لا طبعة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٥م.

٨ــ الثعالبي، أبو منصور، ١٠٣٨/٤٢٩، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمّد قميحة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٨٣م، أربعة مجلّدات.

٩ــ الجرجاني، علي بن عبد العزيز، ١٠٠٢/٣٩٢، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، تحقيق وشرح محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاري، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥١م.

١٠ــ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ١٣٦٣/٧٦٤، نصرة الثــائر على المثل السائر، تحقيق محمّد علي سلطاني، لا طبعة، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، ١٩١٧/١٣١٩م.

١١ــ الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر ورفاقه، الطبعة الثانية [طبع على نفقة وزارة الأبحاث العلميّة والتكنولوجيّة التابعة لألمانيا الاتّحاديّة، بإشراف المعهد الألماني للأبحــاث الشرقيّــة في بيروت]، بيروت، دار صادر، ١٣٨١/ ١٩٦٢م، تسعة وعشرون مجلّداً.

١٢ــ العبّاسي، عبد الرحمن بن أحمد ، ١٥٥٦/٩٦٣، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لا طبعة، [قسطنطنيّة]، لا ناشر، لا تاريخ.

١٣ــ البرقوقي، عبد الرحمن، شـــرح ديوان المتنبّي، تحقيق عمر فاروق الطباع وتعليقه، الطبعة الثانية، بيروت، دار الأرقم، ١٩٣٨م ، مجلّدان.

١٤ــ البغدادي، عبد القادر بن عمر، ١٦٨٢/١٠٩٣، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، الطبعة الأولى، [وبهامشه كتاب المقاصد النحويّة في شرح شواهد شروح الألفيّة المزري المشهور بشرح الشواهد الكبرى للإمام محمود العيني]، بيروت، دار صادر، لا تاريخ، أربعة مجلّدات.

١٥ــ الحميري، محمّد بن عبد المنعم، القرن الثامن/ الخامس عشر، كتاب الروض المعطـــار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق إحسان عبّاس، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسّسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م.

١٦ــ عــزّام، عبد الوهّــاب، ذكــرى أبـــي الــطيّب، الطبعة الثالثة، القاهــرة، دار المعارف، ١٩٦٨م،٣٢٠ صفحة.

١٧ــ الكليني، أبو جعفر محمّد بن يعقوب،٩٤١/٣٢٩، الكـــافي، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفّاري، الطبعة الرابعة، تهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٩٨٥، ثمانية مجلّدات.

١٨ــ المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسن، ٩٦٥/٣٥٤، الديوان، صحّحها وقارن نسخها وجمع تعليقاتها عبد الوهّاب عزّام، القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة، ١٩٤٤م.

١٩ــ شــاكر، محمود، المتنبّــي، رســالة في الطريق إلى ثقافتنا، لا طبعة، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٨٧م.

٢٠ــ الشعكة، مصطفى، أبو الطيّب المتنبّي في مصر والعراقين، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار المصريّة اللبنانيّة، ٢٠٠١م.

٢١ـ أبو العلاء المعرّي، أحمد بن عبد الله، ١٠٥٧/٤٤٩، رسالة الغفران، تحقيق إبراهيم اليازجي، الطبعة الأولى، القاهرة ، مكتبة قومسيون، لا تاريخ.

٢٢ـ الواحدي، أبو الحسن على بن أحمد النيسابوري، ١٠٧٦/٤٦٨، شرح ديوان المتنبّي، تصحيح وفهرسة فريدرخ ديتريصي، لا طبعة [طبع في مدينة برلين المحروسة]، بيروت ، دار صادر، ١٨٦١م، مجلّدان.

٢٣ـ اليازجي، ناصيف بن عبد الله، ١٨٧١/١٢٨٨، العَرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب، بيروت، مطبعة القدّيس جارجيوس، ١٨٨٢م.

٢٤ـ ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، ١٢٢٩/٦٢٦، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الطبعة الأولى، بيروت، دارالكتب العلميّة، ١٩٩١م، ستّة مجلّدات.

ب ـ المصادر والمراجع الفارسيّة

٢٥ـ دامادى، محمّد، سعدى شاعر جامع ومأخذ چند حكايت بوستان، صفحه ٣٤٧-٣٦٨، در ذكرِ جميلِ سعدى، چاپ پنجم، تهران، كمسيون ملّى يونسكو وسازمان چاپ وانتشارات وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى، ١٩٩٧/١٣٧٧، جلد دوّم.

٢٦ـ دشتى، على، قلمرو سَعدى، چاپ دوّم، تهران، انتشارات أساطير، ١٣٨٠/ ٢٠٠٠.

٢٧ـ زرّين كوب، عبد الحسين، با كاروان حلّه، مجموعه نقد أدبى، چاپ نهم، تهران، انتشارات علمى، ١٣٧٤.

٢٨ـ سَعدى، مصلح الدين عبد الله، ١٢٩١/٦١٠، بوستان، سَعدى نامه، تصحيح وتوضيح دكتر غلامحسين يوسفى، چاپ پنجم، تهران، انتشارات خوارزمى، ١٩٩٦/١٣٧٥.

٢٩ـ سعدي، كلّيات، شرح وتقديم عباس اقبال آشتيانى، چاپ ششم، تهران، نشر علم، ١٣٧٢/ ١٩٩٣، [طبعة استثنائيّة، وقد أشير إليها في الحواشي بكلمة «اقبال»]

٣٠ــ سعدي، كلّيات، تحقيق محمّد على فروغى، بدونِ نوبتِ چاپ، تهران، انتشارات امير كبير، ١٣٦٥/١٩٨٥.

٣١ــ كمالى سروستانى، كورش، ديباچه، صفحه ٧ - ٩، در سَعدى شناسى [دفتر اوّل]، به كوشش كوروش كمالى سروستانى، چاپ نخست، شيراز ، دانشنامه فارس، ١٣٧٧/ ١٩٩٧، دفتر اوّل.

٣٢- مهاجراني، عطاء الله، نصائح سَعدي لأبناء القرن العشرين، الدراسات الأدبية، بيروت، الدورة الجديدة، السنة الأولى، ٢٠٠٠م، العددان ٣ و٤، الصفحات ١٤- ٤٠.

٣٣- نعمانى، شبلى، شعر العجم: تاريخ شعر وأدبيات ايران، ترجمه محمّد تقى فخر داعى گيلانى، چاپ سوّم، تهران، دنياى كتاب، ١٣٦٨/١٩٨٢، دوجلدى.

ج- المراجع الأجنبيّة

34-Browne (G. Edward). – *A Literary History of Persia*: From Firdawsi to Saʿdī. – seventh published. – London: Camberidge University, 1964. – Volume II.

35-Schimmel, (A.). –*Persian literature*؛ edit by Ehsan yarshater. – U.S.A, 1919.

36- Davis, (R.). – "Saʿdī", in *Encyclopaedia of Islam*. – New edition. – Leiden : Brill, 1995. – Volume VIII, pp. 719 – 723.

جماليّة توظيف المصطلحات الصرفية والنحوية والعروضية في لزوميات المعرّي

د. سيد مهدي مسبوق*

د. علي باقر طاهري نيا**

مهدي تركاشوند***

الملخص:

شهد العصر العباسي ازدهارا واسعا في مختلف مظاهر الحياة ونشطت الحركة العلمية ووضعت مصطلحات كثيرة وجديدة في مختلف فروع المعرفة ودخلت بعض هذه المصطلحات في الأدب وجرت على اقلام الكتاب وألسنة الشعراء. فمن الطبيعي ألا تخلو منها أشعار كبار الشعراء كأبي تمام والمتنبي والمعري وغيرهم. ولما كان المعري ذا موهبة غزيرة وثقافة واسعة في مختلف العلوم والمعارف فقد أكثر من استخدام هذه المصطلحات العلمية في شعره خاصة ديوانه اللزوميات، وإسرافه في توظيف هذه المصطلحات في شعره قد أثار إعجاب فئة من النقاد والدارسين كما أثار طعن فئة أخرى.

هذا والمعري قد تعرض لمصطلحات العلوم المختلفة من الصرف والنحو والعروض والفلك والكيمياء والطب وغيرها. ومن الواضح أن دراسة هذه المصطلحات في شعره تكشف عن جانب من أفكاره وآرائه كما تنم عن سعة إلمامه بهذه العلوم وغزارة أدبه، فمن ثم تتوقف هذه الورقة عند المصطلحات الصرفية والنحوية والعروضية التي استخدمها الشاعراستخداما فنيا وذوقيا لايستوعبها المتلقى الا بعد التأمل في الجانب الفني والتي قد استخدمه الشاعر لتصوير خوالج نفسه والتعبير عن آرائه.

الكلمات المفتاحية:

المعري، المصطلحات، الشعر، الصرف، النحو والعروض.

---

* استاذ مساعد في جامعة بوعلي سينا بهمدان.

** استاذ مشارك في جامعة بوعلي سينا بهمدان.

*** طالب ماجستير في اللغة العربية و آدابها.

المقدمة

هوأحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي الملقب بالمعري والمكنى بأبي العلاء، قد ولد في معرة النعمان سنة٣٦٣ للهجرة وتوفي فيها سنة ٤٤٩ للهجرة .

ويبدو أنه لم يكن راضياً لا عن اسمه ولا عن كنيته، حيث اشار إلي ذلك غير مرة، منها ما قاله عن كنيته:

دُعِيْتُ أباالعلاء و ذاك مَينٌ   ولكنّ الصحيحَ أبوالنزولِ[١]

وعن اسمه الاول:

وأحمدَ سمَّاني كبيري، وقلَّما   فعلتُ سوى ما أستحقٌّ به الذما[٢]

أُصيبَ أبوالعلاء بالجدري في الرابعة من عمره فصار ضريراً لايرى إلا الظلمة. وقد اشار إلي هذه العاهة في لزومياته اشارات كثيرة ذات لوعة وحزن، منها:

ذهابُ العينِ صانَ الجسمَ آونَةً   عن التطريحِ في البيد الأماليسِ[٣]

مع هذا كله، وهبه الله نعمة جليلة نابت مناب عماه وهي ذاكرته القوية العجبية التي أسعفته في التفوق على معاصريه وفي تحصيل العلوم والقراءة والكتابة واصبحت خير معين له. درس المعري علوم الأوائل من النحو واللغة والعروض والحديث على مشاهير عصره، ثم هم بالأسفار، ورحل إلى المدن الشامية كأنطاكية وطرابلس وحلب واللاذقية للإستزادة من العلم ثم ولى وجهه شطر بغداد منتجع العلماء وقبلة الأدباء في ذلك الحين. وبعد أن أروى ظَمأه عبرالجولة في هذه المدن والاختلاف إلى الاوساط العلمية فيها والتعرف إلى الحضارات العريقة كحضارة الفرس والهنود واليونان عاد إلى مسقط رأسه معتزلاً الناس ومكتفياً باليسير من الطعام والكفاف من القوت مسمّياً نفسه رهين المحبسين يعني حبس النفس في المنزل وحبس البصر عن الرؤية. وظل الشاعر في هذين المحبسين زهاء خمسين عاماً. ولما أنتابته الأمراض وشعر بدنوّ موته أوصى بأن يُكتب على قبره:

هذا جناه أبي عَلَيَّ   وما جنيتُ على أحد[٤]

١- لزوم، ص٣٦
٢- نفسه، ص٣٠٧
٣- نفسه، ص٧٢
٤ – ابن خلكان، ؟، ص١١٥

بقي المعري في قيد الحياة حتي سنة ٤٤٩ للهجرة. ولما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعرا مراثي، منها أبيات لعلي بن الهمام من قصيدة طويلة في رثاه ومنها:

إن كنتَ لم تُرِق الدماء زهادةً فلقد أرقتَ اليوم مِن جفني دما

سيرت ذكرَك في البلاد كأنه مسكٌ فسامعخ يضَمِّخ أو فما

وأرى الحجيج إذا أرادوا ليلةً ذكراك أخرَج فدية مَن أحرَما[٥]

وقد أدرك أربعة من خلفاء بني العباس من المطيع لله الفضل بن المقتدر إلى القائم بأمر الله عبدالله بن القادر و كذلك أدرك خمسة من الخلفاء الفاطميين من المعزّ لدين الله معدّ بن المنصور إلي المستنصر بالله معد بن الظاهر[٦].

نظرة على أهم ميزات شعر المعري

كان المعري مطلعاً على أشعار القدماء ومتطلباً غرائبَ أشعارهم، والمتنبي الذي كان من أبرز الأعلام في الشعر العربي قد أُعجب به شاعرنا خاصة في الشطر الأول من حياته الأدبية وقبل أن يعكف على العزلة. وقد ظهر صدى هذا الإعجاب في ديوانه سقط الزند جلياً، حيث أخذ الشاعر يجري فيه على منهج المتنبي، خاصة في معانيه الحكمية وفخرياته. وفي معرض دراسته لشعر المعرّي ، يشيرالدكتور شوقي ضيف إلى هذه القضية قائلاً:«بدأ أبوالعلاء حياته الفنية في الشعر بتقليد المتنبي إذ كان يتعصب له تعصباً شديداً، وسقط الزند خير ما يفسر هذا الطور من تقليده إذ تراه ينظم على طريقة المتنبي السابقة، فهو يعني بالغريب والشاذ في التراكيب، كما يعتد بالتصنع...»[٧].

ومن أبرز مظاهر تعصب المعري لأبي الطيب ما حدث له في بغداد مع الشريف المرتضى، إذ روي أنه قد جرى في بعض مجالس الشريف المرتضى ذكرُ أبي الطيب فهضم المرتضى من جانب المتنبي فقال المعري: لو لم يكن له من الشعر إلاّ قوله: لك يا منازل في القلوب منازل، لكفاه، فغضب المرتضي وأمر بحبسه وقال للحاضرين أتدرون ما عنى هذا بذكر البيت؟ قالوا: لا، قال: عني به قول المتنبي:

---

٥ ـ الحموي،١٤٠٠:ج٣ص١٢٦

٦ ـ النجار،١٤١٨:ص٦٨

٧ ـ ضيف،؟ ص٣٨١

وإذا أتتْك مذِّمتي من ناقص فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ[٨]

ومما يدل كذلك على شغف أبي العلاء بأشعار المتنبي أنه شرح ديوانه في كتاب سَمّاه «اللامع العزيزى» وقد أهداه إلى الأمير عزيز الدولة، الذي تولي امارة حلب سنة ثلاث وثلاثين واربعمئة[٩]. ويذكر ابن خلكان أنه لما فرغ من تاليف كتاب «اللامع العزيزي» قرىء عليه فقال: كأنما نظر اليّ بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممٌ

ثم أشار ابن خلكان إلى أنه ألف كتابا آخر مختصرا في شعر المتنبي سماه «معجز احمد» تكلم فيه عن غريب اشعاره ومعانيه ومآخذه على غيره[١٠].

أما الخصائص اللفظية لشعر المعري فتتجلى في ثروته اللفظية وبلاغة تراكيبه والأكثار من التكلف والتنميق بضروب البديع. وكانت ثروته اللفظية تشتمل على الكثير من الألفاظ الغريبة والتعابير النادرة والمترادفات الكثيرة[١١].

أصبح اللجوء إلى الصناعة والتكلف ميزة بارزة في عصر المعري وميداناً واسعاً لإظهار المقدرة الأدبية واللغوية بين الشعراء ولم يكن شاعرنا بمعزل عن هذه النزعة وإنما رافقها وشغف بها وأصبحت طابعا مميزا لشعره، وخير مثال على هذا التكلف هو ديوانه المسمى باللزوميات، وعني المعري بالمحسنات البديعية في شعره عناية فائقة وأسرف في التلاعب بالألفاظ والتلميحات التاريخية واستخدام المصطلحات العلمية حيث يقول الدكتور كمال اليازجي عن هذه الظاهرة في شعره: «والذي يظهر لدارس مؤلفات المعري أن عناية المؤلف في الشكل لم تكن اقل منها في الموضوع، بل ربما كانت القيمة في الكثير منها للشكل دون الموضوع، شأن الكثيرمن رسائله. فمؤلفاته جملة مظهر لسعة اطلاعه اللغوي ومرونته في تقليب الألفاظ والتراكيب ومقدرته في التنميق والتزيين والتجنيس وربما كان العامل الأول في تصنيف عدد من مؤلفاته إبراز هذه المقدرة والتبجّح بسعة العلم»[١٢].

---

٨ ـ حسين ،١٣٨٤ق، ص١٠٣

٩ ـ علي محمد،١٩٩٧م،ص١٥١

١٠ ـ ابن خلكان ،ص١١٤

١١ ـ اليازجي،١٤١٧، ص٢٢

١٢ ـ المرجع السابق

وأكثر المحسنات البديعية في شعر المعري استعمالاً هوالتجنيس والطباق والمقابلة والتورية ورد العجز على الصدر، والتجنيس بأنواعه المختلفة أكثرها استعمالاً، حيث يظهر الشاعر في لزومياته شغوفا به إلى حد الجنون. يقول الدكتورشوقي ضيف في سياق دراسة التصنع في لزوميات الشاعر: «إن أبا العلاء استطاع ان يستخدم هذا الجناس استخداماً مزدوجاً، فهو يأتي به غالباً ليعبرعن جناس من جهة وليعبر عن لفظ غريب من جهه أخري. كان أبوالعلاء يستخدم الجناس استخداماً لغوياً يريد به أن يدل علي مهارته في اللغة قبل ان يدل على مهارته في استخدام لون قديم من الوان التصنيف»[١٣].

ضاع اكثر مؤلفات المعري والمعروف والمطبوع من آثاره اليوم هو:

- لزوم ما لا يلزم
- سقط الزند
- ضوء السقط
- رسالة الغفران
- ملقي السبيل
- الفصول والغايات
- زجر النابح ومجموعة من الرسائل.

لمحة عن شيوع المصطلحات العلمية في الشعر العباسي

لقد اشتد احتكاك العرب بالثقافات الأجنبية في العصر العباسي ونشطت الحركة العلمية ونهضة الترجمة وحُملت إلى المسلمين قواعد المنطق والعلوم العقلية والفلسفة وظهر في ميدان الأدب شعراء قد تعرفوا إلى الكثير من هذه العلوم والمعارف وتعرضوا لها واستخدموا مصطلحاتها في أشعارهم استخداما استعاريا وذوقيا ،منهم أبو تمام وأبو الفتح البستي والمتنبي والمعري، من ذلك قول أبي تمام يصف الخمر مستخدما مصطلح الصرف:

خَرقاء يلعب بالعقول حبابُها   كَتلاعب الافعالِ بالاسماء[١٤]

وقوله متمثلا بألفاظ علم المنطق :

١٣ ـ ضيف،؟:٣٩٩

١٤ ـ ديوان،١٩٩٤، ص٢٧

صاغَهم ذو الجلال مِن جَوهَر المجدِ وصاغَ الأنامَ مِن عَرَضِهِ[١٥]

ومن هذا القبيل قول أبي الفتح البستي:

وبصير بمعاني الشعـــ ـــر والإعراب جدا
قال لما أن رآنـــي طالبا مالا ورفدا
إن مالي يا حبـــيبي لازم لا يتـــعدي[١٦]

وقوله في موضع آخر:

عُزلتُ و لم أذنب ولم أكُ جانباً وهذا لإنصافِ الوزير خلافُ
حُذفتُ وغيري مثبتٌ في مكانهِ كأنيَ نونُ الجمعِ حين تُضافُ[١٧]

والمتنبي أيضا كان يجري على هذا المنوال ويوظف كثيرا من مصطلحات العلوم في شعره و «إنه لم يكد يترك شاذة نحوية إلا وتكلفها في قصائده»[١٨].

ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني:

إذا كان ما تَنويهِ فعلاً مضارعاً مَضَى قبلَ ان تُلقَى عليه الجوازمُ[١٩]

أما المعري فقد أكثر من استخدام المصطلحات العلمية في شعره خاصة في ديوانه اللزوميات الذي استخدم فيه شتى المصطلحات العلمية من كيمياء، وفيزياء، وفلك، وجيولوجيا، ورياضة، وطب، وصرف، ونحو، وعروض وقافية... وغيرها. وبما أن المقام يضيق بنا أن نوسع القول في كل هذه المصطلحات فإننا نكتفي منها ببعض المصطلحات الصرفية والنحوية التي ينبسط ظلها على شعره وقبل الخوض في صلب الموضوع نسلط الضوء على موقف النقاد والدارسين من هذه الظاهرة في شعر صاحبنا.

موقف الباحثين من هذه المصطلحات في شعر المعري

الفئة المؤيدة:

من النقاد من يقف موقفا ايجابيا من هذه الظاهرة في شعر المعري باعتبارها عاملا اساسيا في روعة شعرالمعري وجماله، منهم طه حسين، ومحمد الشريقي وحماد أبو

---

١٥ ـ المرجع السابق،ص٣٨١

١٦ ـ ديوان،١٩٨٩،ص٧٨

١٧ ـ المرجع السابق،ص١٧٦

١٨ ـ ضيف،ص٣١٠

١٩ ـ ديوان ،١٩٩٧،ص٣٠٢

شاويش. يرى الدكتور طه الحسين أن وجود هذه المصطلحات في لزوميات المعري «يدل على شدة تاثير الدرس اللغوي في ملكته الشعرية»[٢٠]. يبدو في هذه العبارة أن طه حسين يقف موقف المعجب بهذه الظاهرة في شعر المعري ويكشف بصراحة عن موقفه هذا في موضع آخرحيث يقول :«تصرف أبي العلاء باصطلاحات العلم بهذا النحو من التصرف أكسب شعره ظرفا»[٢١].

واستحسن محمد الشريقي أيضا صنيع المعري في هذا المجال واظهر موقفه الإيجابي من هذه المبادرة وذكر:«أنّ أبا العلاء عندما ياخذ باختراع المعاني العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية خاصة لا يسخر الشعر للعلم بل يسخرالعلم للشعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أوالنحوي أو الفلكي بالمعنى المنتقص في الذوق الأدبي بل هو الشاعر الملهم أبدا»[٢٢].

والدكتور حماد أبو شاويش يتبنى نفس الموقف ويحبذ ما وظفه المعري في شعره من مصطلحات العلوم قائلا: «إن المصطلحات ألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة ومن حق الأديب أن يستعمل منها ما يحتاج إليه ليحدد الفكرة التي يريد التعبير عنها ويوضح التجربة التي انفعل بها ولا يخفى أن كثيراً من معاني أبي العلاء جاءت جديدة والمعاني الجديدة قد تحتاج إلى لغة جديدة لأدائها أو لتطويع اللغة المستخدمة، وقد استطاع أبو العلاء حقا أن يستغل مصادر اللغة وثرواتها إلى أقصى درجة ولا نكاد نجد شاعراً في العربية بلغ درجته من توظيف مصادر اللغة في الشعر والنثر»[٢٣].

الفئة المعارضة:

رغم أن مثل تلك المصطلحات تمثل في رأي بعض النقاد والدارسين ألوانا جديدة لتصاويرالشاعــر المبدع التي يرسمها في شعره فقد ظهر من النقاد من يقف موقــفاً سلبياً مـــن هذه الظاهــرة باعتبارها مظــهراً من مظــاهر التصنيع والتــعقيد الفنـــي ووسيلة

٢٠ ـ طه حسين،؟:ص٢٠٥

٢١ ـ المرجع السابق،ص٢١٠

٢٢ ـ الشريقي،١٩٤٥:ص٢٢٢

٢٣ ـ أبو شاويش،١٩٨٩،ص٢٤٣

يتعمدها المعري ليثبت براعته اللغوية ومعرفته العلمية. منهم شوقي ضيف وأحمد الشايب. يقول الدكتور شوقي ضيف ناعياً على المعري إسرافه في استخدام هذه المصطلحات: «لا نستطيع أن نفهم هذا التصنع لاصطلاحات النحو والصرف والعروض، وكان يلح في طلبه إلحاحاً شديداً أليس يدل ذاك على أن التفكير الفني لم يعد يدخل فيه شيء طريف وأن الشعراء قد أحسوا إحساساً ما بإجدابهم فانطلقوا يتكلفون في شعرهم هذه الكلف التي لا تفصح عن جمال فني سوى التعقيد الذي يدخله الشعراء من ممرات وأبواب كثيرة»[٢٤].

يرى هذا الناقد أن المعري هو اول شاعرعربي وسع نطاق توظيف مصطلحات العلوم والفنون في الشعر العربي ويقول: «لعله اول من وَسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون ومن قبله كان المتنبي يتصنع لذلك ولكنه لم يسرف فيه إسراف المعري الذي ذهب يطرّز شعره بألفاظ العلوم والفنون بل أنّنا نراه يدخل مسائلها في آرائه، وكأنّه يريد منها الحجة والدليل علي ما يذهب إليه من فكرة أو رَأي»[٢٥].

ويتبنى أحمد الشايب نفس الموقف قائلاً: «أرسى المعري على سابقيه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها تظرف النحويين والفقهاء»[٢٦].

والدكتور عثمان موافي يرفض عكوف الشعراء على هذه الرموز والمصطلحات بعامة، إذ إنها ـ في رأيه ـ تخل بعنصر التخييل أوالإيحاء الذي هو عماد الشعر ويرى أن«استعمال المصطلحات العلمية والفلسفية يؤدي إلى طغيان عنصر الإقناع على عنصر التخييل ويفسد بذلك التعبير الشعري إذ يجنح به إلى التقرير والدلالة المباشرة، لا إلى الإيحاء والدلالة غير المباشرة »[٢٧].

---

٢٤ ـ ضيف،؟:ص٤٠٥

٢٥ ـ شوقي ضيف،؟: ٤٠٣ص

٢٦ ـ الشايب،١٩٤٥،ص٣٨

٢٧ ـ موافي،٢٠٠٠،ص٢٢٤

نماذج من المصطلحات الصرفية والنحوية والعروضية في شعر المعري

المصطلحات الصرفية

وظف المعري المصطلحات الصرفية والنحوية في شعره توظيفاً إستعارياً، لكنّه أكثرمن استخدام الصرفية منها. نبدأ بتحليل المصطلحات الصرفية قبل النحوية والعروضية.

ومن التمثيل بالإعلال قوله:

بتُّ كالواو بينَ ياءٍ و كسرٍ لا يلامُ الرجالُ إن أسقطوني[٢٨]

يصف المعري أحواله بين الناس وصفاً صرفياً ويشبهها بالواوالتي وقعت بين الياء والكسر[٢٩].

يريد الشاعر بهذا البيت أن يشير إلى أن شأنه في الاعتزال عن الناس شأن الواو في مضارع المثال الواوي وأمره ومصدره الذي تحذف منه الواو وتنفصل عن عين الفعل ولامه.

يعتقد أبوالعلاء إن الإنسان معذور في غدره وخيانته، لأنه قد ورث هذه الشيمة من آبائه:

وفي الأصل غشٌّ والفروع توابعٌ وكيفَ وفاءُ النجل والأبُ غادرٌ؟

إذا اعتلت الأفعالُ جاءتْ عَليلةً كَحالاتها أسماؤُها والمصادرُ

وقُل للغُراب الجَون إن كانَ سامعاً أأنت على تغييرِ لونِك قادرٌ؟ [٣٠]

يعلل المعري الصلة بين الأصول والفروع تعليلا صرفيا فيقول: الأفعال إذا كانت معتلة تبعتها مشتقاتها في الإعلال ولا تستطيع الخلاص منها. وعلى هذه القاعدة تتبع الفروع الاصول.

أما الغرض الذي قصده الشاعر فهو أن الابن يتخلق بأخلاق أبيه، إن كان الأب ذا نفس سليمة سيكون الابن سالما وإن كان خائناً سيحذوا الإبن حذوه.

ومنها قوله:

---

٢٨ ـ لزوم،ص٤٧٠

٢٩ ـ تُحْذف الواو التي هي فاء الفعل الثلاثي مفتوح العين في الماضي مكسورالعين في المضارع مثل: وَعَدَ ، وصف، فيجب حذف هذه الواو في المضارع والأمر. (النحو الوافي، عباس حسن، ٤: ٦٠٧)

٣٠ ـ نفسه، ص٣٤٣

إذا غدوتَ عن الأوطان مُرتحِلاً فضاهِ في البين حذفَ الواوِ في "يَعِدُ"
كانت فبانت وما حَنَّت إلي وطنٍ وعــادَ غادٍ إلي وكرٍ ولم تَعُدِ[٣١]

ينصح الشاعر المخاطب بالعزلة والتشبث بها ويقول: إذا رحلتَ عن وطنك فلا تعد إليه بل كن كالواو لأنها متى وقعت بين ياء وكسر تحذف لغرض صرفي فلا تعود إليه أبدا.

في موضع آخر يشبه نفسه بفعل قال في إعتلاله ويقول:

أُعللتُ عِلةَ "قالَ" وهي قديمةٌ أعيا الأطبةَ كلَّهم إبراؤُها[٣٢]

إنَه وظف في هذا البيت قاعدة صرفية للتعبير عن علة إنسانية واستمد من إعتلال قال وما يشبهها من الأفعال المعتلة وأشار بذلك إلى أنه لا يمكنه أن يبرأ من عاهته وعلتـه كما أن الأفعال المعتلة لا تبرأ من الاعتلال ويعني بذلك أن علته قديمة وأن الحياة ومـا فيها من الآلام والمصائب قد ثقلت عليه ولا نجاة له منها.

ومنها:

كم تَنْصَحُ الدنيا و لاتَقْبَلْ وفائـــزٌ من جَـدِّه مُقبِـلُ
إن أذاهـا مثلُ افعالِنا ماضٍ وفـي الحال ومُسْتَقْبَلِ[٣٣]

يخلق أبوالعلاء في البيت الثاني تصويراً رائعاً إذ يشبه أذى الدنيا بأزمنـة الأفعـال. ويقول كما ينقسم الفعل إلى الأزمنة الثلاثة[٣٤] كذا يستمر أذى الدنيا دائما ويشمل الماضي والحاضر والمستقبل.

ويقول مشبِها حالات الناس بإعراب الأفعال رفعاً ونصباً وخفضاً وجزماً:

وتُرفَع أجسادٌ وتُنصَب مَرَّةً وتُخفَضُ في هذا التُّراب وتُجزَمُ[٣٥]

يصف الشاعر أحوال الناس في النعمة والشقاء وصفاً صرفياً فكما يكون للفعل ثـلاث حالات من الرفع والنصب والجزم، للإنسان حالات مختلفة، كذلك منهم من ينعم في حياته

---

٣١ ـ نفسه، ص٣٠٩

٣٢ ـ نفسه، ص٥٦

٣٣ ـ نفسه، ص١٧٠

٣٤ ـ للفعل ثلاثةاقسام: ١-الماضي وهو فعل يدل على امرين :المعنى والزمان الذي فات٢-مضارع وهوكلمة تدل على امرين معا:المعنى و الزمن الصالح للحال او الاستقبال ٣-امر وهو كلمة تدل بنفسها على امرين :معنى مطلـوب تحقيقـه في زمـن مستقبل ولابد لفعل الامر ان يدل بنفسه مباشرة على الطلب .(النحو الوافي ، عباس حسن،١: ٢٧)

٣٥ ـ نفسه، ص٢٦٩

ومنهم من يشقي و يتحمل المصائب حتى يموت ويدفن، وهكذا جعل الشاعر الموت عامل خفض وسكون للإنسان.

وقال في ما يجمع على المؤنث السالم من غير العاقل:

إنَّ الرجالَ إذا لم يَحمِها رَشَدٌ مثلُ النساء عَرَاها الخُلف والخُلُف

ألا ترى جمعَ ما لا عقلَ يُسْنِدُه جَمعَ المونثِ[٣٦] فيه التاءُ والألفُ[٣٧]

عبى الشاعر بهذا البيت أن الرجل الذي لا يتمتع بالعقل في حياته يشبه المرأة الحمقاء. ولتبرير ما ذهب اليه إعتمد على قاعدة صرفية وهي أنّ جمع المذكر غير العاقل يكون على جمع المونث السالم.

وقال متمثلاً بعدم جواز تصغير المصغّر:

اردتَ إهانتي فحماكَ مني قضاءٌ فيّ كان له نُجوزُ

وجدتَني اللجينَ أو الثُّريَّا وتصغيرُ المصغَّر لايجوزُ[٣٨]

اللجين والثريا كلاهما علي زنة التصغير ولا يجوز تصغير المصغر، فاستمد المعري من هذه القاعدة الصرفية وقال: أراد عدوي تحقيري بتصغير شاني فوجدني كاللجين والثريا لا يجري عليهما التصغير لأنهما علي زنة التصغير والتصغير فيهما للتحبيب أو التعظيم فلا يمكن للشامت أن يحط من شأني .

وقال متمثلاً بعامل الخفض:

لا تدنَونَّ من النساء فإنَّ غِبَّ الأري مُرٌّ

والباءُ مثلُ الباءِ تَخـــ فِضُ للــدنـــاءة أو تُجُرُّ[٣٩]

يقول: إحذروا النساء فإن كان أول القرب منهن حلو كالعسل فعقباه مُرٌّ كالحنظل ثم إستعار قاعدة صرفية لإثبات دعواه وإقناع الآخرين وهـــي تشبيه النساء بالبـــاء الجارة

---

٣٦ ــ جمع المونث السالم ينقاس في ستة اشياء منها: في وصف مذكرغيرعاقل مثل:كلمة جميل في :هذه بساتين جميلات (النحو الوافي ، ١: ١٠٢)

٣٧ ــ نفسه،ص٥٠

٣٨ ــ أحد شروط الأسماء التي يدخلها التصغيرهو: ألا يكون الاسم مصغر اللفظ، مثل كميت ، دريد ، وســـويد. (النحـــو الوافي، ٤: ٥١٤)

٣٩ ــ نفسه، ص٣٩٠

خفضاً ودناءةً. الغرض الذي قصده الشاعر بهذه البيت هو كما «الباء الجارة» يعمل في الإسم ويجره، كذا القرب من النساء يسوق إلي العار والذل.

المصطلحات النحوية

ليست المصطلحات الصرفية هي التي يستمدُّ منها الشاعر فقط، بل يميل إلى النحو ويستعير منه مادته الشعرية ليعبر بها عن معتقداته وآرائه تجاه الحياة.

منها قوله:

سِرٌّ سَيُعلَن والحياةُ مُعارةٌ ولتَقضِينّ بها ديونَ المُعسرِ

كخَبيءِ نِعمَ وبِئسَ يُخَبّأ فيهما ويكون ذاك على اشتراط مفسِّرٍ[٤٠]

يقول: الحق مكنون في هذه الدنيا، ومتى انقضت الحياة الدنيا يظهر الحق فيكافىء من حرم من أبنائه ثم يفسر عقيدته تفسيراً نحوياً ويختلق لها تصويراً ادبياً إذ يشبّه الحق المكنون بفاعل أفعال المدح والذم، فكما يكون الفاعل[٤١] في هذه الأفعال مستترا وجوباً إذا وَلِيَها تمييز مفسر كذا يكون الحق مستوراً في هذه الدنيا ويظهر ويطلع عليه الناس متى بادت هذه الدنيا.

يريد أن يقول إن انقضاء هذه الحياة هو القرينة الدالة على الحق المستور فيها كما أن التمييز هو القرينة الدالة على الفاعل المستتر في أفعال المدح والذم.

ويرى المعري أن خير النساء هي من تلازم الخباء:

تَزَوّج إنْ أردتَ فتاةَ صدقٍ كمُضمَرِ نعم، دامَ على الضمير

إذا اطّلع الأوانسُ لم تَطّلع إلى عُرُسٍ تمرُّ ولا أميرِ[٤٢]

يقول إنه خير للرجال أن يتزوجوا بالفتيات العفيفات العابدات اللاتي لا يتبَرّجن ولا يخرجنَ من بيوتهن إلى الشوارع. وهو يشبه سترهن في الخدر بفاعل افعال المدح والذم الذي يكون مستتراً دائماً عند تفسيره بالتمييز.

ومنها قوله، مستعيناً «كان»:

---

٤٠ ــ نفسه، ص٤٧٣

٤١ ــ يقتصر فاعل افعال المدح والذم علي انواع معينة منها: الضمير المستتر وجوباً بشرط ان يكون ملتزما الإفراد والتذكير وعائداً علي تمييز بعده يفسر ما في هذا الضمير من الغموض والإبهام نحو: نعم قوماً العرب اي: نعم القومُ قوماً ففي نعم ضمير مستتر وجوبا تقديره هو يعود الى التمييز (قوما).(النحو الوافي ، ٣: ٣٠٠)

٤٢ ــ نفسه، ص ٤٦٥

والمرءُ كانَ ومثلُ كان وجدتُه حالَيهِ في الإلغاء والإعمال[٤٣]

نظر المعري إلى الإنسان وإلى أفعاله وحالاته نظرة نحوية وشبهه بفعل «كان» إعمالاً. الغرض الذي قصده الشاعر بهذا البيت هو أنه كما يكون بفعل «كان» عاملاً فيرفع المبتدأ وينصب الخبر ويكون تارة غيرعامل كذلك يكون الإنسان في حياته عاملاً مجتهداً ومتى ما مات و دفن أصبح ملغى غيرعامل.

وفي موضع آخر يشبه شاعرنا احتجابه عن عيون الناس واعتزاله إيّاهم بفاعل «نعم» فيقول:

إذا مَرَّ أعمى فارحمُوه وأيقِنُــــوا وإن لم تكفُّوا أنَّ كُلَكم اعمى

وما زال نعم الرأيُ لي أنَّ منزلي كأني فيه مُضمرٌ كُنَّ في نعْما[٤٤]

يمدح المعري الطريقة التي إختارها في حياته وهو إعتزاله عن الناس وقراره في البيت ويعتبرها راياً صائباً، ثُم يشبه نفسه معتزلاً في البيت، محتجبا عن عيون الناس بفاعل افعال المدح والذم الذي يكون مستتراً وجوباً متى فسره تمييز منكر.

المصطلحات العروضية

لا ريب أن المعري كان عروضيا بارزاً عارفاً ببحورالشعر العربي وقوافيه وملما بما يؤخذ على الشاعر ارتكابه وهذا الامر يتجلى في اشارات عروضية جرت على قلمه فـــي مقدمته للزوميات وفيما تجشمه من القوافي الوعرة وهذا الأمر قد تمثل في شعره باستخدام رموز ومصطلحات عروضية لا يتيسر فهمها إلا لمن كان متقنا لهذا العلم، منها قوله:

ألم تر أن طويل القريـــــ ــض من متقاربه والهزج[٤٥]

هذا البيت يشير إلى اختلاط العالم الذي يشبه البحر الطويل، إذ إن الطويل تكوّن مـــن اختلاط المتقارب الذي يبنى على (فعولن) والهزج الذي يبنى على (مفاعيلن) وإنه مركب منهما لأن تفاعيله (فعولن مفاعيلن) ثماني مرات[٤٦].

---

٤٣ ــ فعل «كان» ثلاثة اقسام: ناقصه وتامة وزائدة. في الحالة الأولي تكون عاملاً فترفع المبتدا وتنصب الخبر، وإذا كانت تامة تحتاج إلي الفاعل فقط وأما إذا كانت زائدة، فإنها غير عاملة فلا تحتاج إلي فاعل أو اسم وخبر (النحو الوافي، عباس حسن، ١: ٤١٧)

٤٤ ــ نفسه، ص٣١١

٤٥ ــ نفسه،ص١٣٦

٤٦ ــ الأسمر،٢٠٠٥،ص٦٧

ومنها قوله:

عش يا بن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلكا
فإذا بلغت وأربعين ثمانياً فحياة مثلك أن يوسد هالكا[٤٧]

يقول على الانسان أن يقتنع في حياته بثمانية وأربعين عاما وعبر عن هذا المعنى اعتمادا على عدد حروف البحر الطويل لأنه مركب من ثماني تفاعيل أربع منها مكونة من خمسة أحرف (فعولن×٤) وأربع أخرى مكونة من سبعة أحرف (مفاعيلن×٤) وربما تسميته بالطويل تعود إلى عدد حروفه حيث قيل «سمي طويلا لأنه أطول الشعر وليس في الشعر ما يبلغ حروفه ثمانية وأربعين حرفا في البحور غيره»[٤٨].

ومنها:

غدوتُ أسيرا في الزمان كأنني عروضُ طويلٍ قبضُها ليس يبسَطُ[٤٩]

يشير إلى أنه وقع أسيرا في يد الزمان ولا يتغير حاله وشأنه في ذلك شأن البحر الطويل الذي عروضه مقبوضة على الدوام والقبض في الطويل هو حذف الخامس الساكن الذي يلزم حذفه في عروض الطويل أي في تفعيلته الأخيرة من الشطر الأول ويصير (مفاعيلن) في عروضه (مفاعلن).

ومنها:

وأكرمني على عيبي رجالٌ كما رُوي القريضُ على الزحافِ[٥٠]

يقول إن الناس يكرمونني رغم ما فيّ من العيوب كما يروون أشعارا فيها الزحاف ولا يعيبونها على الشاعر وإنما يعتبرونها من الجوازات الشعرية، والزحاف تغيير يطرأ على الحرف الثاني من الأسباب ويكون بتسكين المتحرك أو حذفه أو حذف الساكن ففي مثل متَفاعلن يكون بتسكين التاء فتصير متْفاعلن وتنتقل إلى مستفعلن أو بحذفها فتصير مفاعلن[٥١].

٤٧ ـ لزوم،ص٢٨٠

٤٨ ـ الهاشمي،٤٢،٢٠٠٦

٤٩ ـ لزوم،ص٢٢٧

٥٠ ـ نفسه،ص٢٤٣

٥١ ـ مصطفى،؟،٣١

ومنها:

بقائي الطويلُ وغيي البسيطْ ْ وأصبحتُ مضطربا كالرجزْ

في الشطر الأول يشير إلى المعنى اللغوي للبحرين الطويل والبسيط ويشكو من أنه قد عاش حياة طويلة في غباوة منبسطة وفي الشطر الثاني يلمح إلى ما يعانيه من الآلام والمصاعب مستمدا من حالات بحرالرجز الذي تضطرب تفاعيله ويكثر فيه دخول الزحافات والعلل.

والشاعر بالإضافة إلى ما مر بنا من الرموز العروضية قد يستخدم مصطلحات القافية في شعره، منها قوله:

بُعدي عن الإنس بُرءٌ من سقامهم وقُربُهم للحجى والدين إدواءُ

كالبيت اُفردَ لا إيطاءٌ يدركه ولا سنادٌ ولا في اللفظ إقواءُ(٥٢)

يبرر الشاعر ما اختار من حياة العزلة والإنفراد معتقدا بأن الإعتزال عن الناس ينجّيه من شرورهم وأسقامهم فشبّه نفسه في انفراده وبعده عن شرورالناس بالبيت المفرد الذي لا يعتريه الإيطاء ولا السناد ولا الإقواء. هذه المصطلحات الثلاثة من عيوب القافية والإيطاء هو أن تتكرر القافية في قصيدة واحدة بلفظها ومعناها من غير فاصل أقله سبعة أبيات والسناد هو اختلاف ما يراعى قبل الروي من حروف وحركات والإقواء هو اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة كأن يكون الروي في بيت مجروراً وفي آخر مرفوعاً(٥٣).

ومن البديهي أن كل هذه العيوب لا تقع في البيت الواحد وكأنما المعري هو هذا البيت يعيش بمعزل عن شرور الناس وأذاهم.

النتيجة:

نستخلص مما مر بنا أن:

١ــ أبا العلاء قد ألح في توظيف المصطلحات الصرفية والنحوية والعروضية في شعره إلحاحاً كثيراً وحاول أن يرد كثيرا من أفكاره إلى علل أصحاب الصرف والنحو والعروض ومصطلحاتهم.

---

٥٢ ــ لزوم،٢٦

٥٣ ــ الأسمر،٢٠٠٥،ص١٦٤-١٦٥

٢ــ إكثار المعري من استخدام هذه الرموز زاد شعره غموضا وصعوبة وأفسد بذلك التعبير الشعري إذ طغى عنصرا التفكير والإقناع على عنصري التخييل والعاطفة.

٣ــ الشاعر استخدم هذه المصطلحات ليعبر بها عن أفكاره وآرائه من جهة ويثبت معرفته العلمية الواسعة من جهة أخرى وبذلك خلا كلامه من الجمال الشعري وأصبح أقرب إلى النثر منه إلى الشعر.

المصادر:

أولا: الكتب

١- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (د.ت)، تحقيق د. احسان عباس، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت.

٢- أبوتمام، ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي، (١٩٩٤م)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣- أبوشاويش، حماد حسن، النقد الأدبي الحديث حول شعر أبي العلاء المعري، (١٩٨٩م)، الطبعة الأولى، دار إحياء العلوم، بيروت.

٤- أبوالعلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، (٢٠٠١م)، شرح كمال اليازجي، دارالجيل، بيروت.

٥- الأسمر، راجي، علم العروض والقافية، (٢٠٠٥م)، دار الجيل، بيروت.

٦- البستي، أبوالفتح، ديوان أبي الفتح البستي، (١٩٨٩م)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية بدمشق.

٧- حسن، عباس، النحو الوافي، (د.ت)، الطبعة الثانية، دارالمعارف، القاهرة.

٨- حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، (د.ت)، دارالمعارف، القاهرة.

٩- حسين، طه، تعريف القدماء بأبي العلاء، (١٣٨٤ق)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الدار القومية للطباعة، القاهرة.

١٠- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، (١٤٠٠ق)، الجزء الثالث، دارالفكر، بيروت.

١١- ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي،(د.ت)، الطبعة الثالثة عشرة، دار المعارف، القاهرة.

١٢- المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، (١٩٩٧م)، شرحه وضبطه وقـدم لـه علـى العسيلي، موسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٣- مصطفى، محمود،أهدى سبيل إلى علمي الخليل العـروض والقافيـة، (د.ت)، دار القلم، بيروت.

١٤- موافي، عثمان، في نظرية الأدب، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القـديم، (٢٠٠٠م)، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية.

١٥- الهاشمي،السيد أحمد، ميزان الذهب في صناعة شعر العـرب، (٢٠٠٦م)، ضـبطه وعلق عليه علاء الدين عطية، الطبعة الثالثة، مكتبة دارالبيروتي، بيروت.

١٦- اليازجي، كمال، أبوالعلاء ولزومياته، (١٤١٧ق)، دار الجيـل، الطبعـة الثانيـة، بيروت.

ثانيا : المقالات

١- آينه وند، صادق، پيش درآمدي بر شناخت سـبک ادبـي أبـو العـلاء المعـري، (١٣٧٧ش)، مجلة مدرس علوم انساني،الشتاء،العدد٩.

٢- السعدني، المصطفى، الإسترفاد الشعري في لزوميات المعري بين التأثير والتأثر، (١٤١٨ق)، منشورات ندوة أبي العلاء المعري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، الجزء الأول، دمشق.

٣- الشايب، أحمد، أبو العلاء شاعر أم فيلسوف، (١٩٤٥م)، منشورات المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، دمشق.

٤- الشريقي، محمد، أسلوب المعري ومناهجه، (١٩٤٥م)، منشورات المهرجان الألفـي لأبي العلاء المعري، دمشق.

٥- علي محمد، احمد، تأثرالمعري في سقط الزند بشعر المتنبي،(١٩٩٧م)، الجزء الأول، منشورات ندوة أبي العلاءالمعري.

٦- النجار،عز الدين، المعري حياته ونشأته وثقافته، (١٤١٨ق)، الجزء الأول، منشورات ندوة أبي العلاء المعري.

ظاهرة التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر

د. مالك يحيا*

الملخص

تحاول هذه الدراسة أن توضح أن ظاهرة التناوب اللغوي التي وردت في النصوص اللغوية، من شعر ونثر وقرآن كريم، تشيع في العربية، إذ قد تأخذ صيغة صرفية ما الأحكام النحوية والدلالية لصيغة أخرى وتتبادل معها مبنى ومعنى.

ونظراً لشيوع هذه الظاهرة وغزارة أمثلتها، فقد ركّز البحث على ظاهرة التناوب بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر، وأورد كثيراً من الشواهد التي وضحت التالي:

أ ــ مجيء اسم الفاعل بمعنى المصدر.

ج ــ مجيء المصدر بمعنى اسم الفاعل.

د ــ اشتراك المصدر مع الصفات المشبهة وصيغ المبالغة في صورته الشكلية.

هـ ــ مجيء اسم المفعول بمعنى المصدر.

و ــ مجيء المصدر بمعنى المفعول.

وخلُص البحث إلى أنّ التناوب أسهم في توسّع العرب في توظيف الصيغ الصرفية لإفادة معان متعددة غير معانيها الموضوعة لها، وهو توسع أثبت البحث أنّ في ظاهرة التناوب اللغوي هذه مرونة واتساعاً واهتماماً بالمعنى وتنوعاً في الأساليب.

كلمات مفتاحية: التبادل اللغوي ــ التناوب اللغوي بين المشتقات والمصدر ــ أثر التناوب اللغوي في الدرس الصرفي.

مقدمة:

يجمع الباحثون على أن اللغة العربية من أغنى لغات العالم، وأكثرها ألفاظاً وعبارات، وأنها لغة موحية تتوخى الوضوح. وعلى الرغم من أن كثيراً من مفرداتها

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية .

قد ضاع، وأن كثيراً من شعرها لم يصل إلينا، كما قال أبو عمرو بن العلاء:«ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»(1) فإن ما تمتلكه اللغة العربية الآن من مفردات يُعدُّ ثروة كبيرة لا يستهان بها.

وهذا ما جعلها لغة حية تفتح صدرها لتقبل الجديد اللغوي، تستطيع أن تعبر عن كل شيء يعترض الإنسان في حياته، بفضل ما تمتاز به من خصائص كالاشتقاق والنحت والمجاز وغيرها.

ومهما قيل عن صعوبة في قواعدها، وجفاف في أبواب نحوها وصرفها، فإننا نجد مرونة في كثير من مسائلها. ومن مظاهر المرونة في قواعد اللغة الصرفية ظاهرة التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر.

ونعني بالتناوب تبادل الأحكام اللغوية كأن تأخذ صيغة صرفية الأحكام النحوية والدلالية لصيغة أخرى، وتتناوب معها مبنىً ومعنىً.

منهج البحث:

وقد نهجت في هذا البحث منهجاً وصفياً، فدرست مواطن التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر، معتمداً على كثير من الشواهد القرآنية والشعرية التي توضح ظاهرة التناوب اللغوي، الذي يعد مظهراً من مظاهر توظيف المشتقات، اقتضاه توسع العرب في استخدام الصيغ الصرفية، والتنوع في دلالاتها.

أهداف البحث:

ومن هذا المنطلق فإن هذا البحث يهدف إلى تفسير ظاهرة التناوب اللغوي، وإلى تبيان أن ظاهرة التناوب التي وردت في النصوص اللغوية دلت على مرونة واتساع وقدرة على التنوع في قواعد اللغة، وعلى أن اللغة العربية بقدر اهتمامها بالألفاظ فإنها تجعل الأهمية الكبرى للمعاني وإن كان اهتمامها بالألفاظ كبيراً. ولاسيما أن اللغويين

١ــ ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ــ دار نهضة مصر، د. ت. ص٢٧.

العرب قد عدّوا المعنى ملحظاً ضرورياً في استكمال التحليل وعمل المعرب[٢].

التناوب اللغوي بين اسم الفاعل والمصدر:

إن التناوب بين المشتقات والمصدر ظاهرة شائعة في العربية، إذ قد يأتي اسم الفاعل على صورة المصدر، وقد يأتي المصدر على صيغة اسمي الفاعل والمفعول، يقول ابن مالك: «ويجيء المصدر على زنة اسم المفعول في الثلاثي بلفظ اسم الفاعل»[٣] ومما جاء من المصادر على صيغة اسم الفاعل الثلاثي في كلام العرب: واقية، إذ يقال:«وقاه الله وقياً وواقية ووقاية، أي صانه»[٤]. فواقية مصدر جاء على زنة اسم الفاعل، ومثل ذلك كاذبة أي كذب[٥]، والصّاخّة قد تكون اسم فاعل، وقد تكون مصدراً[٦] وكذلك الطاغية، والعافية [٧].

وهذه مسألة شائعة في العربية، حصر العلماء كثيراً من ألفاظها[٨]. وقد جاء مثل هذا في الشعر. قال الفرزدق:

على حَلْفَةٍ لا أشتمُ الدّهرَ مُسلِماً ولا خارجاً مِنْ فِيِّ زورُ كلامِ[٩]

فاسم الفاعل (خارجاً) هنا هو في حقيقة دلالته مصدر، لأن خارجاً هو بمعنى خروج، وقد علّق المبرد على هذا بقوله: (إنما أراد لا أشتم ولا يخرج من فيّ زورُ كلام، فأراد ولا خروجاً، فوضع (خارجاً) في موضعه[١٠] .

٢ـــ ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٢، مؤسسة الصادق، طهران. ١٣٧٨هـــ ص٥٨٢ـــ ٥٨٣.

٣ـــ ابن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تح: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـــ ـــ ١٩٦٧، ص٢٠٧ .

٤ـــ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت د. ت .، مادة (وقى)

٥ـــ لسان العرب، مادة (كذب) .

٦ـــ المصدر السابق، مادة (صخَّ)

٧ـــ المصدر السابق، مادة (طغى)، (عفا).

٨ـــ ابن يعيش، موفق الدين، بن علي (ت ٦٤٣هـــ)، شرح المفصل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـــ١٩٧٥م، ٦: ٥١ـــ ٥٢، وانظر: قباوة، فخر الدين، تصريف الأسماء والأفعال، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص١٣٥.

٩ـــ الفرزدق، ديوانه، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـــ ـــ ١٩٦٠م. مج٢: ٢١٢

١٠ـــ المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـــ)، المقتضب، تح محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٦٩.

وكقول سحيم:

عُميرةَ ودّع إنْ تجهزتَ غازياً كفى الشيبُ والاسلامُ للمرءِ ناهياً(١١)

فكلمة (ناهياً) وإن جاءت على وزن (فاعل)، فهي في الحقيقة دلالتها تصح أن تكون بمعنى المصدر، وهذا ما جوّزه ابن جني حين قال: «وقد يجوز أن يكون (ناهياً) هنا مصدراً كالفالح والباطل والغائر والباغز ونحو ذلك، مما جاء فيه المصدر على فاعل، حتى كأنه قال: كفى الشيب والإسلام للمرء نَهْياً ورَدْعاً»(١٢)

ومن مجيء اسم الفاعل بمعنى المصدر أيضاً، ما جاء في شعر الهُذَلي:

شنئت العَقْرَ عَقْرَ بني شُليلٍ إذا هبَّت لقارِئها الرّياحُ(١٣)

قالوا: وهو مصدر قَرأتِ الريح: إذا جاءت لوقتها. قال الفراء: يجيء المصدر على فاعلة، نحو: الحاقّة، الصّاخّة، والعافية(١٤).

وقد أيّد القرآن الكريم هذا التناوب بين اسم الفاعل والمصدر، وهذا ما نجده في قوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين»(١٥). أي خيانة، وقوله تعالى: «ولا تزال تطلّع على خائنة منهم»(١٦). قال الزمخشري: «قوله على خائنة على خيانة أو على فعلة ذات خيانة أو على نفس أو فرقة خائنة ..... وقُرئ على خيانة»(١٧).

وقال تعالى: «فأُهلِكوا بالطاغية»(١٨). أي بطـغيانهم، ويؤيد هذا ما ورد فـي قول أبي حيان: وقال ابن عـباس وابن زيد أيضـاً وأبو عبيدة ما معناه: الطـاغية مصدر

١١ـــ الحسحاس، سحيم عبد بني، ديوانه، تح: عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشـر، القـاهرة، ١٩٦٥، ص١٦.

١٢ـــ ابن جني، أبو الفتح، عثمان (ت ٣٩٢هـ)، الخصائص، تح. محمد علي النجار، ط دار الكتب المصرية، القـاهرة، ١٩٥٦، ١: ٣٤.

١٣ـــ الزمخشري، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر، شرح الفصيح، تح. . ودراسة د. إبراهيم بن عبد الله بن جمهـور الغامدي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، مكة المكرمة ـــ ١٤١٧هـ ـــ ح١: ٥٨ .

١٤ـــ ابن يعيش، شرح المفصل، ٦: ٥٢

١٥ ـــ غافر ١٩.

١٦ ـــ المائدة ١٣.

١٧ـــ الزمخشري، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويـل في وجـوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت د. ت، ١: ٦١٦ .

١٨ ـــ الحاقة ٥.

كالعاقبة فكأنه قال بطغيانهم. ويدل عليه «كذّبت ثمودُ بطغواها»[١٩].

فالشواهد الشعرية والقرآنية السابقة تشي بوجود التناوب اللغوي بين اسم الفاعل والمصدر، وفي ذلك دليل على سعة العربية ومرونة قواعدها الصرفية.

وقد يرجع التناوب بين اسم الفاعل والمصدر إلى تطور بناء الصيغة نفسها وما يطرأ عليها من تغييرات صوتية من ذلك أن النادية اسم فاعل بمعنى المصدر كما في قولنا: «نادا نادية أي: نداء. وقال ابن منظور: إن أصلها نِداءة، قلبت إلى نادية، وجعل اسم الفاعل موضع المصد»[٢٠]. فالتطور في الصيغة رافقه تطور في الدلالة.

التناوب اللغوي بين المصدر واسم الفاعل:

وتوجد صورة أخرى للتناوب بين المصدر واسم الفاعل ولاسيما الثلاثي، إذ قد ياتي المصدر بمعنى اسم الفاعل في كلام العرب، نحو قولهم: رجلٌ عدلٌ، أي: عادل[٢١]. ورجلٌ صَوْمٌ، أي: صائم[٢٢]. وقالت العرب: بنو فلان لنا سِلمٌ، أي مسالمون، وحَرْبٌ، أي مُحاربون[٢٣].

وهذه مسالة نصّ على شيوعها سيبويه، إذ ذهب إلى أن المصدر، قد يقع على الفاعل، وذلك قولك يومٌ غَمّ ورجل نَوْمٌ، إنما تريد النائم والغامّ [٢٤].

وقال الشاعر:

أجارتُكم بَسلٌ علينا مُحَرّمٌ وجارتُنا حِلٌّ لكم وحليلُها[٢٥]

---

١٩ ــ الشمس١١ و الأندلسي، أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف (٧٥٤هــ)، البحر المحيط، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د. ت. ٨: ٣٢١. وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (طغى).

٢٠ــ ابن منظور لسان العرب مادة (ندي) .

٢١ــ العيني، بدر الدين ، ت ٨٥٥هــ ، شرح المراح في التصريف، حققه وعلق عليه عبد الستار جواد، ص٣٦.

٢٢ــ الأستراباذي، رضي الدين، ت ٦٨٦هــ ، دار الكتب العلمية بيروت ،١٣٩٥هــ ــ ١٩٧٥م، ١: ١٧٦.

٢٣ــ الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ،ت ٤٣٠هــ، فقه اللغة وسر العربية، تح. مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٣٥٣: ١٩٣٨. ص٣٤.

٢٤ــ سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب. تح: عبد السلام هارون (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ١٣٩٥هــ، ١٩٧٥م). ٤: ٤٣.

٢٥ــ الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح ديوانه، قدّم له ووضع فهارسه، د. حنا نصر الحتي. دار الكتاب العربي، بيروت ،١٤٢٤هــ ــ ٢٠٠٤م ، ص٢٩٢.

لقد استعمل الشاعر كلمة (بَسلٌ) وهي مصدر، وكان عليه أن يستعمل اسم الفاعل باسل، وذلك لأنه لم يكن يقصد وقوع حدث في زمن معين، وإنما البسالة هنا غير مقيدة بزمن معين، ولذا جاء المصدر نيابة عن اسم الفاعل.

ومن ذلك قول الخنساء:

ترتع ما رتعتْ حتى إذا اذّكرت فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ[٢٦]

إن المصدرين (إقبال وإدبار) استعملا بدلالة أخرى وصف بهما الحدث فهما بمعنى مُقبلة ومدبرة.

وعلّق سيبويه على بيت الخنساء بقوله:«فجعلها الإقبال والإدبار فجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم»[٢٧]. فهذه المصادر كلها مما وصف بها للمبالغة، كأنهم جعلوا الموصوف ذلك المعنى لكثرة حصوله منه، وقالوا: « رجل عَدْل ورضا وفضل، كأنه لكثرة عدله والرّضا عنه وفضله جعلوا العدل والرضا نفسهما، ويجوز أن يكونوا وضعوا المصدر موضع اسم الفاعل اتساعاً فرجل عَدْلٌ بمعنى عادل، وماء غَور بمعنى غائر ورجل صوم بمعنى صائم»[٢٨].

وقال الشاعر:

فإن ترفقي يا هند فالرّفق أيمن وإن تخرقي يا هندُ فالخرق ألأمُ

فأنت طَلاقٌ والطلاقُ عزيمةٌ ثلاثاً ومن يخرق أعقُّ وأظلمُ[٢٩]

فأتى بلفظ الطلاق، وهو مصدر، وأراد اسم الفاعل وهو طالق.

وقد جاءت آيات الذكر الحكيم مؤيدة لهذا التناوب، كما نص على ذلك بعض المفسرين من ذلك قوله تعالى: «الذين يؤمنون بالغيب»[٣٠]. والغيب مصدر بمعنى اسم الفاعل، وكذلك قوله تعالى: « وما تغني الآيات والنّذر»[٣١] والنّذر مصدر معناه المُنْذِر.

٢٦ـــ الخنساء ديوان، دار صادر، بيروت، ١٣٨٣هـــ ـــ ١٩٦٣م، ص٣٨.

٢٧ـــ سيبويه، الكتاب، ١: ٣٣٧.

٢٨ـــ ابن يعيش، شرح المفصل، ٣: ٥٠.

٢٩ـــ المصدر السابق: ٤: ٤٣.

٣٠ ـــ البقرة، ٣.

٣١ ـــ يونس ١٠١.

ويدخل في هذه المسالة بعض ما جاء من المصادر في موضع حال، وقد كثر مجيء الحال مصدراً نكرة، وقد وضع سيبويه باباً سماه: (هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال وقع فيه الأمر فانتصب، لأنه موقوع فيه الأمر)، قال فيه: «وذلك قولك: قتلته صبراً، ولقيته فجاءة ومفاجأة وكفاحاً ومكافحة، ولقيته عياناً وكلّمته مشافهة، ...»[٣٢]. كما نجد أن المبرد قد أكّد ذلك فقال: « ومن المصادر ما يقع في موضع الحال فيسدّ مسده فيكون حالاً، لأنه قد ناب عن اسم الفاعل وأغنى غناءه، وذلك قولهم: قتلته صبراً، إنما تأويله صابراً أو مصبراً وكذلك جئته مشياً؛ لأن المعنى جئته ماشياً ...»[٣٣].

وقد ورد مثل ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: «قُلْ أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً»[٣٤]. أي غائراً. وقال تعالى: «ثمَّ ادْعُهُنَّ يأتينّك سعياً»[٣٥]. أي ساعيات، مسرعات كما قال الزمخشري[٣٦].

ومن ذلك قوله تعالى «ويُرسِل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غَوراً»[٣٧]. وقد علّق الزمخشري على هذه الآية: قوله «صعيداً زلقا» فرأى أنها أرض بيضاء يُزلق عليها لملاستها، زلقاً وغوراً كلاهما وصف المصدر[٣٨].

ويبدو أن استخدام المصدر بمعنى اسم الفاعل مظهر من مظاهر التوسع في اللغة، وأن استخدام المصدر لإفادة معنى اسم الفاعل هو الأسلوب الأقدم تاريخياً للتعبير عن اسم الفاعل، وقد يدل على ذلك أن الوصف بالمصدر شائع في العربية، وعدّه العلماء ضرباً من الوصف.

وإذا وضع المصدر موضع اسم الفاعل وجرى مجراه يجوز لك فيه وجهان:

٣٢ـــ سيبويه، الكتاب، ١: ٣٧٠.

٣٣ـــ المبرد، المقتضب، ٣: ٢٣٤.

٣٤ ـــ الملك، ٣٠.

٣٥ ـــ البقرة، ٢٦٠.

٣٦ـــ الزمخشري، الكشاف، ١: ٧٢٣ .

٣٧ ـــ الكهف ٤٠ ـــ ٤١.

٣٨ـــ المصدر السابق، ٢: ٧٢٣.

١- أن تتركه مفرداً وتصف به المفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث، ويؤيد هذا ما ذكره ابن جني في مسألة الوصف بالمصادر، إذ ذهب إلى أن الوصف بالمصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: رجل عدل، وامرأة عدل، وسبب ذلك أنهم أرادوا المصدر(٣٩). وقد خطّأ السيوطي من يقول للمرأة عزبة بالتاء، فقال: «إنما يقال رجل عزب وامرأة عزب، لأنه مصدر وصف به فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. كما يقال رجل خصم، وامرأة خصم»(٤٠).

ويُفهم من كلام السيوطي هذا، أن المصدر قد وُظّف توظيفاً جديداً هو الدلالة على الوصفية، ولذا فإن ما جاء من الصفات المؤنثة دون علامة تأنيث هو لحفظ الأصل، وهو المصدرية.

وقد عبّر العلماء عن هذا التوظيف بالأصالة والفرعية، إذ نصّ ابن منظور على أنّ «الزّور، بمعنى الزائر، وهو في الأصل مصدر وُضع موضع الاسم، كصَوْم ونَوم، بمعنى صائم ونائم»(٤١).

ويمكن أن نعد الأصالة التي ذكرها ابن منظور، يمكن أن نعدّها المرحلة الأولى التي تمثل البنية التحتية وأنّ التحول في الدلالة هو المرحلة الثانية التي تمثل البنية الفوقية. والمرحلة الأولى هي المعنى المعجمي، بينما تكون الثانية مبنية على السياق(٤٢).

٢ــ أن تثنّيه وتجمعه، فتقول: هذان عدلان، وهؤلاء عُدُول، ومما جاء على ذلك قول الشاعر:

وبايعت ليلى في خلاء ولم يكن شهود على ليلى عدول مقانع(٤٣)

٣٩ــ ابن جني، الخصائص، ٢: ٢٠٦ــ٢٠٧.

٤٠ــ السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، تح: طه عبد الرؤوف سعد (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٥هــ ــ ١٩٧٥م، ٤: ١٦٣.

٤١ــ ابن منظور، لسان العرب (زور) .

٤٢ــ عمايرة، إسماعيل أحمد، بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، عمان، ط١، ١٤١٧هــ ــ ١٩٩٦م. ص٢٩٠.

٤٣ــ مجنون ليلى، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ت، ص١٨٦.

وقد علّق ابن يعيش على ذلك بقوله: « فجمع عدلاً ومقنعاً»[٤٤].

ويلاحظ أن مجيء المصدر بمعنى اسم الفاعل، واستخدام اسم الفاعل بمعنى المصدر. يدخل في باب التوسّع في توظيف الصيغ الصرفية لإفادة معانٍ متعددة، وقد عبّر العلماء عن شيء من هذا التوسّع والمرونة والتوظيف المتعدد للصيغ. يقول الرضي: « وقد يوضع اسم الفاعل مقام المصد، كما يوضع المصدر مقام اسم الفاعل»[٤٥]. والوضع الذي أشار إليه الرضي هو توظيف جديد لصيغة صرفية لأداء دور صيغة أخرى .

التناوب بين المصدر وصيغ المبالغة:

أما الاشتراك بين المصدر وصيغ المبالغة شكلاً فمسألة شائعة في العربية أيضاً. ومن ذلك أن(فَعِيل) صيغة صرفية قد تستخدم لإفادة المبالغة، وهي من الصيغ التي يأتي عليها المصدر، نحو: الشهيق،والصهيل، والزفير، والهدير، والهويل، وأكثر ما ينقاس (فَعِيل) مصدراً في الأصوات[٤٦]. وقد جاء المصدر على هذا الوزن في قوله تعالى: «وإن نشأ نُغْرِقْهم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنْقَذون»[٤٧] وقد ذهب الزمخشري إلى أن صيغة (فَعِيل) في لفظة (صَرِيخ) تكون بمعنى المصدر أي الصراخ نفسه، فيكون مصدراً بمعنى الإصراخ[٤٨]. ومنه قوله تعالى: «فلمّا استأيسوا فيه خلصوا نجياً»[٤٩] النجي قد يكون اسماً ومصدراً[٥٠].

وقد جعله ابن عطية مصدراً فقال: «النجيّ لفظ يوصف به من له نجوى واحداً أو

٤٤ـــ ابن يعيش، شرح المفصل ١: ١٣.

٤٥ـــ الأستراباذي، شرح الشافية ١: ١٧٧.

٤٦ـــ البغدادي، عبد القادر ، ت ١٠٩٣هـ ، خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب، تح. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ: ١٩٨٩م. ٧: ٤١٦

٤٧ ـــ يس: ٤٣.

٤٨ـــ الزمخشري، الكشاف ٣: ٢٨٨.

٤٩ ـــ يوسف: ٤٠.

٥٠ـــ ابن منظور، لسان العرب، مادة (نجي)

جماعة أو مؤنثاً أو مذكراً، فهو مثل عدول وعَدْل»(٥١). وقال الألوسي: « وحده وكان الظاهر جمعه لأنه حال من ضمير الجمع ولأنه مصدر بحسب الأصل كالتناجي أطلق على المتناجين مبالغة أو لتأويله بالمشتق والمصدر ولو بحسب الأصل يشمل القليل والكثير، أو لكونه على زنة المصدر لأن فَعيلاً من أبنية المصادر»(٥٢).

والذي يظهر من النقول السابقة أن (نجياً) هنا مصدر، لأن (فعيلاً) تأتي للمصدر بلا تأويل، فهي إحدى صيغ المصادر، وأنها تدل على صوت، والغالب في المصدر الذي على (فَعيْل) أن يدل على صوت.

ومن المصادر التي جاءت على (فَعيْل) في غير الأصوات، النكير بمعنى الإنكار، والنذير بمعنى الإنذار، والعذير بمعنى العذر(٥٣). ومن ذلك رحل رحيلاً، وذمل ذميلاً(٥٤).

وقد جاء المصدر على هذا الوزن في قوله تعالى: «آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم»(٥٥). فالحكيم صفة وضعت موضع المصدر أي: ذو الحكمة(٥٦). ومثل هذه المصادر قد تلتقي في صورتها اللفظية مع صيغ المبالغة.

ومن الصيغ التي يشترك فيها المصدر والمبالغة من الناحية الشكلية صيغة (مِفْعال)، وقد جاء المصدر على هذا الوزن في قوله تعالى: «فأوفوا الكيل والميزان»(٥٧)، وقوله تعالى: «إنَّ الله لا يُخلِفُ الميعاد»(٥٨).

٥١ـ ابن عطية ،أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز، تحقيق علي عوض وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت ٣: ٢٦٩ .

٥٢ ـ الألوسي ،شهاب الدين السيد محمود ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، قرأه وصححه محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت، د.ت ١٣: ٣٥ .

٥٣ـ البغدادي، خزانة الأدب: ٧: ٤١٦.

٥٤ـ الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فن الصرف، شرح د. محمد صالح الشنطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل. ط١ ١٤٢٦هـ: ٢٠٠٥م ص٧٠.

٥٥ ـ يونس: ١.

٥٦ـ النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل، إعراب القرآن، تح. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، دار النهضة العربية، ١٩٨٥١٠: ٣ ٤١٣.

٥٧ ـ الأعراف: ٨٥.

٥٨ ـ آل عمران: ٩.

يقول أبو حيان: « والكيل مصدر كنى به عن الآلة التي يكال بها، كقوله في هود "المكيال والميزان" فطابق قوله "والميزان"، أو هو باق على المصدرية، وأُريد بـ "الميزان" المصدر، كالميعاد لا الآلة فتطابقا»(٥٩) وهذا ما أكده عضيمة، إذ قال: «إنَّ الميزان يعني الوزن، وإنَّ الميعاد يعني الوعد، فالميزان والميعاد صفتان وضعتا موضع المصدر»(٦٠) ومنه قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ»(٦١). والميثاق مصدر بمعنى الإيثاق أو الوثاقة أو التوثقة، فهو من الصفات التي وضعت موضع المصدر(٦٢).

وقد تأتي بعض المصادر على صيغة (فَعُول) فيلتقي بذلك المصدر مع ما جاء من صيغ المبالغة على هذا الوزن، ومن ذلك قوله تعالى: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ»(٦٣) وقبول مصدر. يقول الألوسي: «والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد، أي: قبلها قبولاً حسناً»(٦٤). ومنه قوله تعالى: «النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ»(٦٥).

فهذه الألفاظ جميعها مصادر، و(فَعُول) من الأوزان الشائعة في المبالغة، نحو: كَسُول، شَكُور، وأَكُول. وقد ذكر أبو حيان أنَّ ما جاء من مصادر على صيغة (فَعُول) قليلة، منها: الوَضُوء، والطَهُور، والوَلوع، والقبول)(٦٦). وذهب ابن جنّي إلى أن الأصل بالضم، أي الوقود، والقُبول، والوُلوع، وأنَّ الفتح يُعَدُّ لغة شاذة (٦٧).

٥٩ـ أبو حيان، البحر المحيط، ٤: ٢٣٨.

٦٠ـ عضيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، د.ت، القسم الثاني، ج٣: ١٦٧.

٦١ ـ البقرة: ٨٣.

٦٢- العكبري، أبو البقاء، التبيان في إعراب القرآن، تح علي البحاوي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ١: ٤٤.

٦٣ ـ آل عمران: ٦٣.

٦٤ـ الألوسي، روح المعاني، ٣: ١٣٨.

٦٥ ـ البروج: ٥.

٦٦ـ أبو حيان، البحر المحيط، ١: ١٠٢.

٦٧ـ ابن جني، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها، تح. علي النجدي ناصف، وعبد الحليم نجار، وعبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ج ـ ع ـ م ١٣٨٦هـ، ١: ٦٣.

أما ابن منظور فينقل جواز الأمرين، أن يكون الوقود بضم الواو وفتحها مصدراً، يقول: «وقد جاء في المصدر فَعُول، والباب الضم، وقوله تعالى: "النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ" بالفتح معناه: التوقد فيكون مصدراً، والوُقود بالضم المصدر»(٦٨).

ويبدو أنَّ هذا الاشتراك بين المصدر وصيغ المبالغة من الناحية الشكلية من باب التوسع والمرونة في توظيف المشتقات. ويؤكد ذلك أن الصيغ السابقة وردت في أول استعمالاتها لإفادة المصدر، ثمَّ تطورت لإفادة معانٍ متخصصة، مثل المبالغة. ويؤيد هذا الرأي أن (فعّال) مصدر سامي قديم، تحول إلى المبالغة، واستبدلت به صيغة (تَفْعِيل) وهذا يدخل في باب تطوّر المصادر من مجرد الدلالة على الحدث إلى الدلالة على الوصف(٦٩).

التناوب بين المصدر والصفة المشبهة:

وقد يلتقي المصدر مع الصفات المشبهة في صورته الشكلية، ومن ذلك أن نَعْماء، وسرّاء، وبَغضاء، ورغباء، ونصيحة، وغيرها مصادر على أوزان الصفة المشبهة(٧٠).

ومن الأوزان التي يلتقي فيها المصدر مع الصفة المشبهة (فَعْل) نحو: قَتْل مصدراً، وضَخم صفة، وكذلك (فَعِل) نحو: لَعِب مصدراً، وبَطِر صفة. و(فُعَال) نحو: صُرَاخ مصدراً، وكُبَار صفة، و(فِعال) نحو: نِفار مصدراً، وفِساق صفة.

والحقيقة أن الاشتراك بين صيغ المصدر والصفة المشبهة شائع في العربية، ومما أسهم في الاشتراك بين المصدر وأبنية الصفة المشبهة شكلاً تعدد صيغ المصدر للفعل الواحد تعدداً قد يفضي إلى أن تتشابه بعض الأوزان مع أبنية الصفة، وهذا التعدد سمة ظاهرة في أبنية المصادر في العربية، نحو: هَلَكَ هُلْكاً، وهَلاكاً، وتَهْلُوكاً، وهُلُوكاً، ومَهْلَكة، وتَهْلِكَة وتَهْلُكة. وغيرها(٧١).

٦٨ــ ابن منظور، لسان العرب، مادة (وقد) .

٦٩ــ عمايرة، إسماعيل احمد، التطور التاريخي لأبنية المصادر في العربية، دراسة مقارنة مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات ج١٤، العدد ١، ١٩٩٦، ص٣١٣ ــ ٣٣٥ .

٧٠ــ قباوة، فخر الدين، تصريف الأسماء والأفعال، ص١٣٥ .

٧١ــ ابن منظور، لسان العرب، مادة (هلك) .

التناوب بين اسم المفعول والمصدر:

تستعمل العرب اسم المفعول بمعنى المصدر، من ذلك قولهم: حلفت محلوفاً، ومرجوع، وموعود، ومصدوقة ومكروهة، ومكذوبة، وموعودة[٧٢].

ووصف ابن مالك مجيء المصدر على زنة اسم المفعول من الثلاثي بالقلة، وفي غير الثلاثي بالكثرة[٧٣]. ووافقه في ذلك الرضي، وذكر من ذلك مَيْسُور، ومَقسُور، ومَجْلُود، ومفتون[٧٤]. ويفهم من كلام الرضي أنها مصادر جاءت على (مَفْعُول). فالميسور بمعنى اليُسر[٧٥]. والمجلود: الجَلْد أي الصَّبر[٧٦]. ومثله المعقول بمعنى العقل، يقال (ماله معقول) أي عقل[٧٧]. بيدَ أن سيبويه أنكر مجيء المصدر على وزن (مَفْعُول)، وفسّر ما جاء من صيغة المصادر على هذا الوزن، بأن ذلك يراد به الزمان، ففي قولهم: دَعْهُ إلى مَيْسُورة، ودع مَعسُورة، كأنه قال: دَعْهُ إلى أمر يُؤسَرُ فيه أو يُعْسَر فيه[٧٨].

غير أنَّ الواقع اللغوي يخالف ما ذهب إليه سيبويه في هذه المسألة، لأن كثيراً من المصادر جاءت على (مَفْعُول) وأقرَّ بها العلماء، وعليها شواهد من القرآن الكريم والشعر.

ومن المصادر التي جاءت على وزن (مَفْعُول) في الذكر الحكيم، قوله تعالى: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ»[٧٩]. فمفتون هنا هي بلفظ اسم المفعول لا بمعناه إذ اكتسبت دلالة المصدر وأدت معناه في السياق، وبالتالي فهي بمعنى الفتنة، وهذا ما أكده الزمخشري بقوله: «وقد يرد المصدر على وزن اسم المفعول»[٨٠]. وكذلك قوله

٧٢ــ سيبويه، الكتاب، ٤: ٩٧، العيني، شرح المراح ،ص٣٦ .

٧٣ــ الأستراباذي، شرح الشافية: ١: ١٦٨.

٧٤ــ المصدر السابق ــ ١: ١٧٥.

٧٥ــ ابن يعيش، شرح المفصل: ٦: ٥٢.

٧٦ــ الأستراباذي، شرح الشافية ،١٤: ١٧٤.

٧٧ــ ابن منظور، لسان العرب، مادة (عقل).

٧٨ــ سيبويه، الكتاب، ٤: ٩٧.

٧٩ ــ القلم ٥، ٦.

٨٠ــ الزمخشري، المفصل ٢٢٠.

تعالى: «ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ»[٨١] ، ومكذوب مصدر جاء على وزن مفعول[٨٢].

ولم يأت اسم المفعول بمعنى المصدر في القرآن الكريم وحده، وإنما وجدناه في أشعار العرب. قال الراعي النميري:

حَتّى إِذا لَم يَترُكوا لِعِظامِهِ لَحماً وَلا لِفُؤادِهِ مَعقولا[٨٣]

فقد وردت كلمة (مَعْقُول) بمعنى عقل. كما وردت كلمة (مُصاب) بمعنى الإصابة في قول الحارث بن خالد المخزومي:

أَظَلُومُ إِنَّ مُصابَكُم رَجُلاً أَهدى السَلامَ تَحيَّةً ظُلْمُ[٨٤]

وجاء (الموضوع) و(المرفوع) بمعنى الرفع والوضع، وهما ضربان من السير في قول طرفة :

مَوضوعُها زَولٌ وَمَرفوعُها كَمَرِّ صَوبٍ لَجِبٍ وَسطَ ريح[٨٥]

ولعلَّ هذا التناوب بين اسم المفعول والمصدر، سمة تعكس مدى الاشتراك بين الصيغ الصرفية، وقد يكون استخدام اسم المفعول بمعنى المصدرأثراً من آثار مراحل الاختلاط في الأدوار والمعاني في اللغة كما يرى إسماعيل عمايرة[٨٦].

وإنَّ مجيء اسم المفعول بمعنى المصدر لم يقتصر على الثلاثي وحده وإنما تعداه إلى غير الثلاثي. ويدخل في هذا الباب المصدر الميمي ودلالته، وهو كثيراً ما يلتقي مع اسم المفعول شكلاً. قال تعالى :

«وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»[٨٧]. أي تمزيق، وقوله تعالى: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

٨١ ــ هود: ٦٥ .

٨٢ــ أبو حيان، البحر المحيط، ٥: ٢٤٠ .

٨٣ــ النميري، الراعي، ديوانه، جمعه وحققه راينهرت فايبرت ،بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، ١٤٠١هــ، ١٩٨٠م، ص٣٣٦.

٨٤ــ المخزومي، شعر الحارث بن خالد، تح. يحيى الجبوري، ط١، بغداد، منشورات مكتبة الأندلس، ١٣٩٢هــ، ١٩٧٢م، ص٩١.

٨٥ ــ طرفة، ديوانه، شرح الأعلم الشنتري ،شالون، مطبعة فرطرند، ١٩٠٠ ص١٥٠. وانظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة (وضع) ومادة(رفع).

٨٦ــ عمايرة، إسماعيل، التطور التاريخي لأبنية المصادر في العربية، ٣٣٥ .

٨٧ ــ سبأ: ١٩.

الْمُسْتَقَرُّ»[٨٨]. أي الاستقرار، وكذلك قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»[٨٩] وقد ذهب العكبري إلى أن (مستقر) يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الاستقرار[٩٠].

وقد وردت كلمة (مُكرِم) بمعنى إكرام في قراءة من القراءات؛ قال تعالى: «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ»[٩١]. وجاء في اللسان: «قال الأخفش: وقرأ بعضهم: "ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرَم" بفتح الراء، أي إكرام وهو مصدر مثل: مُخْرج ومُدْخَل»[٩٢].

ويظهر أنّ شيوع اسم المفعول من غير الثلاثي لإفادة المصدر، يرجع إلى أن المصدر الميمي من غير الثلاثي يوافق شكلاً بناء اسم المفعول من غير الثلاثي، وهذا ما أسهم في التناوب بين صيغتي اسم المفعول والمصدر من غير الثلاثي.

وقد يأتي المصدر بمعنى اسم المفعول كثيراً في كلام العرب. يقول سيبويه: «وقد يجيء المصدر على المفعول، وذلك قولك: لبن حَلَبٌ، إنما تريد مَحْلُوب، وكقولهم: الخَلق، إنما يريدون المخلوق، ويقولون للدرهم: ضَرْبُ الأمير، وإنما يريدون مَضْرُوب الأمير»[٩٣].

والتبادل بين المصدر واسم المفعول، مسألة بينة في العربية. جاء في شرح الفصيح للزمخشري: «الكتاب مصدرُ كتبَ يكْتُبُ كتباً وكِتاباً وكِتَابة، ثم يوصفُ المفعول بالمصدر فيقال للمكتوب: كتابٌ وكِتابةٌ، كما يقال للمخلوق: خَلْقٌ، وللدّرهم المضروب: ضَرْب تقول: "هَذَا خَلْقُ اللَّهِ"[٩٤]، وهذا الدّرهم ضَرْبُ الأمير»[٩٥] وكذلك قوله: «اعملْ على حَسَبِ ما أمرتُكَ، وحسَبُ في هذا الموضع بمعنى مَحْسُوب، وفَعَل بمعنى مَفْعُول في كلامهم موجود، كقولهم: نَفَضٌ للمنفوض،

---

٨٨ ــ القيامة: ١٢.

٨٩ ــ البقرة: ٣٦.

٩٠ــ العكبري، التبيان في إعراب القرآن ١: ٥٣ .

٩١ ــ الحج، ١٨.

٩٢ ــ ابن منظور، لسان العرب، مادة (خرج) و مادة (دخل).

٩٣ــ سيبويه، الكتاب ٤: ٤٣ .

٩٤ ــ البقرة: ١٨٣.

٩٥ ــ الزمخشري، شرح الفصيح، ١: ٦ .

وخَبَطٌ للورق المخبوط»[٩٦].

وقد جاء بعض هذه المصادر المراد بها اسم المفعول في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ»[٩٧] فـ (كَذِب) مصدر على وزن (فَعِل) دلّ في هذه الآية على موصوف بالحدث، وهو اسم المفعول الذي أدى المصدر معناه ووظيفته. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً»[٩٨]. قال أبو حيان: «الرزق هنا المرزوق»[٩٩]. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: « وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ»[١٠٠] والنسل: مصدر أريد به اسم المفعول[١٠١]. ومنها قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ»[١٠٢]، أي مكروه، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كما أشار الزمخشري في كشافه[١٠٣]. وقوله تعالى: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً»[١٠٤]، أي: مدكوكاً. قال الزمخشري (دكّاً) أي مدكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندكّ[١٠٥].

ولعلّ هذا التناوب بين المصدر واسم المفعول مظهر من مظاهر التوسع اللغوي، فما جاء من المصادر بمعنى اسم المفعول، نحو: الخلْق بمعنى المخلوق، والحلَب بمعنى المحلوب، قد يكون بقايا مرحلة كان يؤدي فيها المصدر معاني الصيغ الصرفية، ومن بينها اسم المفعول، وربما كانت هذه المصادر تفيد مجرد الحدث، ثم تطورت لإفادة معنى اسم المفعول، وفي مرحلة لاحقة مالت فيها اللغة نحو تخصيص المعاني الصرفية، وأصبح لاسم المفعول صيغته الخاصة به، شأنه في ذلك شأن بقية

٩٦ــ الزمخشري، شرح الفصيح، ٢: ٥٤٧.

٩٧ ــ يوسف: ١٨.

٩٨ ــ البقرة: ٢٥.

٩٩ــ أبو حيان، البحر المحيط ،٢: ١٠٨.

١٠٠ ــ البقرة: ٢٠٥.

١٠١ــ المصدر نفسه، ٢: ١٠٨.

١٠٢ ــ البقرة: ٢١٦.

١٠٣ــ الزمخشري، الكشاف، ١: ٣٠١.

١٠٤ ــ الأعراف: ١٤٣.

١٠٥ــ المصدر نفسه ،١: ٧٤٨.

المشتقات، وقد أسهم في هذا الأمر ما سمّاه النحاة الوصف بالمصدر، وهو ملمح تطور وظيفة المصدر من مجرد الدلالة على الحدث إلى إفادة أحد معاني الصيغ الصرفية.

خاتمة البحث:

و في نهاية المقالة يمكننا التسجيل، أهم ما النتائج البحث، وهي:

ـ بيّن البحث أن استخدام المصدر بمعنى اسم الفاعل، واسم المفعول بمعنى المصدر، مظهرٌ من مظاهر التوسّع في اللغة، وهو الأقدم تاريخياً للتعبير عن اسم الفاعل وقد يدل ذلك أن الوصف بالمصدر شائع في العربية، وفي ذلك تأكيد على أن العرب كثيراً ما تنعت بالمصدر، وتأتي بالحال مصدراً منكراً.

ـ أثبت البحث أن الاشتراك بين المصدر وصيغ المبالغة شكلا مسألة شائعة في العربية، ويبدو أن هذا الاشتراك يدخل في باب التوسع في توظيف المشتقات.

ـ بين البحث أن الاشتراك بين صيغ المصدر وأبنية الصفات المشبهة شكلاً متداول في كلام العرب، ومما أسهم في هذا الاشتراك تعدد صيغ المصدر، تعدداً قد يفضي إلى أن تتشابه بعض أوزان المصدر مع أبنية الصفات.

ـ أظهر البحث أن ما جاء من صيغ المصادر على وزن المفعول، يمكن أن يفسّر بأن صيغة (مَفْعول) من الصيغ الصرفية التي كانت تستخدم لإفادة معنى المصدر في مرحلة من مراحل طور اللغة. وفي مرحلة لاحقة مالت فيها اللغة نحو تخصيص المعاني الصرفية، وأصبح لاسم المفعول صيغته الخاصة.

ـ بين البحث أن شيوع اسم المفعول من غير الثلاثي لإفادة معنى المصدر يرجع إلى أن المصدر الميمي من غير الثلاثي قد يوافق شكلاً بناء اسم المفعول من غير الثلاثي.

ـ أظهر البحث كثرة النصوص اللغوية التي تشي بوجود ظاهرة التناوب بين المصدر والمشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية، ولحظ البحث أن هذه النصوص لم تقف عند الشعر وحده، ولا النثر فقط، ولا القرآن الكريم فقط، وإنما شملت ذلك كله.

ـ إن ما ورد في هذا البحث من شواهد، قوة لقواعد اللغة نحواً وصرفاً، ووصف لها بالمرونة والاتساع، والقدرة على التنوع.

المصادر والمراجع

ــ القرآن الكريم.

ــ الأستراباذي، رضي الدين (ت٦٨٦هــ) شرح الشافية، دار الكتب العلمية، بيروت (١٣٩٥هــ ــ ١٩٧٥م)

ــ الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح ديوانه، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه، د. حنا نصر حتي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٢٤هــ ــ ٢٠٠٤م)

ــ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن تح. محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت. د. ت.

ــ الألوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، قرأه وصححه محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت. د. ت.

ــ ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم (دار نهضة مصر، القاهرة) د. ت.

ــ الأندلسي، أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف (ت ٧٥٤هــ)، البحر المحيط، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض ــ د. ت.

ــ البغدادي، عبد القادر (ت ١٠٩٣هــ) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هــ، ١٩٨٩م.

ــ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٣٠هــ)، فقه اللغة وسرالعربية، تح. مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٩٣٨م.

ــ ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح. محمد علي النجار، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦.

ــ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها، تح. علي النجدي ناصف، وعبد الحليم نجار، وعبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ج. ع. م، ١٣٨٦ هــ.

ــ الحسحاس، سحيم عبد بني، ديوانه، تح. عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

ـ الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فن الصرف، شرح د. محمد صالح الشنطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، ط١، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

ـ الخنساء، ديوانها، دار صادر، بيروت، ١٣٨٣ هـ: ١٩٦٣ م.

ـ الزمخشري، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح. عبد الرزاق المهدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

ـ شرح الفصيح، تح، ودراسة د. إبراهيم بن عبد الله بن جمهور الغامدي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، مكة المكرمة، ١٤١٧ هـ.

ـ سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح. عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.

ـ السيوطي، أبو بكر، جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، تح. طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.

ـ طرفة، ديوانه، شرح الأعلم الشنتمري، (شالون، مطبعة فرطرند)، ١٩٠٠ م.

ـ عضيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

ـ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز، تح. علي عوض وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ـ العكبري، أبو البقاء، التبيان في إعراب القرآن، تح. علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

ـ عمايرة، إسماعيل أحمد، التطور التاريخي لأبنية المصادر في العربية، دراسة مقارنة، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مج١٤، العدد١، ١٩٩٦ م.

ـ بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، عمان، ط١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦.

ـ العيني، بدر الدين، (ت ٨٥٥ هـ)، شرح المراح في التصريف، حققه وعلق عليه عبد الستار جواد، د.ت.

ـ الفرزدق، ديوانه، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠ هـ، ١٩٦٠ م.

ـ قباوة، فخر الدين، تصريف الأسماء والأفعال، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.

ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تفسير القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ م.

ـ ابن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تح. محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م.

ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

ـ المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، (ت ٢٨٥ هـ)، المقتضب، تح. محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٣ .

ـ مجنون ليلى، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ت.

ـ المخزومي، شعر الحارث بن خالد، تح. يحيى الجبوري، ط١، بغداد، منشورات مكتبة الأندلس، (١٣٩٢ هـ، ١٩٩٧ م).

ـ النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل، إعراب القرآن، تح. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، دار النهضة العربية، ١٩٨٥.

ـ النميري، الراعي، ديوان، جمعه وحققه راينهرت فايبرت، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، (١٤٠١ هـ، ١٩٨٠ م).

ـ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٢، مؤسسة الصادق، طهران، ١٣٧٨ هـ.

ـ ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي (ت ٦٤٣ هـ)، شرح المفصل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.

لم ولمّا الجازمتان ودلالاتهما في القرآن الكريم

د. يونس علي يونس*

الملخص

يُسلط هذا البحث الضوء على أداتين جازمتين مبيناً دلالاتهما في القرآن الكريم وهما (لم ولمّا) الجازمتان، وذلك من خلال قراءة متأنية في القرآن الكريم، ويركز على الجوانب المتعلقة بمعانيهما وأقسامهما، وقد تم فيه عرض آراء العلماء في مسألة وجوب عملهما، وما هي مواقع إعراب الجمل المنفية بلم، ثم إحصاء مواقع لم ولما في القرآن الكريم.

وما أتوخاه من هذا البحث أن يتعرف القارئ على دلالة هاتين الأداتين الجازمتين في القرآن الكريم وتنوعاتهما.

ولقد تتبعنا جل المسائل المتعلقة بهاتين الأداتين في القرآن الكريم ووصفنا الطريقة التي تعاطى بها النحاة والمفسرون، وتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن آراء النحاة والمفسرين كانت متفقة حيناً، ومتباينة في بعض المواضع.

كلمات مفتاحية: القرآن ــ الجزم ــ لم ــ لما ــ الدلالة.

مقدمة:

الجزمُ في اللغة، القَطعُ، فَلِذلك كَان في الكلامِ حَذف الحركةِ أو ما قام مقامها، وفي اصطلاح النحاة: إنّما هو حذفٌ، والحذف تخفيفٌ، أي: حذف الحركة الإعرابية من آخر الفعل وتسكينه، أو ما قام مقامها كحذف النون من الأفعال الخمسة، وحذف حرف العلة من آخر الفعل المعتل عند جزمه، والحذف والقطع سيان، ولذا سموه جزماً(١).

وقد حكي عن أبي بكر بن السراج أنه شبّه الجازم بالدواء، والحركة في الفعل بالفَضلة التي يخرجها الدواء، وكما أن الدواء إذا صادف فضلة حذفها، وإنْ لم يجد فضلة أخذ من نفس الجسم، فكذلك الجازم إذا دخل على الفعل، إنْ وجد حركة أخذها، وإلا أخذ من نفس الفعل، وسهل حذفها وإنْ كانت أصلية لسكونها، لأنها بالسكون

---

* مدرس ــ قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب ــ جامعة تشرين ــ اللاذقية ــ سوريا.

١ــ الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف , ٢: ٥٧٥, هادي عطية: الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، ط١، ص٦٨٨ .

تضعف[٢].

إذاً،لا بدّ للمجزوم أن يُحذف من آخره علامة الرفع، وإذا كان الفعل معتلاً سُكّن آخره علامة للرفع، ولا بد أن يكون للجزم علامة وتأثير، فلما لم يصادف في آخر الفعل إلا حرفاً ساكناً حذفه، ليكون بينه وبين المرفوع فصل، وجاز حذف الحرف لضعفه، إذ كان ساكناً، فجرى مجرى الحركة في جواز الحذف عليه[٣].

هدف البحث:

وقع اختياري على هذا البحث وهو (لم ولما) الجازمتان ودلالاتهما في القرآن الكريم؛ لأن معظم ما ورد فيهما في كتب اللغة والتراث ما هو إلا شذرات متفرقة وآراء متباينة، فوجدت أنه من المفيد أن أجمع هذه الآراء وأقدم دراسة متواضعة، جامعاً شتات ما تفرق في الكتب لتكون مجتمعة في حيّز محدد يسهل على القارئ الإلمام بها دون عناء وجهد.

وجوب عمل (لم ولما):

جاء في أسرار العربية لأبي البركات ابن الأنباري: " إنْ قال قائلٌ: لِمَ وجب أن تعْمَل (لَمْ ولَمَّا ولام الأمر، ولا في النهي) في الفعل المضارع الجزم؟ قِيل: إنّما وجب أن تعمل الجزم لاختصاصها بالفعل؛ وذلك لأن (لَمْ) لَمَا كانت تدخل على الفعل المضارع فتنقله إلى معنى الماضي، كما أنّ (إنْ) التي للشرط والجَزَاء تدخل على الفعل الماضي فتنقله إلى معنى المستقبل، فَقَد أشبهت حرف الشرط، وحرف الشرط يفعل الجزم، وكذلك يقتضي جُملتين، فَلِطول ما يقتضيه حَرْفُ الشرط اختير له الجزم، لأنه حذف وتخفيف، فبمنزلته (لَمْ) في النقل، وكان محمولاً عليه"[٤].

٢ـــ أبو البركات ابن الأنباري: أسرار العربية، دراسة وتحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هــ، ١٩٩٧ م، ص١٦٨.

٣ـــ ابن الوراق: علل النحو، تح: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١، ١٤٢٠ هــــ، ١٩٩٩ م، ص١٥٧.

٤ـــ الأنباري: أسرار العربية، ص١٧٢.

أما ابن الوراق فيرى أن الجزم لا بد من دخوله على الفعل، ليكون بإزاء الجر في الاسم، ووجب أن تكون هذه العوامل عاملة؛ لأنها قد لزمت الفعل وأحدثت فيه معنى، وإنما خصصت بالجزم لأن الشرط والجزاء يقتضي جملتين، كقولك إنْ تَضْرِبْ أَضْرِبْ، فَلِطول ما يقتضيه الشرط والجزاء اخْتير له الجزم لأنه حذف وتخفيف(٥).

والأصل في (لَمْ) أن تدخل على الماضي، الذى نُقلَ إلى لفظ المضارع؛ لأن(لَمْ) يجب أن تكون عاملة، فلو لزمَ ما بَعْدَها الماضي لما تبيّن عملها، فنُقِل الماضي إلى المضارع ليتبيّن عملها.

والفرق بينها وبين حرف الشرط والجزاء بيِّنٌ ظاهر، وذلك لأن الأصل في حرف الشرط والجزاء أن تدخل على فِعْلِ المستقبل، والمستقبل أثْقَلُ من الماضي، فَعُدِل من الأثقل إلى الأخف، فأمّا (لَمْ)، فالأصل فيها أن تدخل على الماضي، وقد وجب سُقوط الأصل، فلو جوّزنا دخولها على الماضي الذي هو الأصل لما جاز دخولها على الفعل المضارع الذي هو الفرع؛ لأنه إذا استُعمل الذي هو الأخف، لم يستعمل الفرع الذي هو الأثقل(٦).

وأما (لمّا)، فالجزم يقع بعدها، وبينها وبين (لَمْ) فرقٌ، وذلك أنّ (لَمْ) نفيٌّ لقولك: قامَ زيدٌ، ثم تقول: لَمْ يَقُمْ زيدٌ، فإذا قلت: قد قامَ، فنفيُه: لمَّا يَقُم، وذلك أن قد فيها معنى التوقّع، فزدت (مَا) على(لَم) بإزاء قد، الداخلة على الفعل في أول الكلام(٧).

وذكر ابن هشام أن " لَمْ حرف جزمٍ لنفي المضارع وقَلْبِهِ ماضياً "٨، نحو قوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾(٩).

ويرى سيبويه أن (لَمْ) حرف جزم ونفي، وعدّها نظير (لَنْ) في النفي، لكنه ذكر اختلافهما (فلَم) لنفي الماضي، و(لَن) لنفي المســتقبل، لذلك قال: " لَمْ نَفي لقوله: فَعَلَ

٥ــ ينظر: ابن الوراق، علل النحو، ص١٩٨، وينظر أسرار العربية ص١٧٢، وشرح جمل الزجاجي ٢: ٩٧.

٦ــ ص١٧٣.

٧ــ ينظر: ابن الوراق، علل النحو، ص١٩٨، والمقتضب ٢: ٤٤، والمقصد: ١٠٩١ــ١٠٩٢، الجنى الــداني: ٥٣٧، مغني اللبيب: ٣٦٧.

٨ــ مغني اللبيب: ص٢٥٧ .

٩ــ سورة الإخلاص: ٣.

و(لن) نفي لقوله: سَيَفَعَل"[١٠].

وذكر المبرد: أن لَم لنفي الماضي، ووقوعها في المستقبل من أجل كونها تعمل الجزم ولا جزم إلا مُعرب[١١].

وذهب الرُّماني مذهب سيبويه والمبرد، فرأى أن حكمها أنْ تدخل على المستقبل، فتنقلُ معناه إلى المضيّ، ويرى أنها عملت الجزم، ويتفق الفارسي معه في إحداثها المضيّ في الاستقبال وإنْ كان قد خالفه في عِلّة الجزم بها.

فالرماني يرى أنّها عملت الجزم، لأنها نقلت الفعل نقلتين: نقلته إلى الماضي ونفته كما سبق.

أما الفارسي فلم يجعل ذلك عِلّة لِجزمِها الفعل، فهو يرى أنّ (لا) الناهية، ولام الأمر يجزمان الفعل، ولم يجعل أحدٌ منهما المستقبل ماضياً[١٢].

وذهب ابن جني وبعض النحاة إلى أن (لَمْ) إذا شُبِّهَت بلا ضرورة يُلغى عملها، فيرتفع الفعل بعدها، فقد يشبهُ حروف النفي بَعضها، وذلك لاشتراك الجمع في دلالته عليه، وشاهدهم لما ذهبوا إليه قول الشاعر:

لَوْلا فَوَارِسُ مِنْ ذُهلٍ وَأُسْرَتِهِمْ يَوْمَ الصُلَيْفَاءِ لَمْ يُوفُونَ بالجَّارِ[١٣]

وجاء في اللباب للعكبري: "إنما أعملت (لَمْ) لأنها اختصّت، وإنما جَزمت لثلاثة أوجه:

أَحدها: أنّ الفعل في نفسه ثقيلٌ، و(لَمْ) تنقله إلى زمنٍ غير زمنٍ لفظِه فيزداد ثقلاً، فناسب أن يكون عملها الحذف.

والثاني: أنها تشبه (إنْ) الشرطية من حيث إنها تنقل الفعل من زمان إلى زمان، فجزمت كما تجزم (إنْ).

والثالث: إنّ (لَمْ) تُردّ المضارع إلى معنى المضي، فالفعل باعتبار لفظه يستحق

١٠ــ الكتاب: ٤: ٢٢٠.

١١ــ ينظر: المبرد، المقتضب، ط١، ٤٦، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

١٢ــ الحروف العاملة في القرآن الكريم: ص٧٠٠.

١٣ــ ينظر: ابن جني، المحتسب، ج٢: ٤٢، تح: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شبلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م، وينظر: خالد الأزهري، التصريح بمضمون التوضيح، ٤: ٣٦٧، تح: عبد الفتاح بحيري، ط١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م.

الحركة الإعرابية، وباعتبار معناه يستحق البناء، فجعل له حُكمٌ متوسط وهو السكون الذي هو في المبنيّ بناء، وفي المُعرَبِ حاصلٌ عن عامل"[١٤].

أقسام (لَمْ):

(لَمْ) حرف نفي له ثلاثة أقسام [١٥]:

الأول: أن يكون جازماً نحو قول الله سبحانه: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[١٦]، وهو المشهور.

الثاني: أن يكون ملغى لا عمل له، فيرتفع الفعل المضارع بعده كما في قول الشاعر :

لَوْلا فَوَارِسُ مِنْ ذُهلٍ وَأُسْرَتِهِمْ   يَوْمَ الصُلَيْفَاءِ لَمْ يُوفُونَ بالجَّارِ

وقد صرّح ابن مالك بأن الرفع بعْدَ (لَم) لغة قوم من العرب، وذكر بعض النحويين أن ذلك ضرورة[١٧].

الثالث: أن يكون ناصباً للفعل، حكى اللحياني عن بعض العرب أنه ينصب بِـ (لَمْ) كقراءة بعضهم:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ بفتح الحاء، وقوله:

في أيِّ يَوْمي مِنَ الموتِ أفِرُّ   أَيومٌ لم يقدرَ أمْ يومٌ قَدَر[١٨]

وخرّج ذلك ابن هشام على أن الأصل (نَشْرَحَن)، و(يَقدِرَن)، ثم حذفت نون التوكيد الخفيفة وبقيت الفتحة دليلاً عليهما[١٩]، وهذا ما ذكره المرادي[٢٠]، وفي هذا شذوذ: تُوكيد المنفي بـ (لَمْ) وحذفت النون لغير وقف ولا ساكنين[٢١].

١٤ـ أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، ج٢: ٤٧، تح: د. عبد الإله نبهان، دار الفكر، ط١، ١٩٩٥ م.

١٥ـ انظر المرادي، الجنى الداني، ص٢٦٦، تح: د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦ـ الإخلاص: ٣ـ٤ .

١٧ـ الجنى الداني: ٢٢٦.

١٨ـ البيت للحارث بن منذر، واستشهد به على جواز نصب المضارع بعد (لم) في قوله (لم يقدرَ) وهو عند العلماء محمول على أن الفعل مؤكد بالنون الخفيفة. مغني اللبيب: ص٢٧٥ ،والنوادر :ص١٣. والخزانة: ٤: ٥٨٩ .

١٩ـ ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ص٢٧٥ .

٢٠ـ المرادي، الجنى الداني، ص٢٦٦ـ٢٦٧.

٢١ـ ينظر: مغني اللبيب: ص٢٧٥.

وأفضل تخريج لذلك ما أورده ابن الأنباري في الإنصاف بقوله: إن اللحياني حكى أن من العرب من يجزم بـــ (لن) وينصب بـــ (لَمْ) إلى غير ذلك من الشواذ التي لا يلتفت إليها، ولا يقاس عليها[٢٢]، أو على أن هذه لغة بعض العرب، وعليها القراءة بالنصب كما في الآية الكريمة والبيت[٢٣].

(لمّا):

هي بين الحروف التي تعمل مرة ولا تعمل أخرى[٢٤]، وهي حرف نفـــي وجـــزم للفعل المضارع كـــ (لَمْ)، وقد نص ابن قتيبة على أنها بمعنى (لَمْ)، ومثاله عليها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾[٢٥]، وتقديره بـــ (بل لم يذوقوا عذاب)[٢٦].

وذكر الزمخشري أن (لمّا) فيها معنى التوقّع، وهي في النفي نظيـــر (قـــد) فـــي الإثبات، فقال: إن إتيان ذلك منتظر[٢٧]، في قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا يَـــأْتِكُمْ مَثَـــلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾[٢٨].

فذكر أنه أنزل نفي العِلم منزلة نفي متعلقه؛ لأنه مُنتفٍ بانتفائه، وذكر أن (لمـــا) بمعنى (لَمْ) إلّا أن فيها ضرباً من التوقّع، فدل على نفي الجهاد فيما مضـــى، وعلـــى توقّعه فيما يستقبل[٢٩]، في قوله سبحانه:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾[٣٠ و٣١].

وقد اختلف النحاة في (لمّا) هل هي بسيطة أو مركبة، فذهب بعضهم إلى أن الأصل (لَمْ) ولحقتها (مَا) في مقابلة (قَد) في الواجب، فإذا قلت: لَمْ أَضْرِبْ، فهو في

٢٢ـــ الإنصاف: ٢: ٦١٥.

٢٣ـــ الحروف العاملة: ص٤٠٢.

٢٤ـــ الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى)، معاني الحروف، ص١٣٢.

٢٥ـــ سورة ص: ٨.

٢٦ـــ الحروف العاملة في القرآن: ص٦٣٨.

٢٧ـــ المرجع السابق نفسه.

٢٨ـــ البقرة: ٢١٤.

٢٩ـــ الحروف العاملة: ص٦٣٨. وينظر الزمخشري، الكشاف: ١: ٢١٩.

٣٠ـــ آل عمران: ١٤٢.

٣١ـــ ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط: ٣: ٦٦. دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣ هـــ، ١٩٨٣ م .

مقابلة ضَرَبْتُ، وإذا قلت: لَمّا أضْرِبْ، فهو في مقابلة قَدْ ضَرَبْتُ، والدليل على ذلك أنك لا تحذف الفعل بعد (لَمْ)، فلا تقول: جِئتُ ولَمْ، تُريد جِئتُ ولَمْ أَدخُلْ، وتقول: جِئْتُ ولَمّا، تريد ولَمّا أدخُلْ، كما تقول: قَدْ تَقِفْ، وأنتَ تُريد قَدْ فَعَلْتُ(٣٢).

وفي التصريح قال الفراء: " أصل (لَمْ): (لا) فأبدلت الألف ميماً، كما قال في (لَنْ) أصلها(لا) فأبدلت نوناً ... كما أن القول بتركيبها هو رأي سيبويه عندما قال: وما في (لمّا) مُغيّر لها عن حال (لَمْ) كما غيرت (لَوْ) إذ قلت: لَوْمَا نَحْوَها، ألا ترى أنك تقول (لمّا)، ولا تتبعها شيئاً ولا تقول ذلك في (لَمْ)"(٣٣).

وذكر ابن هشام أن (لمّا) تأتي مركبة من كلمات، ومن كلمتين، فأما المركبة من كلمات فنحو قول الله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ كُلّاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾(٣٤).

في قراءة ابن عامر وحمزة وحفص بتشديد نون (إنّ) وميم (لمّا)، فيمن قال الأصل (لِمَن ما) فأبدلت النون ميماً وأدغمت، فلما كثرت الميمات، حذفت الأولى.

وهذا القول ضعيف، لأن حذف مثل هذه الميم استثقالاً لم يثبته وأضعف منه قول الآخر: (لما) بالتنوين بمعنى جمعاً، ثم حذف التنوين إجراءً للوصل مجرى الوقف، لأن استعمال (لمّا) في هذا المعنى بعيد، وحذف التنوين من المتصرف في الوصل أبعد(٣٥).

واختار ابن الحاجب أنها (لمّا) الجازمة، حذف فعلها، والتقدير: (لَمّا يعملوا)، أو (لَمّا يتركوا) لدلالة ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(٣٦)، والأولى أن يقدر (لَمّا يُوفوا أعمالهم)، أي أنهم إلى الآن لم يوفوها ويستوفونها، ووجه رجحانه أن منفيّ (لمّا) مُتوقع الثبوت، والإهمال غير متوقع الثبوت، وكذلك لأن بَعده (ليوفينهم) وهو دليل على أن التوفية لم تقع بعد(٣٧).

وأما المركبة من كلمتين، فكما في قول الشاعر:

٣٢ــ ينظر: ابن أبي الربيع، التبسيط في شرح جمل الزجاجي، ١: ٢٣٧، تح: عباد بن عباد .

٣٣ــ التصريح بمضمون التوضيح: ٤: ٣٦٨. وانظر الكتاب: ٤: ٢٢٣.

٣٤ــ سورة هود: ١١١ .

٣٥ــ مغني اللبيب: ص٢٧٩.

٣٦ــ سورة هود: ١٠٥.

٣٧ــ مغني اللبيب: ص٢٨٠ .

لَمَّا رأيتُ أبا يَزيدَ مُقاتِلاً ادَعُ القِتالَ وأَشْهَدُ الهَيجاءَ(٣٨)

فعلى أن الأصل (لن ما) ثم أدغمت النون في الميم للتقارب، ووصلا خطأ.

وذهب بعضهم إلى أنها بسيطة(٣٩)، والراجح ما ذهب إليه سيبويه ومن تابعه من النحويين في القول بتركيب (لمّا) من (لَمْ) و(ما) الزائدة حملاً لها على الكلمات التي زيدت عليها (ما)، فأحدثت فيها تغييراً عن حالها السابق، ومن هذه الكلمات (لوما) حيث ذكر سيبويه أن أصلها (لو) دخلت عليها (ما) فأحدثت فيها تغييراً(٤٠).

أي أنّ في (لمّا) قولين، هما: الأوّل أنها بسيطة، والآخر أنها مركبة، وتركيبها إما أن يكون من (اللام) و(مِنْ) و(ما)، نقله ابن الحاجب، وضعّف هذا الرأي ابن هشام لأنها عنده مركبة من كلمات، أو من كلمتين.

أقسام (لمّا):

الأول: أن تكون بمعنى (لَمْ) أي الجازمة للفعل المضارع، وهي حرف نفي، تدخل على الفعل المضارع فتجزمه وتصرف معناه إلى المضيّ(٤١).

فأما وقوعها معنى (لم) فقولك: لَمّا يأتِكَ زيدٌ، تريد: لَمْ يأتِكَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(٤٢)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(٤٣)، وقوله جل شأنه: ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾(٤٤)، معناه: لَمْ يأتِهم، ولَمْ يدخل، ولَمْ يذوقوا، ومن ذلك قول الأعشى:

فَقُمنا ولَمّا يَصِحِ ديكُنا إِلى جَونَةٍ عِندَ حَدّادِها(٤٥)

أراد (لم يَصِحْ).

٣٨ــ المصدر السابق نفسه.

٣٩ــ الجنى الداني: ص٥٩٣.

٤٠ــ الكتاب: ٤: ٢٢٣.

٤١ــ الجنى الداني: ص١١.

٤٢ــ يونس: ٣٩.

٤٣ــ الحجرات: ١٤.

٤٤ــ ص: ٨.

٤٥ــ الخزانة: ٣: ٤٨.

وفي رصف المباني قال المالقي: الموضع الأول من مواضع (لمّا) أن تكون جازمة للفعل المضارع فتُصيّر معناه للماضي، كـ (لَمْ) المذكورة في الباب، قيل: هذا، وهي جواب في التقدير لِمَنْ قال: قَدْ فعل، ولذلك دخلت عليها (ما) كأنها عوض مِنْ (قَدْ)، ولذلك تزيد على (لَمْ) بالاستمرار في النفي وتنفرد به دونها، ولذلك أيضاً يجوز الوقف عليها فتقول: شارفَ زيدٌ المدينةَ ولَمّا، وتريد: يدخلها، فحذفت الفعل لدلالتها عليها(٤٦).

وفي المقتصد للجرجاني: اعلم أن (لمّا) تدخل على المضارع فتجزمه كما تجـزم (لَمْ)، وتقلب المعنى إلى الماضي تقول: لَمّا يخرجْ زيدٌ أمسِ، ولا تقول: لَمّا يخـرجْ زيدٌ غداً، كما لا تقول ذلك في (لَمْ)(٤٧).

الثاني: لَمّا بمعنى إلا، ولها موضعان(٤٨):

أحدهما: بعدَ القسَم، نحو: نَشَدْتُكَ باللهِ لَمّا فعلْتَ، وعَزَمْتُ عليكَ لَمّا ضَرَبْتَ كاتِبَك سوطاً.

وثانيهما: بعد النفي، ومنه قراءة عاصم وحمزة(٤٩): ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّـا جَمِيـعٌ لَـدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٥٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٥١)، أي ما كل إلا جميع، وما كل ذلك إلا متاع، ونحو قول الله سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْـسٍ لَمَّـا عَلَيْهَـا حَافِظٌ﴾(٥٢)، أي وما كل نفس إلا عليها حافظ، ولما بمعنى إلا، لا تستعمل إلا في هذين الموضعين: أي في القسم، وبعد حرف الجحود(٥٣).

وفي الجنى الداني أن (لمّا) التي بمعنى (إلّا) حكاها الخليل وسيبويه والكسائي وهي

٤٦ــ المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، ص٣٠٤ــ٣٠٥، تح: سعيد صالح مصطفى، الناشر دار ابن خلدون.

٤٧ــ الجرجاني: المقتصد، ٢: ١٠٩٢.

٤٨ــ الجنى الداني: ٥٤٣. وانظر محمد علي الهروي: الأزهية في علم الحروف: ص١٩٨، تح: الملوحي، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م.

٤٩ــ انظر: الزمخشري، الكشاف: ١: ٥٣٦. والنشر: ٢: ٢٩١.

٥٠ــ ياسين: ٣٢.

٥١ــ الزخرف: ٣٥.

٥٢ــ الطارق: ٤ .

٥٣ــ الأزهية: ص١٩٨ .

قليلة الدور في كلام العرب، فينبغي أن يُقتصر فيها على التركيب الذي وقعت فيه، وزعم أبو القاسم الزجاجي: أنه يجوز أن تقول: لَمْ يأتِنِي مِنَ القومِ لَمّا أخوك، ولَمْ أرَ مِنَ القومِ لَمّا زيدٌ، يريد إلا أخوك وإلا زيداً، قيل: وينبغي أن يتوقف في ذلك حتى يرد في كلام العرب ما يشهد بصحة ذلك(٥٤).

الثالث: لَمّا التّعليقيّة:

وهي حرف وجوب لوجوب، أو وجود لوجود، بالدال، وبينهما قُرب في المعنى لكونها تَقتضي جملتين، وجدت ثانيتهما عند أولهما، نحو: « لَمّا جاءنِي عليّ أَكْرَمْتُهُ»، ومن مجيئها بمعنى (حين) قول الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾(٥٥)، وقوله جلّ شأنه: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾(٥٦)، التقدير: حين أسفونا، حين آمنوا(٥٧).

قال المالقي: «تكون (لمّا) حرف وجوب لوجوب إذا كانت الجملتان بعدها موجبتين كما سبق، فإن كانتا منفيتين كانت حرف نفي لنفي نحو: لَمّا لَمْ يَقِمْ زيدٌ لَمْ يَقِمْ عَمروٌ، وتكون حرف وجوب لنفي إذا كانت الجملة الأولى منفية والثانية موجبة، نحو قولك: « لَمّا لَمْ يَقِمْ زيدٌ أحسَنْتُ إليك» وبالعكس، وإذا كانت الأولى موجبة والثانية منفية نحو قولك: « لَمّا جاءَ زيدٌ لَمْ أُحسِنْ إليك»، وفيها معنى الشرط أبداً لا يفارقها ولا تدخل إلا على الماضي لفظاً أو معنى دون لفظ نحو ما مُثّل به»(٥٨).

الخلاف بين النحاة في (لَمّا) هل هي اسم أم حرف:

(لَمّا) لفظ مشترك بين الاسمية والحرفية، والمتفق عليه بين النحاة أن (لَمّا) الجازمة حرف، لأنها بمعنى (لَمْ) فهي حرف نفي وجزم وقلب، و(لَمّا) التي بمعنى إلا الاستثنائية حرف أيضاً، لأن (إلا) حرف يفيد الاستثنائية، كذلك (لَمّا) حرف يفيد

٥٤ــ الجنى الداني: ص٥٩٤ .

٥٥ــ الزخرف: ٥٥ .

٥٦ــ يونس: ٩٨ .

٥٧ــ الأزهية: ص١٩٩ .

٥٨ــ رصف المباني: ص٥٩٤.

الاستثناء(٥٩).

أما (لَمّا) التعليقية فقد وقع خلاف بين النحويين على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب سيبويه وأكثر النحويين أنها حرف، قال سيبويه: وأمّا (لَمّا) فهي للأمر الذي وقع لوقوع غيره، وإنما تجيء بمنزلة: (لَوْ) لما ذكرنا، فإنما هي لابتداء وجوب(٦٠)، فنرى أن سيبويه حكم على (لَمّا) بالحرفية لكونه جعلها بمنزلة (لَوْ)، فكما أن (لَو) حرف فكذلك (لَمّا).

المذهب الثاني: مذهب ابن السراج وأبي علي الفارسي وجماعة من النحويين حيث ذهبوا إلى أنها ظرف زمان بمعنى (حين)، وقد سلك هذا المسلك الهروي: أما وقوعها أي (لَمّا) بمعنى حين فكقولك: كَلَّمْتُ زيداً لما كَلَّمني، تريد حين كَلمني، جعلت (لمّا ظرفاً)(٦١)، ولذلك قال في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾(٦٢)، وقوله جل شأنه: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾(٦٣)، يريد حين أسفونا، وحين آمنوا. والصحيح ما ذهب إليه سيبويه لأوجه:

أحدها: ليس فيها شيء من علامات الأسماء، كما ذكر المالقي أن الاسمية فيها متكلفة، والحرفية غير متكلفة، وكل مبنيّ لازم البناء، فالحكم عليها بالحرفية إن دلت دلائل مقولية له في حيز الأسماء، و(لَمّا) وإن كانت بمعنى (حين) لم يخرجها هذا المعنى إلى الاسمية، فإن من الحروف ما يتقدّر بالأسماء وهو لازم بالحرفية، ومنها ما يتقدر بالفعلية، وهو لازم للحرفية(٦٤).

والثاني: أنها تقابل (لو) وتحقيق تقابلها أنك تقول: لو قامَ زيدٌ قامَ عمروٌ، ولكنه لمّا لم يَقُمْ لَمْ يَقُمْ، أي أننا إذا حكمنا على (لو) فكذلك ما يقابلها فهو (لَمّا).

والثالث: أنها لو كانت ظرفاً لكان جوابها عاملاً فيها، ويلزم من ذلك أن يكون الجواب واقعاً فيها، لأن العامل في الظرف يلزم أن يكون واقعاً فيه، وأن تقول:

٥٩ــ الجنى الداني: ص٥٩٢ــ٥٩٣.

٦٠ــ الكتاب: ٤: ٢٣٤.

٦١ــ الأزهية: ص١٢٩.

٦٢ــ الزخرف: ٥٥.

٦٣ــ يونس: ٩٨.

٦٤ــ انظر: الجنى الداني: ص٥٩٥.

لَمّا قُمْتُ أمسِ أحسَنتُ إليك اليوم، وقول الله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾[٦٥]، والمراد أنهم أهلكوا بسبب ظلمهم، لا أنهم أهلكوا حين ظُلمهم متقدم على إنذارهم، وإنذارهم متقدم على إهلاكهم.

الرابع: أنها تُشعر بالتقليل كما في الآية السابقة، والظرفية لا تُشعر بالتقليل.

الخامس: أن جوابها قد يقترن بـ (إذا) الفجائية كما في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾[٦٦]، وما بعد إذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها.

الفرق بين أقسام (لَمّا) الثلاثة من جهة اللفظ:

يتضح في أن (لَمّا) الجازمة لا يليها إلا مضارع ماضي المعنى، وأما (لَمّا) التي بمعنى (إلا) فلا يليها إلا ماضي اللفظ مستقبل المعنى، و(لَمّا) التي هي حرف وجوب لوجوب، وهي التعليقية لا يليها إلا ماضي اللفظ والمعنى أو مضارع منفي بـ (لَمْ)[٦٧].

زيادة (أنْ) بعد (لَمّا) التعليقية:

تزاد (أنْ) بعد (لَمّا) التوقيتية كثيراً، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾[٦٨]، وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾[٦٩].

وهذا ما ذكره سيبويه عندما قال: وأما (أنْ) فتكون بمنزلة لامِ القسم في قوله: أما والله إنْ فعلت لَفَعلتُ، وتكون توكيداً في قولك: لَمّا أنْ فعلَ، كما كانت توكيداً في القسم[٧٠].

٦٥ـــ الكهف: ٥٩.

٦٦ـــ الزخرف: ٤٧.

٦٧ـــ الجنى الداني: ص٥١٧.

٦٨ـــ يوسف: ٩٦.

٦٩ـــ القصص: ١٩.

٧٠ـــ الكتاب: ٤: ٢٣٤.

دلالة (لَمْ) في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات بقي معنى المضارع بعد (لَمْ) فيها على معنى الاستقبال، ولا يُراد بالمضارع بعدها معنى المضي، ولم أجد للمعربين ولا للمفسرين أقوالاً في هذه الآيات، وهي:

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾(٧١)، ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾(٧٢)، ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً ﴾(٧٣)، ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾(٧٤)، ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾(٧٥)، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾(٧٦)،﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾(٧٧).

وقول بعض النحاة بأن (لَمْ) قلبت معنى المضارع إلى معنى المضي، ثم أريد من الماضي معنى المستقبل بعد ذلك فيه أبعاد، وأيسر من ذلك أن تقول: إن حروف النفي يقوم بعضها مقام بعض، فتتبادل مواقعها، وقد صرح أبو الفتح بذلك: " فقد تشبه حروف النفي بعضها ببعض وذلك لاشتراك الجميع في دلالته عليه، ألا ترى إلى قوله:

أَجِدكَ لَم تَغتَمِض لَيلَةً ... فَتَرقُدَها مَعَ رُقّادِها

فاستعمل (لَمْ) في موضع الحال، وإنما ذلك من مواضع (ما) النافية للحال، وأنشد أيضاً:

أَجدّك أَنْ تَرى بِثعيلباتٍ ... وَلا بيدانَ ناجِيَة ذَمولا

استعمل أيضاً (لن) في مواضع (ما) "(٧٨).

٧١ـ الأعراف: ٤٦.

٧٢ـ الكهف: ٤٧.

٧٣ـ الكهف: ٥٢.

٧٤ـ الكهف: ٥٣.

٧٥ـ القصص: ٦٤ .

٧٦ـ الروم: ١٢ـ١٣ .

٧٧ـ الرحمن: ٥٦.

٧٨ـ ابن جني: الخصائص: ١: ٣٨٨.

يشير أبو الفتح إلى أن وقوع (لَمْ) و(لن) في جواب القسم إنما كان بالحمل على (ما)، وقد منع المبرد أن تقع (لن) في جواب القسم[٧٩].

وقال ابن هشام: وتلقي القسم بـ (لن) و(لَمْ) نادر جداً، كقول أبي طالب :

وَاللَّهِ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا[٨٠]

ووجدت في كلام: كمال الدين الأنباري ما يشير إلى هذا، قال: في قوله تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، أي لم يقتحم، و(لا) مع الماضي كـ (لَمْ) مع المستقبل كقوله تعالى: ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى ﴾ أي لم يُصدّق ولم يصلّ[٨١].

وقال أبوحيان في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾[٨٢]، وقيل: "(فلن أكون)، دعاء لاخبر، و(لَن) بمعنى (لا) في الدعاء"[٨٣]، والصحيح أن (لَن) لا تكون في الدعاء، وقد استدل على أن (لَنْ) تكون في الدعاء بهذه الآية بقول الشاعر:

لَن تَزَالُوا كَذَلِكُمْ ثُمَّ ما زِلْتُ لَكُمْ خَالداً خُلودَ الجِبالِ [٨٤]

إذا دخلت همزة الاستفهام على أداة نفي كان معنى الاستفهام هو الإنكار والتقرير، قال الرضي: «وإذا دخلت همزة الاستفهام على (لَمْ) و(لَمّا)، فهي للاستفهام على سبيل التقرير، ومعنى التقرير إلجاء المخاطب إلى الإقرار بأمر يعرفه، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾، و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ »[٨٥].

وقد ذكر ابن هشام في المغني خروج همزة الاستفهام الحقيقي إلى أنواع متعددة، بعضها له صلة بلم، منها:

١ــ **الإنكار الإبطالي:** وهذه تقتضي أنّ ما بعدها غير واقع، وأن مُدّعيه كاذب، مَثّل له بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ لما كان معناه شرحنا، و﴿أَلَمْ يَجِدْكَ

٧٩ــ المقتضب: ٢: ٦.

٨٠ــ المغني: ١: ٢٢١.

٨١ــ البيان: ٢: ٥١٤، ٤٧٨. وأمالي الشجري: ٢/٩٤، ١٢٨. وفي اللباب للعكبري بمعنى (ما)، ٢: ١٤٦، ١٥٤.

٨٢ــ القصص: ١٧.

٨٣ــ البحر: ٧: ١١.

٨٤ــ ينظر السابق.

٨٥ــ شرح الكافية: ٢: ٢٣٤.

يَتِيماً فَآوَى ﴾، و﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾.

٢ــ **الإنكار التوبيخي:** فيقتضي أن ما بعدها واقع، وأن فاعله ملومٌ، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾، ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾، ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ ﴾ ... .

٣ــ **التقرير:** ومعناه، جعلك المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر قداستقرعنده ثبوته أو نفيه، ويجب أن يليها الشيء الذي تقرره ...

فإذا قلت: ما وجه حمل الزمخشري الهمزة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، على التقرير؟

قلت: قد اعتذر عنه بأن مراده التقرير بما بعد النفي، لا التقرير بالنفي والأولى أن تُحمل الآية على الإنكار التوبيخي، أو الإبطالي، أي (ألم تعلم أيها المنكر للنسخ).

ثم عاد ابن هشام وجعل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ من الاستفهام التقريري"[٨٦]، وقد جعله فيما سبق من الإبطالي.

أما أبو حيان فقد جعل الاستفهام للتقرير في أكثر المواضع كما سيأتي:

١ــ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٨٧]، (ألم أقل) تقرير لأن الهمزة إذا دخلت على النفي كان الكلام في كثير من المواضع تقريراً، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، ولذلك جاز العطف على جملة إثباتية نحو (ووضعنا)، (ولبثت)[٨٨].

٢ــ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٨٩]، استفهام معناه التقرير، فلا يحتاج إلى معادل البتة، والأولى أن يكون المخاطب هو السامع، والاستفهام بمعنى التقرير كثير في كلامهم خصوصاً إذ دخل على النفي، ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾، فهذا كله استفهام لا يحتاج فيه إلى معادل، لأنه إنما أراد به التقرير[٩٠].

٨٦ــ ينظر المغني: ٢: ١٢٣.

٨٧ــ البقرة: ١٣٣.

٨٨ــ ينظر البحر: ١: ١٥ .

٨٩ــ البقرة: ١٠٦.

٩٠ــ ينظر البحر: ١: ٣٤٤ــ٣٤٥، والمغني: ١: ١٧.

٣ـ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٩١]، استفهام دخل على النفي، فهو تقرير، ليس له معادل، لأن التقرير معناه الإيجاب، أي علمت أيها المخاطب[٩٢].

٤ـ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾[٩٣]، همزة الاستفهام دخلت على حرف النفي، فصار الكلام تقريراً[٩٤].

٥ـ ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[٩٥]، هذا تقرير من الملائكة لهم، ورد لما اعتذروا به، أي لستم مستضعفين، بل كانت لكم القدرة على الخروج إلى بعض الأقطار[٩٦].

٦ـ ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾[٩٧]، الاستفهام للتوبيخ والتقريع، حيث أعذر الله إليهم بإرسال الرسل فلم يقبلوا به[٩٨].

٧ـ ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾[٩٩]، هو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما، والتنبيه على موضع الغفلة[١٠٠].

٨ـ ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾[١٠١]، هذا توبيخ وتقرير لما تضمنّه الكتاب من أخذ الميثاق، إنهم لا يكذبون على الله[١٠٢].

٩ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[١٠٣]، أي ألم يعلم المنافقون، وهو استفهام معناه التوبيخ والإنكار، وقرئ (تعلموا) بالتاء على الخطاب، فالظاهر أنه التفات، فهو خطاب للمنافقين، قيل ويحتمل أن يكون خطاباً للمؤمنين،

٩١ـ البقرة: ١٠٧.

٩٢ـ ينظر البحر: ١: ٣٤٥ .

٩٣ـ البقرة: ٢٤٣ .

٩٤ـ ينظر البحر: ٢: ٢٤٩ .

٩٥ـ النساء: ٤٩ .

٩٦ـ ينظر البحر: ٣: ٣٣٤ .

٩٧ـ الأنعام: ١٣٠ .

٩٨ـ ينظر: ٤: ٢٢٢ .

٩٩ـ الأعراف: ٢٢ .

١٠٠ـ ينظر البحر: ٤: ٢٨١. وانظر الكشاف: ٢: ٥٨.

١٠١ـ الأعراف: ١٦٩ .

١٠٢ـ ينظر البحر: ٤: ٤١٦.

١٠٣ـ التوبة: ٦٣.

فيكون معنى الاستفهام التقرير وإن كان خطاباً للرسول(ص) فهو خطاب تعظيم والاستفهام فيه للتعجب، والتقدير: لا تعجب من جهلهم في محاذاة الله تعالى(١٠٤).

١٠ــ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾(١٠٥)، استفهام تضمن التوبيخ والتقريع، وقرئ بالتاء خطاباً للمؤمنين على سبيل التقرير(١٠٦).

١١ــ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(١٠٧)، الهمزة للتقرير والتوبيخ(١٠٨).

١٢ــ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾(١٠٩)، قال لهم على جهة التوبيخ والتقريع: ألم أعهد(١١٠).

مع أفلم

١ــ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾(١١١)، "وفي ثم استفهم استفهام توبيخ وتقريع، والضمير في (يسيروا) عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ومن عاند الرسول .... أي هلا يسيرون في الأرض، فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك"(١١٢).

٢ــ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾(١١٣)،" في ذكر الله تعالى توبيخهم على إعراضهم عن إتباع الحق، أي ألم يتفكروا فيما جاء به عن الله، فيعلموا أنه المعجز الذي لا يمكن معارضته فيصدقوا به وبمن

١٠٤ــ البحر: ٥ : ٧٥

١٠٥ــ التوبة: ٧٨ .

١٠٦ــ ينظر البحر: ٥: ٧٥.

١٠٧ــ إبراهيم: ٩ .

١٠٨ــ ينظر البحر: ٥: ٤٠٨ .

١٠٩ــ يس: ٦٠ .

١١٠ــ البحر: ٧: ٣٤١.

١١١ــ يوسف ١٠٩ .

١١٢ ــ البحر ٥: ٣٥٣.

١١٣ــ المؤمنون ٦٨ .

جاء به"[١١٤].

٣ـ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾[١١٥]، "هو استفهام معناه التعجب، ومع ذلك فلم يعتبروا برؤيتها أن يحل بهم في الدنيا ما حل بأولئك، بل كانوا كفرة لا يؤمنون بالبعث، فلم يتوقعوا عذاب الآخرة "[١١٦].

مع أولم

١ـ ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ﴾[١١٧]، "الهمزة للتقرير ... قال ابن عطية: الواو واو الحال دخلت عليها ألف التقرير، وكون الواو للحال هنا غير واضح، لأنها إذا كانت للحال فلا بد أن تكون في موضع نصب، وإذ ذاك لا بد لها من عامل، فلا تكون همزة التقرير دخلت على هذه الجملة الحالية، وإنما دخلت على الجملة التي اشتملت على العامل فيها وعلى ذي الحال، ويصير التقدير: أسألت ولم تؤمن، أي أسألت في هذه الحال.

والذي يظهر أن التقرير إنما هو منسحب على الجملة المنفية، وأن الواو للعطف واعتنى بهمزة الاستفهام فقدمت ... ولذلك كان الجواب ببلى، وقد تقرر في علم النحو أن جواب التقرير المثبت، وإن كان بصورة النفي تجريه العرب مجرى جواب النفي المحض فتجيبه على صورة النفي، ولا يلتفت إلى معنى الإثبات "[١١٨].

مواقع الجملة المنفية بلم في الإعراب :

ــ وقعت خبراً للمبتدأ في: الأعراف ٨٧، الأحزاب ١٩.

ــ وخبراً لــ (إن) المكسورة الهمزة في: النساء ١٣٧ ١٦٨.

ــ وخبراً لــ (أن) المفتوحة الهمزة في: الأنفال ٥٣، يوسف ٥٢.

ــ وخبراً لليت في: الكهف ٤٢، الفرقان ٢٨، الحاقة ٢٥.

١١٤ــ البحر ٦: ٤١٣ .

١١٥ ــ الفرقان ٤٠ .

١١٦ ــ في البحر ٦: ٥٠٠ .

١١٧ ــ البقرة ٢٦٠ .

١١٨ ــ في البحر ٢: ٢٩٧ــ٢٩٨ .

ــ وخبراً لــ (كأن) في: الأحقاف ٣٥، النازعات ٤٦.

ــ وخبراً لــ (كأن) المخففة في: النساء ٧٣، الأعراف ٩٢، يونس ١٢ – ٢٤ – ٤٥، هود ٦٧ – ٩٦، لقمان ٧، الجاثية ٨، خبر كأن المخففة جاء مقروناً بلم في جميع مواقعه في القرآن.

ــ وقفت الجملة المنفية بلم خبراً (لأن) المخففة في: الإنعام ١٣١، الأعراف ٩٢ الجاثية ٨، البلد ٧ .

ــ وجاءت مفعولاً للقول في الحجر ٣٣، الحجرات ١٤، المدثر ٤٥.

ــ ومفعولاً ثانياً ليحسب في: الأحزاب ٢٠.

ــ وحالاً في: البقرة ٢٥٩، آل عمران ١٧٤، المائدة ٤١، الإنعام ١٥٨، الأعراف ١١ ــ ٤٦، القصص ٥٨، الأحزاب ٢٥، الرحمن ٥٦، الإنسان ١.

ــ وصفة في: النساء ١٠٢ ــ ١٦٤، المائدة ٤١، الأنعام ١٥٨، التوبة ٢٦ ــ ٤٠، النحل ٧، الكهف ٩٠، الأحزاب ٩ ــ ٢٧، محمد ١٥، الفتح ٢١ ــ ٢٥، الإنسان ١.

ــ بعد (حيث) في: الحشر: ٢.

ــ بعد (إذ): النساء ٧٢ ،الأحقاف ١١، المجادلة ١٣.

ــ بعد (إذا) الشرطية: الأعراف ٢٠٣.

ــ جوا ب (إذا) الشرطية: النور ٤٠ ــ ٦٢، الفرقان ٦٧ ــ ٧٣.

ــ بعد (لو): النور ٣٥.

ــ بعد (إن) الشرطية: البقرة ٢٤ ــ ٢٦٥ ــ ٢٧٩ ــ ٢٨٢، النساء ١١ ــ ١٢ ــ ٢٣، المائدة ٦٧ ــ ٧٣، الأنعام ٧٧، الأعراف ٢٣ــ ١٤٩، التوبة ٥٨، هود١٤، يوسف ٦٠، الكهف ٦، مريم ٤٦، النور ١٣ــ ٢٨، الشعراء ١٦٧ ــ ١١٦، الأحزاب ٥، القصص ٥٠، الأحزاب ٦٠، يس ١٨، الدخان ٢١، المجادلة ١٢، العلق ٥.

ــ بعد (من) المحتملة للشرطية والموصولية: في البقرة ١٩٦ ــ ٢٤٩، النساء ٢٥ ــ ٩٢، المائدة ٤٤ــ ٤٥ــ ٤٧ــ ٨٩، النور٤٠، الفتح ١٣، الحجرات ١١، المنافقون ٦.

ــ بعد (أم) في: البقرة ٦، المؤمنون ٦٩، الشعراء ١٣٦، يس ١٠، النجم ٣٦، المنافقون ٦.

ــ بعد (ثم) في: الأنعام ٢٣، التوبة ٤، النور٤، الحجرات ١٥، الطلاق ٥، البروج١٠.

ــ بعد (بل) في: الصافات ٢٩، غافر ٧٤.

ــ بعد (كما) في: الأنعام ١١٠.

ــ وقعت صلة للموصول في: البقرة ١٥، ١٩٦، ٢٣٩، آل عمران ١٥١ ــ ١٧٠ ــ ١٨٨، النساء ١١٣، المائدة ٢٠ ــ ٤١، الأنعام ٦ ــ ٨١ ــ ٩١، الأعراف ٣٣، التوبة ٩٤ يونس ٣٩، يوسف ٣٢، الرعد ١٨ ــ الإسراء ١١١، الكهف ٦٨ ــ ٧٨ ــ ٨٢، مريم ٤٣، طه ٩٦، المؤمنون ٦٨، النور ٣١ ــ ٥٨، النمل ٢٢، الزمر ٤٢ ــ ٤٧، غافر ٥٨، الشورى٢١، الفتح٢٧، المجادلة ٨، الممتحنة ٨، الطلاق ٨، الفجر ٨، العلق ١٥، الإخلاص ٣، الزمر ٤٢ ــ ٤٧، غافر ٧٤ ــ ٥٨ ــ ٤٢ ــ ٢١، الدخان ٢١، الجاثية ٨، الأحقاف ١١ ــ ٣٥، محمد ١٥ ــ الفتح١٢ ــ ٢٥ ــ ٢٧، الحجرات ١١ ــ ١٤ ــ ١٥، النجم ٣٦، الرحمن ٥٦، المجادلة ٤ ــ ٨ ــ ١٢ ــ ١٣، الحشر ٢، الممتحنة ٨، الجمعة٥، المنافقون ٦، الطلاق ٤، الحاقة٢٥، نوح ٢١، المدثر ٤٥، الإنسان ١، النازعات ٤٦، البروج ١٠، الفجر ٨، البلد ٧، العلق ٥ ــ ١٥، البينة ١، الإخلاص ٣.

ــ (فلم) في: النساء ١٣، ٩٠، المائدة ٦، الأنفال ١٧، التوبة ٢٥، الكهف ٤٧، ٥٢، غافر ٨٥، التحريم ١٠، نوح ٦، ٢٥.

ــ (ولم) في: البقرة ٢٤٧ ــ ٢٨٣، آل عمران ٤٧ ــ ١٣٥، النساء ١٥٢، المائدة ٢٧ ــ ٤١، الأنعام ٨٣ ــ ٩٢، الأنفال ٧٢، التوبة ٤ ــ ١٦ ــ ١٨، يوسف ٧٧، النحل ١٢٠، الإسراء ١١١، الكهف ١ ــ ٣٣ ــ ٤٣ ــ ٥٣، مريم ٤ ــ ٩ ــ ١٤ ــ ٢٠ ــ ٣٢ ــ ٦٧، طه ٩٤ ــ ١١٥ ــ ١٢٧، النور ٦، الفرقان ٢ ــ ٦٧، النمل ١٠ ــ ٨٤، القصص ٣١، الروم ١٣، الأحقاف ٣٣، النجم ٢٩، الممتحنة ٨٠، الحاقة ٢٦، المدثر ٤٤.

ــ (ألم) في: البقرة ٣٣ ــ ١٠٦ ــ ١٠٧ ــ ٢٤٣ ــ ٢٤٦ ــ ٢٥٨، آل عمران ٢٣، النساء ٤٤ ــ ٤٩ ــ ٥١ ــ ٦٠ ــ ٧٧ ــ ٩٧ ــ ١٤١، المائدة ٤٠، الأنعام ٦ ــ ١٣٠، الأعراف ٢٢ ــ ١٤٨، التوبة ٦٣ ــ ٧٠ ــ ٧٨ ١٠٤، يوسف ٨٠ ــ ٩٦، إبراهيم ٩ ــ ١٩ ــ ٢٤ ــ ٢٨، النحل ٧٩، الكهف ٧٢ ــ ٧٥، مريم ٨٣، طه ٨٦، الحج ١٨، ٦٣ ــ ٦٥، المؤمنون ١٠٥، النور ٤٣ ــ ٤١، الفرقان ٤٥، الشعراء ١٨ – ٢٢٥، النمل ٨٦، لقمان ٢٠ ــ ٢٩ ــ ٣١، فاطر ٢٧، يس ٣١ ــ ٦٠،

الزمر ٢١ ــ ٧١، غافر ٦٩، الحديد ١٤ – ١٦، المجادلة ٧ – ٨، الحشر ١١، التغابن ٥، الملك ٨، القلم ٢٨، نوح ١٥، القيامة ٣٧، المرسلات ١٦ ــ ٢٠ – ٢٥، النبأ ٦، البلد ٨، الضحى ٦، الشرح ١، العلق ١٤، الفيل ١ – ٢ .

ــ (أفلم) في: يوسف ١٠٩، الرعد ٣١، طه ١٢٨، الحج ٤٦، المؤمنون، ٦٨، الفرقان ٤٠ ، سبأ ٩، يس ٦٢، غافر٨٢، فاطر٣١، محمد١٠ .

ــ (أولم) في: البقرة ٢٦٠، الأعراف ١٠٠ – ١٨٤ – ١٨٥، الرعد٤١، إبراهيم: ٤٤، الحجر٧٠، النحل ٤٨، الإسراء ٩٩، طه ١٣٣، الأنبياء٣٠، الشعراء٧ – ١٩٧، القصص ٤٨ – ٥٧ – ٧٨، العنكبوت ١٩ – ٥١ – ٦٧، الروم٨ – ٩ – ٣٧، السجدة ٢٦ــ٢٧، فاطر ٣٧ ــ ٤٤، يس٧١ – ٧٧، الزمر٥٢، غافر٢١ – ٥٠، فصلت١٥ – ٥٣، الأحقاف٣٣، الملك: ١٩.

(لما) الجازمة في القرآن الكريم :

١ــ (لما) الجازمة يمتد نفيها إلى زمن التكلم، وأما منفي (لم) فيحتمل الاتصال كقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾، والانقطاع كقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾[١١٩].

٢ــ لا تقع (لما) بعد أدوات الشرط ولا تسبقها[١٢٠].

٣ــ يجوز حذف منفي (لما) في الاختيار[١٢١].

٤ــ (لما) أبلغ في النفي من (لم) لأنها تدل على نفي الفعل متصلاً بزمن الحال فهي لنفي التوقع[١٢٢].

والغالب في (لما) أن تستعمل في نفي الأمر المتوقع، تقول لمن يتوقع ركوب الأمير قد ركب الأمير، أو لما يركب الأمير، أو لما يركب، وقد تستعمل في غير المتوقع أيضاً نحو ندم زيد ولما ينفعه الندم[١٢٣].

١١٩ ــ المغني ١: ٢١٨ــ٢١٩، الرضي ٢: ٢٣٤، البحر ٨: ١١٧.

١٢٠ ــ الرضي ٢: ٢٣٤، المغني ١: ٢١٨، البحر ٢: ١٣٤.

١٢١ ــ الرضي ٢: ٢٣٤، البحر ٢: ١٣٤، الإيضاح ٣١٩ .

١٢٢ ــ البحر ٢: ١٤٠ .

١٢٣ ــ الرضي ٢:ــ٢٣٤ .

٥ــ تدل (لما) على أن منفيها يقع في المستقبل عند الزمخشري ورد عليه أبوحيان.

٦ــ وقعت (لما) بعد (بل) في قوله تعالى: ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾[١٢٤]. وبعد (كلا) في قوله تعالى:﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾[١٢٥]. وكانت جملتها صفة في قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[١٢٦]. وجاءت حالاً في كل مواقع (ولما).

٧ــ دخلت همزة الاستفهام على (لم) كثيراً في القرآن الكريم كما تقدم، ولم تدخل على (لما) وجاء ذلك في كلام العرب (ألما تعرفوا منا اليقينا).

الآيات التي وردت فيها (لما) الجازمة :

١ــ ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[١٢٧].

٢ــ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[١٢٨]. في "(لما) لنفي ما يقرب من الحال بخلاف (لم) فلما يقم نفي لـ (قد قام زيد)، ولم يقم نفي لـ (قام زيد) لأن قام زيد فيه دلالة على القرب من الحال لمكان (قد)، جملة (لما يلحقوا) صفة لآخرين"[١٢٩].

٣ــ ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾[١٣٠].

٤ــ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾[١٣١]، "(ولمّا) فيها معنى التوقع، وهي في النفي نظيرة (قد) في الإثبات والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر"[١٣٢].

---

١٢٤ ــ ص٨ .

١٢٥ ــ عبس ٢٣ .

١٢٦ ــ الجمعة ٣.

١٢٧ ــ ص٨ .

١٢٨ ــ الجمعة ٣ .

١٢٩ ــ البيان ٢: ٤٢٧ , الجمل ٤: ٣٣٤ .

١٣٠ ــ عبس ٢٣ ، البيان ٢: ٤٩٤ .

١٣١ ــ البقرة ٢١٤ .

١٣٢ــ في الكشاف ١: ١٢٩ , العكبري ١: ٥١، البحر ٢: ١٣٤ .

٥ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾[١٣٣] "و(لما) بمعنى (لم) إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضي، وعلى توقعه فيما يستقبل"[١٣٤].

وفي البحر: "وهذا الذي قاله الزمخشري في (لما) أنها تدل على توقع الفعل المنفي فيما يستقبل، لا أعلم أحداً من النحويين ذكره، بل ذكروا أنك إذا قلت: لما يخرج زيد دل على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً نفيه إلى وقت الإخبار"[١٣٥].

أما أنها تدل على توقعه في المستقبل فلا، لكنني وجدت في كلام الفراء شيئاً يقارب ما قاله الزمخشري، قال (لما) لتعريض الوجود بخلاف (لم).

٦ـ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[١٣٦] " فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله (ولما يأتهم تأويله) ؟، قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه"[١٣٧] وفي البحر: " ويحتاج كلام الزمخشري إلى نظر"[١٣٨].

٧ـ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١٣٩]. "وما في (لما) من معنى التوقع دل على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد"[١٤٠].

٨ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾[١٤١] "ولما معناها التوقع وقد دلت على أنها تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن"[١٤٢].

---

١٣٣ ــ آل عمران ١٤٢.

١٣٤ ــ الكشاف ١: ٢٢٠ .

١٣٥ ــ ٣: ٦٦ .

١٣٦ ــ يونس ٣٩.

١٣٧ ــ الكشاف ٢: ١٩١ .

١٣٨ ــ ٥: ١٥٩ .

١٣٩ ــ الحجرات ١٤ .

١٤٠ ــ الكشاف ٤: ١٧ .

١٤١ ــ التوبة ١٦ .

١٤٢ ــ الكشاف ٢: ١٤٢.

المصادر والمراجع

١ــ ابن الأنباري، لأبي البركات، أسرار العربية، دراسة وتحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هــ، ١٩٩٧ م.

٢ــ ابن جني، المحتسب، تحقيق علي النجدي ناصف وآخــرون، المجلــس الأعلــى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥ هــ، ١٩٩٤ م.

٣ــ ابن الشجري، هبة الله ، أمالي، تح: د.محمود محمد الطناجي، القــاهرة، مكتبــة الخانجي، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط١، ١٤١٣ هــ ــ ١٩٩٢ م.

٤ــ ابن عباد،عبادة، التبسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق.

٥ــ ابن الوراق، علل النحو، تحقيق د. محمد جاسم، ومحمد الدرويش، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١.

٦ــ ابن هشام، جمال الدين، شرح جمل الزجاجي، تحقيق د. علي محسن عيسى مال الله، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥ هــ، ١٩٨٥ م.

٧ــ ابن هشام، جمال الدين، مغني اللبيب، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٣٨٤ هــ، ١٩٦٤ م.

٨ــ الأزهري، خالد، التصريح بمضمون التوضيح، تحقيق د. عبد الفتــاح بحيــري، ط١، ١٤١٣ هــ ١٩٩٢م.

٩ــ الأندلسي، أبو حيان، تفسيرالبحرالمحيط، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣ هــ، ١٩٨٣ م.

١٠ــ البغدادي، خزانة الأدب، ط١، المطبعة الأميرية بولاق، مصر.

١١ــ جرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضــاح، تحقيــق د. كــاظم بحــر المرجان، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢ م.

١٢ــ الرماني، أبو الحسن، معاني الحروف، تحقيق عبد الفتــاح شــبلي، جــدة، دار الشروق، ١٤٠١ هــ، ١٩٨١ م.

١٣ــ الزجاجي، الجمل، تحقيق ابن أبي شنب، ط٢، ١٣٧٦ هــ، ١٩٥٧ م.

١٤ــ الزمخشري، أبي القاسم، الكشاف، دار الفكــر، ط١، ١٣٩٧ هــــ، ١٩٧٧ م.

١٥ـ سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١.

١٦ـ صالح مصطفى، سعيد، رصف المباني في شرح حروف المعاني، دار ابن خلدون.

١٧ـ عبد الحميد، طه، البيان في غريب إعراب القرآن، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م.

١٨ـ عطية، هادي، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، ط١.

١٩ـ العكبري، عبد الله بن الحسين، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق د. عبد الإله نبهان، دار الفكر، ط١، ١٩٩٥ م.

٢٠ـ المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

٢١ـ المرادي، الجنى الداني، تحقيق د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم، دار الكتب بيروت.

٢٢ـ الهروي، محمد علي، الأزهية في علم الحروف، تحقيق محمد الملوحي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.